

فلاحة من مصر — للفنان سناء وهران (مصر)

العدد الرابع
نيسان (ابريل) ١٩٥٧
السنة الخامسة

No. 4. Avril 1957
5 ème année

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص. ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH . LIBAN B.P. 4123
Tél . 32832

رئيس التحرير والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

تقديم العدد

في هذا العدد من « الآداب » إلحاح على ثلاث قضايا هامة : الاولى تعالج علاقة الله وأثره في الانتاج الشعري والفني والأهمية الروحية التي ترتبط بهذا الأثر في عالم تطغى عليه الحضارة الآلية . وقد عولج هذا الموضوع في ثلاثة اساليب : اولها « الله والشعر » باسلوب شعري ليست حاجتنا اليه بأقل من حاجتنا الى الاسلوبين التاريخي والعلمي اللذين يتضمنهما البحثان الآخران « الله في الفن » و « وضع الانسان الحديث » .

اما القضية الثانية ، فهي حلقة من تلك السلسلة التي تحاول ان تجد للعرب ، في وضعهم الحاضر ، فلسفة واقعية ومثالية في آن واحد . ولاشك في أن بحث هذا الموضوع ، والمضي في تقليب وجوهه ، من أجل الاهتداء الى درب لاحب فيه، هو خير ما يمكن ان يفعله مفكرونا ، حتى تقوم نهضتنا الحديثة على دعائم ثابتة ، بعيدة عن الارتجال والهوى وتقلب الظروف . وهذا ما يحاوله بحث « العروبة بين الفكر والعاطفة . »

واما القضية الثالثة فموضوعها الاردن الشقيق الذي اثبت في الأشهر الأخيرة ان شعبه ذو قابلية عظيمة للنهوض والتحرر والسيادة . و « بريطاني في الاردن » يصور اسلوب الاستعمار في اذلال ذلك القطر المتحفز ، بينما يصوّر « شاعر في المعركة » نموذج المفكر الواعي الذي يعمل بفكره ومسلكه للقضاء على هذا الاذلال . ويمكن اعتبار هذين البحثين تحية متواضعة للاردن في عهده الاستقلالي الجديد .

وتبقى في هذا العدد – بعد بحث السياسة العربية بحثاً شاملا صادقاً – المقالات الاخرى المتصلة بكثير من همومنا الفكرية والفنية والاجتماعية ، وفي طليعتها بحث مركز عن « شخصية الكلمة » ودراسة عن قصاصيين كبيرين من لبنان ، ونظرة جديدة الى « شهرزاد » توفيق الحكيم . ولابد من الاشارة الى مقال خطير في باب « النتاج الجديد » يتناول فيه كاتبه بالدراسة كتاباً اصدرته حديثاً مؤسسة فرانكلين عن « الثقافة الاسلامية والحضارة الحديثة » ، وفيه اكثر من سؤال وشك حول المقاصد البعيدة التي يرمي اليها هذا الكتاب اذ يحاول أن يعالج موضوعات الثقافة الاسلامية بنية مبيّتة بعيدة عن الروح العلمية التي يدّعيها لنفسه .

وفي هذا العدد ايضاً إثارة جديدة لقضية الشعر العربي الحديث . وسيظل هذا الموضوع محل إثارة ودرس ما دام هذا الشعر يتلمس طريقه ، فيتعثر تارة وينهض تارة اخرى ، بيد انه يظل موضع تقدير للبطولة التي يحاول أن يجد نفسه فيها عبر ركام من التقاليد الشعرية القديمة والقوالب الجامدة .

واذا كانت « الآداب » تملك ان تستكتب الادباء في موضوع الشعر وتقييمه ، فانها لا تملك أن تستكتب الشعراء شعراً، لأنها تؤمن بالاخلاص والصدق في الالهام الفني ، ولعل القارئ يلتمس لها العذر في ذلك اذا وجد مادة الشعر في هذا العدد اقل وادنى مما اعتاد .

« الآداب »

المشكلة الحقيقية في الشرق الاوسط

بقلم محمد النقاش

الامم المتحدة تعنى بمشكلات الشرق الاوسط .. لا يجتمع رجلا دولة غربيان الا وتكون مشكلات الشرق الاوسط في طليعة ما يبحثان ...

لماذا يتخذ الشرق الاوسط – والشرق العربي على وجه اخص – هذه الاولية في سياسة العالم ؟ الغرب يقول : إن مشكلة الشرق الاوسط هي تعرضه للخطر الشيوعي ... ويجب حمايته ووقايته بكل الوسائل من هذا الخطر ...

أما نحن فنعتقد أن مشكلة العالم العربي هي مشكلة اسرائيل والاستعمار ... وليس للخطر الشيوعي من أثر في ديارنا ، الا بقدر ما تستعدي اسرائيل علينا وتشحذ قابلية الاستعمار ...

موقف اميركا

وقد لاح لنا في فترة من الفترات ، أن الولايات المتحدة الاميركية ستنحو نحواً مناهضاً للنحو الذي تنحوه بريطانيا وفرنسا بطلتا الاستعمار الغابر في الشرق ... وأنها ستقلم أظفار اسرائيل ... لكن ثبت في النهاية ، أنه بالرغم من المبادئ السامية التي تحرك الرئيس ايزنهاور ، فان اميركا مرتبطة الى حد كبير بحليفتيها الغربيتين ، ومضطرة الى مسايرتهما في قضيتي السويس والجزائر ، أي مسايرة الاستعمار في ابشع صوره في الجزائر ، واحدث اساليبه في السويس.

وثبت لنا أن اميركا مشدودة الى اسرائيل بوثاق من المودة ، لايمكن فصم عراه ... ولعل هذا الصبر العجيب الذي أظهره ساسة اميركا تجاه انسحاب القوات الاسرائيلية من غزة وشرم الشيخ ، أي تجاه تصفية عدوان سافر شجبته كثرة الامم المتحدة – بما في ذلك اميركا – لعل هذا الصبر العجيب ، وهذا الوقت الثمين الذي اهرق مع بن غوريون وغولدا مئير وآبا ايبان ، دليل ابلغ دليل ، على عجز اميركا عن التفلت من شباك الصهيونية .

ان اختلاف اميركا مع بريطانيا وفرنسا احياناً ، يبدو كالخلاف الذي كان يذر قرنه بين بريطانيا وفرنسا نفسيهما بعض الاحيان ، حول مصالح استعمارية ... وما مشروع ايزنهاور – مهما يقل لتلوينه وتجميله – إلا نسخة لميثاق بغداد ... تقدمها ايد لم تلوث بدماء بور سعيد . والغاية منه اقامة جدار بين الدول العربية والاتحاد السوفياتي وغيره من الدول الشيوعية بحيث نصبح وجهاً لوجه مع الغرب وحده .. وهو وحده يسوي مشكلاتنا بما يتفق ومصالحه.

الحياد الايجابي

ولقد تنبهت مصر وسوريا والاردن والسعودية الى هذا ، كما تنبهت من قبل الى حلف بغداد . وصممت على اتخاذ ما سمي موقف الحياد الايجابي .

ولقد سئل وزير خارجية لبنان الدكتور شارل مالك غير مرة عن موقف بلاده من الحياد الايجابي . فكان جوابه دائماً : حددوا لي ماهو الحياد الايجابي بالضبط ، اجبكم عن السؤال ...

ولسنا نرى كبير صعوبة في تحديد هذا الحياد الايجابي المستعصى فهمه على وزيرنا الواسع العلم. فهذا الحياد يعني – الوقوف بين المعسكرين الشرقي والغربي موقف الحياد ، فلا نكون لفريق دون فريق اوعلى فريق . لكن هذا الحياد لا يقف بالتنكر للمعسكرين معاً ، ولا باللامبالاة ازاءهما ... بل هو حياد ايجابي ، أي ناشط يحاول كسب صداقتهما معاً ، والتأمل معهما في كل حقل خيّر ، والعمل ما امكن على التوفيق بينهما ، بحيث لا يثب احدهما على الآخر ...

فهذه الدول العربية تعرف أنها لا تستطيع أن تعيش في عزلة ، وأن تستغني عن العالم .. لكنها في الوقت نفسه ، لا تريد أن تخوض الحرب الباردة بين المعسكرين وأن تكون بطريق غير مباشر سبباً في حرب حامية .. وهي قبل كل شيء ، تحرص على أن لا تكون امعات وتوابع تدور في فلك هذا او ذاك ، وتفقد بذلك شخصيتها المستقلة ، وتقرير مصيرها بنفسها ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

ولئن كانت لا تدين بالشيوعية ولا ترتضيها نظاماً لها ، فهي في الوقت نفسه ، لا تستطيع أن تدين بالصهيونية والاستعمار ...

وهي لا تستطيع أن تدير ظهرها لدول كبرى وقفت الى جانبها في اكثر من قضية ، لمجرد أن هذه الدول تعتنق مبادئ معينة غير مبادئها ، وترتضي نظاماً للحكم غير نظامها – أن تدير ظهرها لها وترتمي مكتوفة اليدين في احضان دول غير شيوعية – لكنها لا تنفك تناهض اهدافها القومية ، وتكافح حركاتها التحررية ، وتمد يدها حتى بالسلاح وبالتواطؤ مع ألد اعدائها – للقضاء على أنبل واقوى نهضة عرفها العالم العربي عبر تاريخه الحديث .

موقف لبنان

أما لبنان الذي تنكر لميثاق بغداد صراحة ، فقد كان من نتائج العدوان المثلث على مصر ، ان تغير موقفه ، بدلا من ان يزداد صلابة .

وهكذا ، راح يرحب بمشروع الرئيس ايزنهاور ، حتى قبل أن يتدارسه الاميركيون أنفسهم ... وراح يعلن – على لسان رئيسه الأول – أنه ضد الحياد بين المعسكرين الكبيرين ، وأنه ينضوي تحت لواء الغرب ، ثم وقع على بلاغ لبناني – اميركي بقبول مشروع ايزنهور ...

وبديهي أن هذا التوقيع ليس نهائياً . اذ لا بد له كي يصبح كذلك ، من موافقة مجلس النواب .

وقد يقف المراقب السياسي – خارج لبنان – من هذا الانقلاب موقف الحائر المستغرب . فكيف يرفض لبنان حلف بغداد ، ويقبل مشروع ايزنهور ، بعد تصريح علني خطير على لسان رئيسه ، بأنه اختار الغرب ؟ ولماذا يحدث هذا على الأخص ، إثر العدوان على مصر ؟

لو اكتفى لبنان بقبول مشروع ايزنهور وحده ، لكانت الحجة الظاهرة أن اميركا وقفت موقفاً طيباً في وجه العدوان



على مصر ... ولا بأس بمصادقتها لكن لبنان انحاز نحو الغرب جميعاً — وبريطانيا وفرنسا من الغرب طبعاً — فلماذا ؟

هنا يحتاج المراقب الخارجي الى مراقب داخلي ... مراقب يعرف خبايا لبنان ومشكلاته الاساسية .. فالواقع أن لبنان حين وقف في وجه ميثاق بغداد . واجمع على ذلك ، لم يكن اجماعه بدوافع واحدة . فالفئة العربية فيه ، اوقل الفئة الاتحادية، انقسمت قسمين غير متساويين طبعاً ، قسماً أيد ميثاق بغداد على اعتبار أنه قد يجر الى الهلال الخصيب — ولو برعاية بريطانيا — وقسماً اكبر ناهضه جرياً مع السياسة المصرية التي نادت بعدم التحالف مع الغرب . أما الفئة الانعزالية فاجمعت تقريباً على التنديد بالميثاق البغدادي ، ورفضته جملة وتفصيلا .. باعتبار أنه يؤلف خطراً على كيان لبنان واستقلاله . هذا على الرغم من عدة اجتماعات عقدها رسل العراق مع فئة الانعزاليين وتأكيدات بذلت لهم بالاطمئنان على الكيان ... ولا ننس ان فرنسا التي تتبادل العطف مع الانعزاليين ، كانت مناوئة لميثاق بغداد .

وحدث العدوان ... واسفر عن انتصار مصر وحليفاتها في قلب الجامعة العربية . وهو انتصار عزز الجبهة العربية تعزيزاً عظيماً . وهذه الجبهة — جبهة القاهرة — ذات اتجاهات اتحادية أيضاً ... لذلك رأت الفئة الانعزالية فرصة في الشائعات التي روجت بدهاء حول « تشيوع» سوريا، فقلبت ظهر المجن ، متذرعة بموقف اميركا .

ان الفئة الانعزالية ، طالما بحثت في الغرب عن متكأ لها . فهي تدرك أن لبنان لا يستطيع الاعتماد في الحياة على موارده وقواه وحدها . وهو مهدد من الداخل والخارج بموجة الاتحاد العربي . فلا مناص من البحث عن قوة خارجية تحفظ له كيانه . وكانت هذه القوة ذات يوم فرنسا ... فلما ضعفت فرنسا ، اتجه الانعزاليون نحو اميركا . ووجدوا فيها العون المطلوب .

وهكذا ، نرى أن موقف لبنان الحالي ، لم يتقرر في الواقع بالنسبة الى الحياد او عدم الحياد . وانما تقرر في الأساس ، لعزله عن المجموعة العربية ، وابقاء شخصيته المستقلة او ما يسمونه طابعه الخاص عليه ، ولو شاب ذلك تدخل اجنبي وسلطة اجنبية ... فالفئة الانعزالية تعتبر ان لها ارتباطات مع الغرب ، غير ارتباطات السياسة . وهي ترى في هذه الارتباطات ما يكفل لها بقاء الطابع الخاص .

مشكلة غزه والعقبة

كان المعقول أن لا تكون هناك مشكلة لغزة ومياه العقبة . فقد حكمت الامم المتحدة بتصفية العدوان على مصر . ويجب أن تعود الحالة كما كانت قبل العدوان ، بحيث لا يكون له ثمرة او مكافأة . لكن اصطناع هذه المشكلة في غزة ومياه العقبة ، ما هو إلا جزء من مشكلة اسرائيل الاساسية ، أي جزء من مشكلة الاستعمار نفسها .

فالإستعمار الغربي — بشكله الجديد ، وبعد أن اضطر الى الاعتراف باستقلال كثير من بلدان العرب — يحرص على اضعاف الدول العربية ، وتشتيت شملها ما امكن ، وذلك حرصاً على استمرار ما تبقى له من مصالح كبري فيها .

وكانت اقامة اسرائيل شوكة في قلب الروض العربي ، جزءاً من هذه السياسة ، وجزءاً منها تقوية اسرائيل ، واضعاف الدول العربية على حسابها .

لذلك ، اصطنعت مشكلة غزة ومياه العقبة ، اولا — لاحراز انتصار متأخر على مصر وعبد الناصر . ثانياً — لإبعاد القوى المصرية — وهي مركز الثقل في الدفاع العربي — عن اسرائيل ما امكن . ثالثاً فك الحصار الإقتصادي العربي المضروب حول اسرائيل، عن طريق تحرير ميناء ايلات في خليج العقبة .

ومن وراء تحقيق هذه الغايات ، يرمي الفرنسيون والبريطانيون الى بلوغ بعض غاياتهم في قناة السويس .

ولا مشاحة في أن على العرب أن يقفوا موقفاً حازماً من هذه القضايا جميعاً . فكل تساهل في موضع ، يجر الى تساهل آخر ... وكل تساهل يفقدهم ورقة رابحة في حقل آخر .

ولقد احسنت مصر باسراعها في تولي الامور حالا في غزة . واحسنت السعودية في تمسكها بعروبة المياه الاقليمية في خليج العقبة . فمصيرنا مبسوط اليوم على بساط البحث . والعناد في حق — ونحن صراحة على حق — هو سبيلنا الى النصر ، اي الى البقاء في عزة وحرية .

اعيـــاد الاردن

احتفل الاردن في منتصف الشهر الماضي بالغاء معاهدته مع بريطانيا ، أي بتحرير أرضه من كل جندي اجنبي ، وتحرير سياسته من كل قيد خارجي .

والواقع أن هذا التحرر ، تقرر مبدئياً يوم طرد الملك حسين الجنرال كلوب قائد الجيش الاردني ، وعرّب قيادة هذا الجيش المرابط على أطول حدود لنا مع اسرائيل . ثم تقرر نهائياً ، يوم عقد اتفاق التضامن العربي في القاهرة، ذلك الاتفاق الذي اخذت بموجبه مصر والسعودية وسوريا على عاتقها امداد الاردن بالمساعدة المالية التي كان يتقاضاها سنوياً من بريطانيا .

ونحن اذ نهنيء الاردن بتحرره التام ، ونهنيء انفسنا به ، لا يسعنا إلا أن نتمنى للقطر الشقيق أن يسير في الطريق القويم ، وأن يظل متماسكاً في طور البناء كما كان متماسكاً في طور الجهاد . ولن يغيب عن بال قادته حديث الرسول الاعظم بانتهاء الجهاد الأصغر وبدء الجهاد الأكبر .

المهم أن يفيدوا من تجارب الأخوان ، ويتحلوا بنكران الذات ، ويؤمن الجميع أن الاستقلال امانة تصان ويضحى لها ، لا غنيمة تقتسم وتنهب ...

ذكرى الاستقلال التونسي

وفي العشرين من هذا الشهر ، احتفلت تونس الشقيقة بذكرى استقلالها الاولى ، بحضور وفود منجميع اقطار العرب .

وعلى الرغم مما لا يزال يشوب الاستقلال التونسي ، فلا شك عندنا أن القطر المغربي سيمشي قدماً الى أمام . وأنه سيكون — بسيره في حكمة ودون استهتار — عوناً كبيراً للجزائر المجاهدة ، هو من جهة ، والمغرب الأقصى من جهة ثانية . ومتى تحررت الجزائر استطاعت تونس أن تحتفل احتفالها الاكبر وتطمئن الى غد زاهر مأمون .

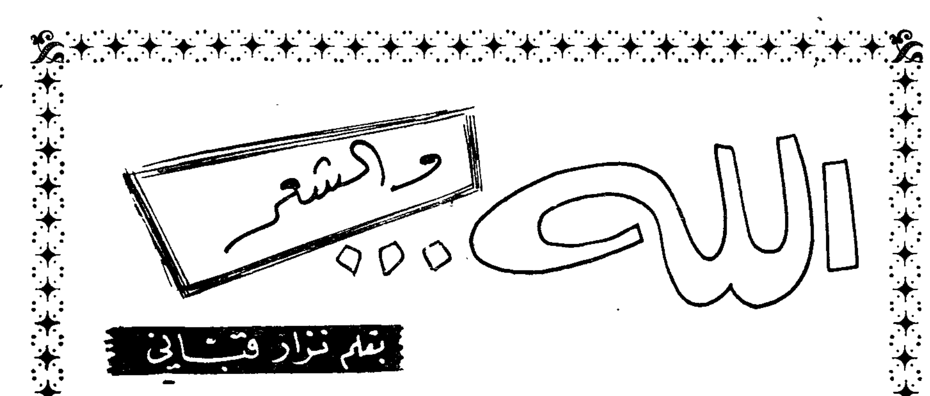
مجلس الجامعة

وفي الثامن عشر من آذار الماضي ، انعقد في القاهرة مجلس جامعة الدول العربية فيدورته السابعة والعشرين، وعلى جدول اعماله عدة قضايا، وبذلك تثبت الجامعة انها ما زالت قائمة، على الرغم مما يباعد بين فريق من اعضائها وفريق آخر، في حقل السياسة الخارجية .

ولعلها تثبت وجودها اليوم مؤسسة اقليمية اكثر منها مؤسسة قومية ، كما تمنيناها واردناها . فلقد اصبحت اشبه ما تكون بمنظمة الامم المتحدة ... فالاتفاقات الخطيرة في حقول السياسة والاقتصاد والثقافة تعقد بمعزل عنها ... ولا يبقى لها الا الشؤون الثانوية .

ومع ذلك ، فالابقاء عليها خير وبركة ، فما من شيء يجمد في الحياة . وما دامت جذور الجامعة قوية ، فلا بد أن تتطور نحو اهدافها الحقيقية .

محمد النقاش



الانسان (*) حيوان يقول شعراً. يتذوق شعراً .

هكذا يطيب لي ان اعرّف الانسان كما لم يعرف من قبل .

فكرة صغيرة أغامر وأضعها على الورق وتسمية جديدة أرجو أن تردّ للانسان بعض اعتباره الضائع وتضعه حيث يجب أن يكون .

أن نعرّف الانسان بأنه ناطق أو أنه ضاحك أوأنه اجتماعي ، ابقاءٌ لهذا الانسان في مرحلته الترابية وتمييزه عن القطيع الحيواني ببعض الخصائص العضلية الفيزيولوجية فقط ككونه ينطق .. او يضحك .. أو يعيش في جماعة .

أما ان نربط حقيقة الانسان بالشعر . ونجعل الاثنين موضوعاً واحداً، فهو تصعيد بقضية الانسان وتجديد أكيد لهويته .

الانسان كائن يولّد شعراً . وبتعبير آخر كائن حريص على ان يعبّر عن ذاته تعبيراً ممتازاً ، ان يقدّم نفسه في اطار نبيل . .

المفتاح الى قلب الحبيبة –كل حبيبة– سواء أ كانت سوداء تنبعث من بشرتها روائح المانغو .. ويختصر صدرها اليابس تمرد قارة ... طموح قارة ... أو واحدة من مواطنات جزر الهاواي المكتسيات حيناً بالاشيء .. وحيناً بصدفات البحر .. وأطواق زهرات الغاردينيا، او كانت سويدية شقراء من ماردات الشمال . المفتاح أغنية حب جميلة تقال عند شرفتها ..

الشعر هو كلمة السر .. من عرف متى يقولها وكيف يقولها استطاع أن يزحزح الصخرة المسحورة عن المغارة المسحورة ... ويصل الى صناديق اللؤلؤ والمرجان .. والى الحور المقصورات في الجنان. منذ اندار هذا الكوكب المتحضر على نفسه كان الشعر . أي منذ ان امتدت يد أول انسان الى أول زهرة برية ليحملها الى الانثى التي كانت تنتظره في ملجئه الحجري وليقول لها : (لم اصطد اليوم شيئاً لطعامنا وانما حملت لك هذا الكائن الجميل الذي وجدته مختبئاً في شقوق صخرة .. انه يشبه انفتاح فمك يا حبيبتي ..) .

هذه أول هدية جمال في تاريخ الهدايا .. أول حجر في بناء علم الاستيتيك ، أول كلمة في اول ديوان شعر .

أكيد ان الانسان وحده يملك نزعة تذوق الجميل والتعبير عن هذا الجميل . فالحيوان لا يهتم بالنجوم ، ولا يعنى بروعة الآصال ولازوردها السائل ، ولا يلتفت الى الزهرة ولا يحملها الى مسكنه ولا يتزين بها ، واذا اهتم بالزهرة فلكي يأكلها ويشرب عصيرها كما تفعل النحلة .

الى هذه النقطة اريد أن اصل لأوكد انفراد الانسان عن سواه من الكائنات الحية بالتذوق الذهني المجرد الخالص من كل نفع ، أو بتعبير آخر بالقدرة على التفريق بين (الجميل) و (النافع) . فهو بين أفراد فصيلته الوحيد الذي يقيم المتاحف وينحت الحجر ويطرّز جدران بيته بالرسوم ويملأ أوانيه بالورد ويتعبد الجميل لأنه جميل .

ان المقياس الوحيد لحضارة شعب هو قدرته على التطلع البرئ الى جمالية الاشياء ومحافظته على الحياد الذهني . الشعب المتحضر لا يحتكر الجميل ولا يستغله .

اذن فانا ابشّر بالانسان الشعر .. انني لا اخترع هذا الانسان فهو هنا.. وهناك .. انه في كل واحد منكم .. هو امامي على كل هدب وشفة .

الانسان الرقم يا أصدقائي لم يستطع أن يزحزح الانسان الشعر . لاتصدقوا من يقول لكم ان الشعر أضاع قضيته

> **« حين اراد الله ان يتصل بالانسان ويقنعه بوجوده، لجأ الى الشعر ..توّسل الى نفسه بالحرف الجميل ، بالنغم المسكوب ، بالفاصلة الانيقة . كان بامكانه ان يقول له « كن مؤمناً بي .. فيكون » ولكنه لم يفعل . اختار الطريق الانبل ، الطريق الاجمل . اختار الشعر .. »**

(*) بهذه الكلمة قدم الشاعر لقراءة من اشعاره في أمسية اقيمت بالجامعة الاميركية في بيروت بدعوة من ندوة مجلة « شعر » .

وانه انتهى . الشعر لا ينتهي الا اذا انتهت الحياة نفسها على هذا الكوكب الدائر .

أما مادام هناك مغارب تسفح العقيق وبحار تغزل الزرقة ، مادامت هناك نجوم تهرب من خيمتها لتشاركني مخدتي ؛ مادامت هناك عيون واسعة تمطر فيروزاً ، وعيون تلتقط هذا الفيروز وتشكه في سلك من النغم فيروزة فيروزة ؛ مادامت هناك مشاوير لم تمش .. ومواعيد لم تعط ؛ مادام هناك رياح تثور ، وشموس تدور ، ونجوم مفروطة عناقيد نور ؛ مادام الانسان السؤال منتصباً على هذه الارض يحب ويكره ، ويصلي ويسكر ، ويبكي ويبتهج ، ويؤمن ويكفر ، ويتمرد ويستسلم ، بل أقول مادام هناك عقد واحد في ادراج حبيبتي لم اكتشف لون حباته .. مادام في خزائنها ثوب واحد لم يره فضولي بعد .. فلا فرار من الشعر ، ولا انفلات من اصابعه الساحرة .

قلت لكم ان الشعر هو كلمة السر .. وأمامه تنفتح الابواب .. أبواب المدارك وابواب القلوب . وحين اراد الله أن يتصل بالانسان ويقنعه بوجوده لجأ الى الشعر .. توسل الى نفسه بالحرف الجميل .. بالنغم المسكوب .. بالفاصلة الأنيقة . كان بامكانه أن يقول له (كن مؤمناً بي .. فيكون) ولكنه لم يفعل . اختار الطريق الأنبل .. الطريق الأجمل . اختار الشعر .

« واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا .
« فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا .
« قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا
« قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكيا .
« قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا .
« قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة وكان أمراً مقضيا .
« فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا .
« فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا .
« فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا .
« وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا .
« فكلي واشربي وقري عينك فاما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسيا .
« فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت فريا .
« يا اخت هارون ماكان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا .
« فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا .
« قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا .
« وجعلني مباركاً اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا .
« وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا .
« والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا . »

هذه واحدة من قصائد الله. هل أدلكم على قصائد اخرى؟ اذن فافتحوا الاناجيل ، افتحوا المزامير .. لتروا كيف تسيل حنجرة الله بالشعر .. لتروا كيف تشف الكلمة حتى لتكاد أن تطير . لتروا كيف يجلس الله على مسند حرف ..

والانسان ، هذه الكتلة المفكرة من الطين ، لم يجد أجدى من الشعر في التقرب من خالقه .. القصائد المحفورة على جدران المعابد في ذرى التيبت ، في مجاهل الصين .. في صوامع الاقصر .. في هياكل أثينا ، وفي اديرة الساحل الفينيقي . تشير الى قدرة الشعر على فتح أبواب السماء . لماذا نذهب الى بعيد .. ألم يكن أجدادنا في بوادي الحجاز يعلقون القصائد على جدران الكعبة على مستوى واحد مع اللات والعزى فيعبدون اللات مرة .. ويعبدون الشعر مرات ؟

الشعر يمد يده الى الاشياء الميتة فيحييها . كما فعل موسى تماماً . والفارق الوحيد ان اداة موسى هي العصا .. واداة الشعر هي القلم .

الحجارة في ارض الحجاز كانت تبقى حجارة لو لم يمسحها

الشعر العربي بانامله المنعشة .. فيكسو كل حجر غلالة شوق .:
ويسقي كل ذرة رمل من حمرة جرح .. من شرايين موعد .:

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

هكذا يعيش الحجر .. هكذا يكتسي حشيشاً وبراعم ..
هكذا يصبح الحجر سماء .. والاشياء الصغيرة .. الصغيرة ..
التي تمتلكها حبيبتي .. قواريرها .. بيانها .. كتبها .. ثوبها
الجديد المنقول عن شجرة دراق مزهرة .. كل هذه الاشياء
ماذا تكون لو لم انفخ الروح بها .. لولم اطعمها قصائدي ؟.

وعينا من أحب، هذان المصباحان العسليان اللذان يشتعلان
ويشعلان حياتي .. ماذا يكون مصيرهما بغير شعر .. بغير
أغنية تسقيهما ؟ .

الزنابق في الربى .. والنجوم في السماء .. والعيون الكبيرة
الصاحية كصيف لبناني .. كلها كلمات تنتظر من يقولها .. وما
اشقى العيون الكبيرة يوم لاتجد من يقول لها أو يقول عنها
شيئاً .

لااريد ان اطيل مشوار النثر معكم ، على دفئه وحنان
ابعاده .. لااريد ان أسأل السؤال التقليدي البارد: ماهو الشعر؟
هذا لايهم أبداً اذ خير للوردة الجميلة أن لا تكتب مذكراتها.
وماذا يضير الوردة اذا جهل الناس تاريخ حياتها ؟ الجميل
لا تاريخ له . هو نفسه تاريخ . تاريخ التاريخ اذا شئتم .

اني هنا لاعطيكم شعراً .. لنمزق معاً اسوار الهنيهة
المحدودة . لنبني زماناً شعرياً أرحب وأغنى . لنجعل هذا
الليل كله يختبئ في دورة حرف .. في اناقة فاصلة .

الزمان الشعري الذي جئنا نعيشه معاً هو أنبل من كل
زمان .. أجمل من كل زمان . زمان لا يدخل في حساب
الساعة والتقويم ولا يستند الى مطالع الاهلة والنجوم.

الزمان الشعري يصنع نجومه واقماره بيده .

هل احدثكم عن الزمان الشعري ؟ انه زمان غير قياسي ،
غير منطقي ، غير عددي . ثوانيه اعرض من دهور ..
وهنيهاته اطول من مدات العتابا في بلادنا .

الزمان الشعري الذي الح على وجوده الحاحي على وجودي
لا صلة له بزمان الناس ، بمواسمهم ، بفصولهم ، باعيادهم ،
بآحادهم ،الاحد الذي الاقي فيه وجه الحبيبة محط زمني تحط
عليه الدنيا لتدفأ وتستريح . وهو أحد واحد . أحدي أنا
ولا سبيل الى مقارنته باحد اي انسان آخر . لان له شخصيته
وهويته . ولأنه بعد هذا كله لا يعود ابداً ولو عادتهي ،
أقول لا يعود ابداً لان الزمان الشعري لا يعود على نفسه كما
تجتر الساعات ثوانيها .

الزمان الشعري ، يتصرف بالزمان العددي كما يريد .
يخلقه ، يغيره ، يمحوه ، يوقفه بقدرة قادر . يكفي أن نفتح
ديوان شعر لنرى كيف تمد زهرة التوليب رأسها في غير
موسمها . كيف ينهمر الثلج من اصابع تموز . وتختلج اجنحة
السنونو في تشارين . كيف يستيقظ الطيب في مخدع الحبيبة
وفي اشيائها التريكة . كيف ينهض التاريخ كله بناره ورماده
في صورة وشاح مهجور . أو رسالة نائمة كالجرح المغلق .
كيف تتدحرج الامسيات من بؤبؤ عين اسبانية لتغرقك بليل
مطعم بضوء .. وضوء مطعم بليل .. حتى لتحار اين يبتدئ
الليل .. واين ينتهي النهار ..

وبعد وبعد .. فانا هنا لأعطي شعراً .. وانتم هنا لتعيشوا
معي هذا الشعر . لتكتبوه بيدكم .. لتنظموه باسلوبكم .. هل
اذهب الى ابعد من هذا فاقول إنني جئت لأسمع شعري
باصواتكم انتم .. لأتعرف على حروفي فيكم .

هكذا تكون القراءة الشعرية كما افهمها . فهي ليست
ترديداً ببغائياً ، لتجربة ميتة ، وانما هي خلق تجربة جديدة
بلحمها ودمها ودفق شرايينها . القراءة الشعرية ليست سوى
تكوين زمان شعري جديد جميع ثوانيه تهتز في وقت واحد
كانغام سمفونية عظيمة .

اذا اتفقنا على هذه النقطة الصغيرة الكبيرة في مبدأ القراءة
الشعرية .. أصبح في امكاننا أن نبدأ ...

نزار قباني

الله في الفن

بقلم محمد كمال زكي

كلمة اولى :

كان محض اتفاق أن أشرع في كتابة هذا البحث ويصدر قرار بحظر على طلبة الجامعة الأزهرية ممارسة الرسم كهواية يملأون بها شيئاً من فراغهم . ويبدو أن صاحب القرار قد آثر أن يهمل نداء الطبيعة في الانسان ، ويضع جانباً مسألة ترقية حس الكائن الإنساني ، ويقضي على الدافع الجمالي عنده ، ويباعد بين الدين والفن في أصرار وعناد وتصميم . والصور العارية التي رسمها طلاب الأزهر ، والتي أثارت شيخهم ، ليست إلا استجابة لنوع من التأمل الفطري يجب أن يتاح لكل واع يتطلع إلى أن يعيش حياته كاملة . فالمسألة ليست — في الواقع — مما يدخل في باب التحريم والتحليل ، ولا يمكن أن يكون لها هذا التهويل العاتي . والدين مهما يكن تزمت رجاله ينبغي أن يستند إلى ما يقدمه له الواقع من تجارب ، ولابد من الاعتماد على حرية أبنائه إذا طلب له البقاء . والخبرة الجمالية من حيث هي إحساس وتأثر وتعبير تفتح النفس إلى آفاق يحاول الدين نفسه أن يوجه النظر نحوها .

وإذا تناولنا الموضوع تناولا آخر رأينا أن الخبرة الجمالية ليست دون الدين قدرة على الكشف عن ذواتنا وعن جوهر الوجود ، بل إن في الدين قيوداً غيبية يجب احترامها ، في حين تتاح حرية مطلقة للفنان ، والكشف اللانهائي الذي يقوم به لا تُخشى مغبته لأنه في سبيل المجموعة المحبة للخير ، المتكافلة قواها على تحقيق السلام . ومن هنا يجب ألا ننكر آثار الفن في عملية التكامل الاجتماعي لأنه تحرير وبناء !

على أنه من الضروري الاعتراف بأن الفن في أكثر من حالة وقف مناهضاً للدين ، محارباً إياه ، منكراً لكثير مما عرض له . أجل من الضروري الاعتراف بذلك ، ولكن بعد أن نقول إن اختلال عملية التكامل في المجتمع كانت العلة الحقيقية . كان هناك ضغط ، وكان هناك اضطهاد ، وكان هناك سوء توزيع في الاقتصاد ، ثم كان هناك نقص في البناء الفكري العام .. وكل ذلك لاشك يؤثر على الأفراد — والفنانين منهم بخاصة — ويعبث بقيمهم ، ويقطع بهم السبل عن المضي في المجال المرسوم ، فيكون الواحد منهم مثل إنسان «باسكال» ابناً للقضاء والقدر ، حائراً ، قلقاً ، ضالا .. جاء من غيب مظلم إلى غيب أكثر ظلاماً !

هي محنة ولا ريب .. محنة ابتليت بها الإنسانية مرات ومرات ، وتبتلى بها اليوم في أزمات اجتماعية وثورات قومية ، وفي حركات سياسية واستعداد لحروب طاحنة . غير أن هذا كله إرهاص للتكيف الجديد ، وستواجه الإنسانية مواقف قد لا تسعفها تقاليدها على الاعتراف بها واحترامها ، وسيكون هناك من يحمل الشعلة ويمضي إلى الأمام ، ومن يصر على أن يطفئ نور الأمل ليقبع في السواد ...

وأنا أخشى أن يكون قرار الأزهر حركة تشبه هذه الحركات التي قام بها من قبل ، والتي تقف حائلا دون التقدم المنشود ، وأخشى أن تكون هناك حركات أخرى مماثلة يقوم بها القسس ، فما نرضى أن تتكرر المأساة فتقع اليوم كما وقعت من قبل ، فليس أشق على النفس من أن يسقط رجل الدين من حسابه ما في الأرض من جمال وانطلاق ...

أنا لا أحب أن نتهم — نحن العرب — بالجمود ، ولا نحب أن نظهر أمام الرأسمالية الأجنبية أننا نعبد إلهاً جامداً لا نستطيع حمايته ولا يقدر هو على حماية نفسه فيأتي العون منها في صورة غزو سياسي أو قهر اقتصادي . إن الله عندنا متسامح كريم قادر ، وليس في كتابه لنا — نحن المسلمين — نص واحد يعوق التطوير ويمسك بعجلة التقدم . إن ديننا يبنى الحياة ...

المجال السلوكي والفن :

قبل أن يموت « إميل برييه » عام ١٩٥٢ نادى بوجوب تحقيق توازن في الفعل بين العلم والحياة الروحية ، وبندائه هذا فتح السبيل إلى القضاء على النزعة المادية ، حصيلة القرن التاسع عشر كله ، بل بيّن لنا كيف أنه يمكن الانتفاع بآثار الدين انتفاعنا بتجارب العلم . لقد جاء هذا النداء من رجل مفكر

عالم بعد أن قام العقل البرجوازي بالغاء الله وإنكار العالم الآخر . ليس من شك في أنه رُوّع حين اطلع على آثار فلسفة البرجوازية بصفة عامة ، ووقف طويلا عند كاتب مثل « ماكولي » أو شاعر مثل « براوننج » هاله حالة الشك التي نجمت عن حركة التصنيع الهائلة ، ورأى أن المجال السلوكي في حاجة إلى تحديد جديد وأن الأهداف والقيود يجب أن تخضع لتعديل مناسب لأن صدع (النحن) يستلزم حتماً تغيير الطرق .

الدين إذن مقوِّم من مقومات المجال ، واستغناؤنا عنه استغناء عن جزء من بنائنا الحيوي . والفن في هذا البناء يعمل عمله ، ويبذل نشاطه ، ويدفع لنا عبقريات تعمل من أجل المجتمع في صورة شاعر أو موسيقي أو مثّال . والكامل من هؤلاء من يوازن بين القيم ويستجيب لكل ما في المجتمع ، فيؤمن بالعلم ويؤمن بالدين أو على الأقل تكون له حياة سوية .

نحن لانريد أن نتخبط تخبط « أوجست كونت » فنضع للمجال السلوكي فلسفة كفلسفته تقيم صرحها على عناصر كاثوليكية شوهاء لأننا لا نعيش في القرن التاسع عشر ، ثم لا نريد أن ننتهي نهاية « ليون برونشفيك » في اوائل هذا القرن فنبشر بديانة جديدة هي ديانة الإنسانية يدعمها العلم ، وإنما نقرر أن كل نشاط اجتماعي صدى لحاجة اجتماعية ، وينبغي أن نعنى بالدين طالما كانت حياتنا في حاجة إليه .

إن أوضح ما يتميز به عصرنا هو الحرص على تمجيد الإنسان ، وعلى استكناه حقيقته ، وعلى تبين كل المعالم لمجال سلوكه ، وعلى تعرّف علاقاته بالآخرين ، وعلى تقدير الضمير الجماعي الذي يحس بوطأته . فاذا فهمنا الأمر على هذا النحو وجدنا أنا ننتقص حقه بانتقاصنا أي شبر من مجاله . وإذا تركنا جانباً الدين ثم أهملنا الميتافيزيقا على اعتبار أنهما صدى للبحوث الدينية ، بقي الجانب المادي من مجاله محتاجاً إلى ما يدعمه من صفاء الشعور ودقة التفكير .

وقد يقال إن كثيراً من الفنانين باستشعارهم صدع (النحن) أهملوا الدين فاستكملت لهم أسباب العبقرية ، ومن هؤلاء بايرون وبشار وجيته وأبو العلاء . وربما يبدو هذا حقاً إذا لم نتعمقه ولكن الحق كل الحق أن سواهم كان على نقيضهم ، يحيا حياته المادية والروحية في اتزان كامل . والأمر مهما يكن يغرينا بالإشارة إلى عاهات هؤلاء ، فبايرون كان أعرج ، وبشار كان أعمى ومثله أبو العلاء ، وجيته كان ينشط فجأة لتعتريه حالة هبوطسوداوي ، فضلا عما صرح به هو نفسه من أنه عاش في مراهقة دائمة ، لقد قيل إن كل ذي عاهة جبار ! ومع ذلك فالمسألة لا تحتاج إلى كل هذا العناء لأن الدين كما أنزله الله من طبيعة دوره الاجتماعي أن يحدد اتجاه سير الغريزة ويحميها من الانحراف ، ولا يجوز في هذه الحال أن يقال عن الله إذا حدد في الدين مسلكاً غرزياً أنه قاومه بل يقال إنه قومه .

الفن إذن لا يهمل الدين أو ينكره بل هو معنى بكل ما في مجال السلوك الإنساني . وفرويد إذ يقول إن الفنان شخص ينصرف عن الواقع غالباً يبعد هو عن الواقع ، ولا يكفي مطلقاً أن يبدع لمجرد اطلاقه العنان لغرائزه الجنسية ! ولو قد وقف الدين هنا معوقاً عملية الإطلاق فليس معنى هذا أنه يمسخ الفطرة أو ينسخها .

فاذا كان ذلك فانه من الضروري أن نسلم بالدور الكبير الذي يلعبه الدين في الفن طالما كان عالم الغرائز دائرة يتحرك فيها . وسواء تهيأنا لرؤية الدين متعارضاً مع الفن أو متمشياً معه ، فاننا في حاجة إلى وقائع التاريخ قبل أن نفهم موقفنا اليوم .

الله في الفن القديم :

ولسنا نستطيع أن نتكلم هنا عن الفن البدائي فالأمر حوله يطول ، ويتعين علينا أن نمر بشتى مجتمعات عرفت أنماطاً مختلفة من الفن . وأقول الفن مابرغم قدينهض ازاء هذا القول من اعتراضات . والمشكلة تزداد تعقداً بانتقالنا إلى مجتمعات دخلت التاريخ في مرحلة متأخرة نسبياً ، لأن الحياة الروحية والتأثرية لهذه المجتمعات كانت تحددها قوى غيبية مختلفة وتهيمن عليها فكرة تعدد الآلهة ، فضلا عن أنا نشك في قيمة كثير منها من حيث هي تعبير جمالي خالص . والمسألة على أي حال أن مظاهر الدين الاجتماعية كانت تجد في الفن القديم وسيلة لظهورها ...

وعلى هذا الأساس ننظر إلى فترة ما قبل حمورابي — المؤسس الحقيقي للدولة البابلية — فنجد أن الفن السومر أكاري يهدف إلى تمثيل الطبيعة في ظل آلهة يقدم لها الولاء . وكان الحفر والنحت يحاطان بهالة من الشذوذ .. استجابة للحالة القلقة التي يضطرب بها الدين ، فالنسر له رأس أسد ، والثور يحمل هامة إنسان وهكذا . على أن عصر جوديا وملوك

أور كان يميل بصفة خاصة إلى إثبات المناظر - الدينية التي تمثل العبد متصلا بمعبوده عن طريق الوسيط .

ونرى في التراث البابلي قصيدة قيلت في تمجيد «مردوك» إله بابل ، وهي دليل واضح على اتصال الفن بالدين وعلى عناية الناس بفكرة الله وعالمه . ولكن مشكلة الخير والشر لم تمر في هذه الفترة من التاريخ دون أن يهتم بها أحد ، ومن ثم تساءل أكثر من شاعر كيف يحيق الشر بالفاضل ولا يمس السوء أهل السوء .. شك عميق عاشته الإنسانية وتعيشه اليوم!

أما الفن الأشوري فقد ابتعد عن الدين واهتم بتمثيل حيوانات الصيد ومناظر الحروب .. فهو أكثر واقعية من فن بابل ، غير أنه في بعده عن الإلٓه والكاهن لم يعن قط أن أصحابه أهملوا حياتهم الروحية ، فلقد صوروا الخير والشر وزادوا فرسموا الجن كما رسموا الإلٓه والإنسان . وكان يميز الجني جناحان وراء ظهره . ولكننا اذا اردنا أن نعرف مدى ما تتمتع به الآلهة من مكانة عندهم قرأنا ما كتب عن «بلاسر الأول» ملك العالم وسيد السادة الذي كان يحكم الآلهة .. الملك إذن أقوى من الإلٓه ! ومع ذلك فان « بلاسر » يقول إن الآلهة منحته القوة وطلبت اليه أن يغزو ويقهر ! !

وإذا اتجهنا غرباً نلتقي بالفن المصري ، أكبر ما يدل على امتزاج الفنان بالكاهن في مجتمع من المجتمعات .. فالدين هنا يؤثر تأثيراً بعيد المدى في الإنتاج الفني ويكيفه ويفلسفه ويحيطه بسياج قوي ليمثل فكرة البقاء .. الخلود .. خلاصة تفكير المصري القديم ، حتى ضخامة التمثال المنحوت وخامته كانتا من أجل تحقيق هذه الفكرة . بل إن التمثال نفسه يقوم مقام الجثة المحنطة لاسيما إذا تحللت أو سرقت أو أصابها الدمار . ومن الواضح أن تمثال الشخص يكبر بقدر ما تكون درجته في المجتمع وكان للملك دائماً أكبر التماثيل .. فيه رزانة وثقل وضخامة ووقار وهدوء ، فهو إله ، ولكن الجالس أمامه لم يكن في ذلة بادية .. ربما آثر الفنان أن يحفظ للمصري كبرياءه!

ويلاحظ أن النحت في الدولة المصرية القديمة قد وصل إلى مستوى رفيع من الكمال وامتاز بواقعية قوية وابتعد عما قد يشعر بأنه وسيلة لإثارة البهجة ، فهو لا يعنى بما تعنى به تماثيل الإغريق والرومان . وظل الأمر كذلك طول حكم ملوك الدولة الوسطى وإن لاحت بوادر الخروج على التقاليد القديمة . وأما الدولة الحديثة فقد كان لها فلسفة مغايرة ، وافتقدت التماثيل قوتها واعترتها رشاقة وفتنة . ولكن الفنان ظل تابعاً للملك خاضعاً لأوامره الدينية والدنيوية ، وظل يحرص على تمثيل الوجدانيات فيما يتصل بالرهبة والخوف ...

وليس من داع إلى أن نشير إلى فن العمارة ، فالمعابد والمقابر والأهرام والقصور — وقد كان الفن أرستقراطياً — هذه كلها تمتاز بالضخامة والقوة والاتساع .. فليس ثمة ما هو أكبر من فكرة الخلود ، وهذه جميعاً تصاغ من أجلها !

وأما الفن عند الإغريق فصلته بالدين واضحة .. سواء أكان ذلك في الرقص أم في الشعر أم في النحت ، ولكن فيه غموض ما رأينا من الفنون ، ولم يكن فيه خوف مطلق من آلهة ، ولم تكن هناك رغبة عن الدنيا .. حتى الطقوس الدينية فانها لم تكن لإثارة التحذير وانما كانت لتهدئة الضمير ! !

لم تكن الفلسفة الفنية عند الإغريق خاضعة للملك ، ولم تكن آلهتهم مخلوقات بعيدة عنهم ، بل هي بشر مثلهم تعيش في الطبيعة ، فسعى الفنان وراءها بحرية مطلقة . لقد صور الفنان الإغريقي الحياة الإنسانية وقاسها بمقاييس جمالية دقيقة .

لقد فكر الإغريقي في كل شيء ، وتصور كل شيء ، فلم يحس وحده ، ولم يحس انفصالا بين عالم المادة وعالم الروح ، وارتبط الدين عنده بالأرض وعاش الفن معه ، حتى إن الإلٓه نفسه لم يكن بأكثر من إنسان يأكل ويحب ويبغض ويطمع ويسرق و .. ويموت !

ونتقدم بعد هذا العرض فنقول إن الفن حتى تلك الفترة من تاريخ البشرية كان مصوراً للاعتقادات ، وكان عاملا على إثارة الانفعال ومعيناً في أداء الطقوس . بل نقول إن الانفعال الديني كله كان محتاجاً للفن حتى يشكله التشكيل المادي المنشود . فالفن والدين إذن متعاونان .

الله في الفن الحديث :

ولكن الأمر يتغير إذا عرضنا لنوعين آخرين من العقيدة ، فان ثمة تغيراً حدث نتيجة الاتجاهات الفكرية التي صاحبت انتشار المسيحية ثم تصدت بها للدعوة الإسلامية منذ القرن السادس ، وأصبحت الإنسانية إزاء وجهات نظر جديدة ، لا تستطيع أن تشبعها طريقة التفكير السامي وتمتاز بالإقبال الجدي على دراسة المشكلات الخاصة بالمجتمع إقبالا بعيداً عن نزعة الشك التي يمتاز بها العقل اليوناني .

— التتمة على الصفحة ٩١ —

العروبة بين الفكر والعاطفة

بقلم عبد اللطيف شرارة

عندما تحدثت في كتابي « روح العروبة » الذي صدر عام ١٩٤٧ عن « وسائل البعث العربي » وردت في آخر هذا الفصل الفقرة الآتية « .. إلا أن المهم في الموقف الراهن هو تحقيق هذه الشؤون (الوعي من فكرة الأمة ، تقوية سلطان اللغة العربية على نفوس الناطقين بها ، تعريب المدنية الحديثة ، ثورة العربي على النزعة الفردية ، نقل المؤسسات العامة والمشروعات الاجتماعية إلى أيدي الشعوب ، الانصراف إلى الإنتاج في شتى الحقول والميادين ، الخ ..) لتنبعث الروح العربية من جديد ، ومتى انبعثت هذه الروح في جميع الأقطار والبلدان — أو في القسم الأكبر منها — وتركزت في الأفئدة والعقول تركزاً عصرياً ، أي بعيداً عن العصبية الدينية والأثرة الإقليمية ، تهتدي من تلقاء ذاتها إلى أشكال في الحكم ، وطرائق في العمل لا نستطيع أن نرسم لها الآن حداً ولا شكلا معيناً ... »

هذا ما كتبته منذ عشر سنوات .

* * *

وفي عام ١٩٥٥ كتب الأستاذ عبد الله عبد الدائم في هذه المجلة يقول : « على القومية العربية أن تحدد خطوطها ، وترسم معالمها رسماً واضحاً ، فقد أصبحت مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر ، يقابل المذاهب الأخرى السائدة في العصر الحديث »

وكان أن أعترضت على هذا الرأي يومذاك بقولي : « .. والمذاهب الفكرية التي تنشأ في بعض فترات التاريخ إنما تنشأ في أمة متكونة ، حرة ، موحدة ، ولا يمكن أن تنشأ الفلسفات إلا تعبيراً عن أمة معينة ، في عصر معين ، نحو حالة من الوجود جديدة. فليس من المنطق في شيء أن نطالب الأمة العربية اليوم بمذهب يقابل الشيوعية مثلا ، أو يقابل الوجودية ، فالأمر ، أمر المذاهب الفكرية متروك بطبيعته ، وبالضرورة للأمة الحرة الموحدة ، ولظروفها ، ولعبقريتها الخاصة ، ولا يجوز بمعنى من المعاني ، ولا بشكل من الأشكال أن تطلب إلى أحد ما ليس عنده ، أو مالا يمكن أن يعطيه في ظرف من الظروف »

هذا ما كان بيني وبين الأستاذ عبد الدائم منذ عامين ، على وجه التقريب .

* * *

وجاء العدد الماضي من «الآداب» يحمل بحثاً مستفيضاً ، مسهباً للأستاذ سعدون حمادي عنوانه « الواقعية والفكر العربي المعاصر » ينقلنا به من موضوع « إنشاء مذهب فكري » إلى موضوع آخر هو « مهمة الفكر العربي المعاصر » ، يجنح فيه إلى تأييد الأستاذ عبد الدائم ، ويحاول أن يبرهن أنّ ما كنت تقدمت به من اعتراض يدخل فيما يسميه « لا واقعية » فيقرر بعد مقدمة طويلة أن « القومية العربية كحركة تاريخية قد اجتازت مرحلة المعرفة عن طريق الإحساس ، أي مرحلة تفتح الوعي ويقظة الروح ، وأنها اليوم بحاجة إلى دخول مرحلة العقل لتكوين نظرية تفصح عن الروح ، بتحلل الواقع العربي ، وتوضيح تفاصيل المجتمع الجديد ووسائل تحقيقه أي أن تكون للقومية العربية نظرية . »

ويقول في مقام آخر : « اللاواقعية في رأي الأستاذ شراره ، تتمثل في تبسيط قضية النهضة لحد يقصر عن إبراز عناصرها الأساسية . »

ثم يلاحظ الأستاذ سعدون حمادي أن هذا النوع من « التبسيط » لقضية القومية العربية « يتجاهل تركيب الواقع الاجتماعي تماماً ، ويسقط مفعول القوى الايجابية المعرقلة للنهضة من الحساب » ويضرب على ذلك أمثلة في بيان وجّهه رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي يدعو فيه الأحزاب السورية إلى الوقوف جبهة مرصوصة أمام المطامع الاستعمارية والصهيونية العالمية ، وفي افتتاحية للأستاذ محيي الدين النصولي نشرها بتاريخ ٦ أيار ١٩٥٦ يرغب فيها الى

المسؤولين العرب « أن ينبذوا خلافاتهم .. »

* * *

علينا أن نتفاهم حول ثلاثة أمور : ١) ما هو موضوع الخلاف ؟ ٢) ما هي النظرية المطلوبة للقومية العربية ؟ ٣) ما هو التبسيط ؟ ولم التعقيد ؟

أما موضوع الخلاف بيني وبين الاستاذ عبد الدائم ، فهو بالضبط أنه يريد من العرب « إنشاء » مذهب سياسي ، يرتكز إلى فلسفة عربية قومية ، وأنا أرى أنه لا يجوز ولا يمكن التحدث عن إنشاء مذهب ، وإنما هناك عوامل تحتم نشوء مذهب؛ وحيث أن هذه العوامل لم تتكامل بعد، فلا يصح قهر الطبيعة، وإرغامها على إعطاء مالا يمكنها أن تعطيه . وإذا حدث شيء من ذلك ، كانت النتائج مصطنعة ، زائفة ، كما هو الشأن في كل عمل يصدر عن تكلف . فالأمية في البلاد العربية لا تزال طاغية ، والاقطاعية لا تزال هي النظام السائد في كثير من المناطق ، والاقليمية والطائفية والحزبية العمياء الشخصية ، وما تجرّ هذه الآفات وراءها من بلبلة واضطراب وضعف — كل ذلك لا يسمح بنشوء فلسفة . المهم إذن أن نقاوم هذه الآفات في أول منزلة ، شأننا بذلك شأن من يريد أن يعلم تلامذته قواعد الجبر ، فلا بد له أن يعلّمهم قبل درس الجبر ، أصول الجمع والطرح والضرب والقسمة ، على أقل تقدير ! وإذا ركب المعلم رأسه ، وأصرّ على تعليم تلامذته الجبر ، وهم لا يعرفون الحساب ، كان في حاجة إلى من يعلمه ، بل كان أجهل من تلامذته ! ولا يقدح في هذا المثل أنه بسيط ، وأنه واضح ، فقوته — كما أراها — في بساطته ووضوحه .

نعم ! لابد من أن تنشأ لدى الأمة العربية « فلسفات » وفنون ، ولا بد أن يخلقوا ، وفي مختلف ميادين الإنتاج الفكري ، لكن .. بعد أن يخلصوا من الأمية على الأقل ! ونحن لا نستطيع الآن أن نرسم لهذه العبقريات العربية المقبلة « حداً ولا شكلاً معيناً » تماماً كما ذكرت قبل عشر سنوات ، خلال بحثي عن وسائل البعث العربي .

* * *

أما النظرية المطلوبة للقومية العربية ، فأحسب أن الأستاذين عبد الدائم وحمّادي ، مأخوذان بما يعقدان من مقارنة بين الأمة العربية ، وغيرها من الأمم الحديثة كأمريكا وروسيا ، فهما يجدان أن لأمريكا نظرية هي « البراغماتية » وأن لروسيا نظرية « هي الماركسية » ويتساءلان في سرهما : « لم لا يكون للعرب فلسفة ؟ » وهذا التفكير بالمقارنة خاطئ من أساسه ، لأن الفلسفة في أمة كالشعر ، كالبيان الفني ، كالغناء الشعبي ، تنطلق من أعماقها وتاريخها وتجاربها وأجوائها، ولا يعقل أن تحدث بمجرد الرغبة في إحداثها . فهي إما أن تكون ، وإما أن لا تكون ، ولا ثالث لهذين ! ثم إن كينونتها نتيجة « محتمات » لا نتيجة رغبات أو إرادات .

ولي في هذا الأمر فكرة اهتديت إليها على أثر محادثات قمت بها مع أكثر من أستاذ أوروبي وأمريكي :

يعتقد الأوروبيون والأمريكيون أن البلاد العربية والإسلامية ذات تراث فكري خاص ، فاذا نشأت لدى أبنائها المحدثين أفكار جديدة ، تصطبغ بصبغة العصر ، وتساير ركب المدنية الحديثة ، كانت بلا ريب مغايرة للأفكار الروسية ، وللنظريات السوفياتية ، وللفلسفة الماركسية ، وبذلك يحسبون أن العرب سيلتقون مع الغربيين آخر الأمر ، رغم ما يفصلهم عنهم اليوم من فواصل سياسية وثقافية . لذلك ، تراهم يستعجلون العرب في وضع نظرياتهم الفلسفية ليفيدوا منها في تحقيق ما يريدون تحقيقه ، والاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من امتيازات في هذه البلاد ، وقد وفقوا إلى شيء من ذلك في بعض الأقطار الشرقية ، وبعض البلدان العربية .

والحقيقة هي أن الفكر لا يبدع في عالم الفلسفة إلا في وسط حر من التدخل الأجنبي ، والسيطرة الثقافية .

يجب أن تزول جميع معالم النفوذ الأجنبي عن البلاد العربية ، ثم أن تنتشر الثقافة على مدى واسع في جميع البيئات العربية ، ليتسنى للناس في بلادنا أن يفكروا بحرية ، ويلاقوا الصدى الذي يثيرهم لدى جمهرة الشعب العربي .

ليس هناك إذن من نظرية للقومية العربية « تُطلب » : وإنما هناك عوامل تحُدُّ من انطلاق الفكر العربي يجب أن تزول ، وزوالها هو « المحتّم » لنهضة الفكر .

* * *

أعود أخيراً لقضية « التبسيط » فأسأل الأستاذ حمادي :

« هل يريد التعقيد ؟ أم يريد تحليل ما هو مركب ؟ »

إذا كان يريد التعقيد — وهذا مالا أحب أن اعتقده — فليس أسهل من إزجاء الألفاظ الفلسفية ، وتحريك القواميس

اللغوية ، وتشبيك مفهوم بمفهوم ، وفكرة بفكرة ، والخلط بين معنى ومعنى .

وإذا كان يريد «التحليل» بحيث إذا قال واحدنا «السياسة القومية » مثلا ، وجب عليه أن يبحث في كلمة سياسة ، وكلمة قومية ، والعلاقة بين السياسات والقوميات ، وتاريخ المفهوم لكل من هاتين الكلمتين ، ومتى يكون النعت مطابقاً في المناهج السياسية للمنعوت ، وفي أي مدى تتحقق أغراض الباحث أو العالم أو الفنان أو الأديب من استعمال هاتين الكلمتين ، وبحيث يعني الخطيب في خطابه ، منهما أقصى ما تقتضيه المعارك الانتخابية والسياسية والحزبية والدولية من جهود ونفقات ومصاعب – اذا كان يريد ذلك ، فهذا مالا يتحقق لأحد ، ولا يطلبه أحد ، ولا هو في متناول أحد !

كل ما يمكن عمله في هذا الميدان أن ينشأ الطالب والمتعلم على « روح النقد » وتمييز الزائف من الصحيح ، والسليم من المعتل ، والباطن من الظاهر ، في كل ما يسمع ويشهد .

هذا في جانب . وللقضية جانب آخر ، هو أن « النتيجة الواضحة » أي المقبولة ، التي لا يعترض عليها أحد ، كثيراً ما تكون وسيلة الى بيان ما يعترضها من مقدمات ، أو ما يسبقها من عراقيل وصعوبات :

عندما يدعو الرئيس القوتلي الأحزاب السورية إلى « الوقوف جبهة مرصوصة أمام المطامع الاستعمارية والصهيونية» لا يكون قد أسقط من حسابه مفعول القوى المعرقلة ، ولا يحذف من إدراكه الأسباب والعوامل التي تحتم نشوء هذا الحزب أو ذاك ، أو توجه هذا الشخص أو ذاك ، وإنما هو يضع أمام الأحزاب والشخصيات ما عليها من تبعات وطنية في موقف معين ، وما يقتضيه هذا الموقف من تضحيات ؛ وإن مجرد توجيه مثل هذا النداء ، دليل على شعور موجِّهه بأن ثمة من يريدون تفرقة الصفوف ، وتمزيق الشعب ، وإحداث ثغرات في بنائه ينفذون منها إلى مآربهم وأغراضهم..

ثم إن رئيس الدولة ، في أي دولة – لا في سوريا وحدها – إنما يخاطب ، حين يخطب ، أو يبلغ ، عقول المفكرين ، بنسبة ما يخاطب أفئدة المواطنين ، ولا يطلب إليه أن يضع بحثاً فلسفياً ، أو دراسة أجتماعية ، ثم يفرض فيه أن يكون دائماً فوق الأحزاب ، وفوق المناقشات والمنازعات ، فهل يريد منه الأستاذ حمادي أن يدعو إلى « التفرقة بين حزب وحزب » ، وأن « ينحاز إلى فريق من المواطنين دون فريق» فيما يوجهه من نداءات أو يصدر من بيانات أو يلقي من خطابات ؟!

– هناك قواعد عامة لابد من اتباعها في كل موقف ، وكل ظرف ، وكل حالة ، ولا يجوز تخطيها أية كانت فلسفة الفرد أو عاطفة الجماعة ، وهذه القواعد بسيطة ولا يصح أن تكون مركبة أو معقدة وبساطتها هي التي تعطيها صفة القبول والشمول .

* * *

نعم ! القومية العربية تواجه الآن تحدياً سياسياً لا فلسفياً ، من قبل بعض العناصر الشعوبية في الشرق والغرب . وهذه العناصر هي التي تلح على رجال السياسة العربية باتخاذ موقف حيال الصراع العالمي القائم بين الدول الشيوعية والدول الأوروبية – الأمريكية . وهي التي ترمي العرب والعروبة أو « العربان » – على حد تعبيرها – بقوارع التهم ، وتأمل أن تنفيهم من الدنيا ، وأن تصورهم بأبشع ما يروق لها من تصاوير ، وهي التي تسأل دوماً : « أين فلسفة العرب ؟ وأين مذهب العرب ؟ »

وقد سبق لي أن درست هذه القضية في بحث نشرته مجلة « الكتاب » المصرية الصادرة بتاريخ ديسمبر ١٩٥٢ (ربيع الأول ١٣٧٢) ، أنقل منه للقارئ الفقرات التالية :

«كيف يكون الحياد والوسط بين المعسكرين ؟

« إن طبيعة الكرة الأرضية تشير بوضوح ، كطبائع الأمم « وثقافاتها ، إلى أن الشعوب التي يمكنها أن تكون محايدة هي « الدول السكندينافية مثلا أو اوستراليا أو جنوب أفريقيا أو « أمبركا الوسطى والجنوبية . أقول « يمكنها » ولا أعني انها « تقف حتماً محايدة ، لأن الحياد – كما قررت آنفاً – موقف « أخلاقي. فهذه الأمم يتهيأ لها من جغرافيتها وحياتها الراهنة « أن تحيد عن النزاع ، ولا يمنعها من الحياد إلا أن يُعتدي « عليها ، أو أن تحمل حملا على الانحياز ، أو ترغب هي من « تلقاء ذاتها لعلة ما ، في خوض المعركة ، إلى جانب أحد « المعسكرين .

« أما البلاد العربية ، والشعوب الإسلامية ، فان موقفها « التاريخي لا يسمح لها بالحياد السلبي . فهي تريد أن تخلص « من الاستعمار والاستثمار والاحتكار بنسبة ما تريد الحرية « والديمقراطية والسلام ، وهي متفقة مع المعسكرين في

« أفضل ما عندها ، ومختلفة معها حول أبشع ما لديهما . »

وكانت نهاية هذا البحث : « .. ولكن لمصر .. نعم لمصر أن تتأمل في ذلك كله ، وأن تستخلص منه طريقة السير ووجهة العمل ، ثم توجه العرب والمسلمين ! »

هذا ما كتبته في آخر عام ١٩٥٢ (١) . ومنه يتضح أن « النظرية » التي يريدها بعض المفكرين للقومية العربية ، لايمكن أن تكون من وجهة سياسية معادية للشيوعية ، ولا معادية في الوقت ذاته للديمقراطية الغربية .

بيد أن هذا الجانب السياسي الذي تفرضه على الفكر العربي حالات سياسية دولية ، قائمة في عالم اليوم ، لا يعطي الصورة الحقيقية لما يمكن أن ينشأ من « فلسفة » في صميم القومية العربية ، بعد تكاملها الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي .

الفكر العربي مضطر ، إزاء الواقع السياسي الدولي الراهن ، إلى الاهتمام الأعظم بتحقيق الاستقلال السياسي ، وإن كان متخلفاً من سائر الوجهات أو جوانب الحياة الباقية ، نتيجة الضغط الذي مارسه الغربيون ولا يزالون يمارسونه عليه.

* * *

وأعود أخيراً إلى موضوع « النهضة العربية » الأخيرة التي كانت محورما قدّم الأستاذ حمادي من أدلة وشواهد على أن القومية العربية كحركة تاريخية قد اجتازت مرحلة المعرفة عن طريق الإحساس . فأول ما ألاحظ أن نهضة العرب لم تأخذ بعد صفة « الشمول » أي أنها ليست واحدة في جميع الأقطار العربية ، ولا هي تنتظم السواد الأعظم من ابناء العربية. فاليمن لا تزال بدائية المسلك في جميع مناحي الحياة ، وكذلك هو الأمر في ليبيا والعراق ومراكش .. والبلدان العربية المتطورة كلبنان وسوريا لا تزال ترزح تحت أثقال الماضي ، ولا تزال العقلية الشعوبية تجد فيها أرضاً خصبة ، والمذاهب والنزعات المفسدة لا تزال تميل بها نحو ثقافة غير عربية ، وغير وطنية .. فالتحسس بالعرب كأمة لا يزال ضعيفاً ، وهذا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل .

ذلك يعني أنني لا أوافق الاستاذ حمادي على اعتباره واقع القومية العربية في نهضة ، فضلا عن أن أوافقه على أن هذه النهضة اجتازت مرحلة الاحساس لتنتقل إلى العقل !

كل ما في الأمر أن الوجود العربي تعرض في عهد الأتراك لما يشبه « المحو » فثارت اليمن ، وتبعتها ثورة الحجاز ، وتبلورت بعد الحرب الكبرى حركات التحرر العربي في سلسلة انتفاضات وثورات .

ثم تعرض هذا الوجود نفسه للزوال مرة أخرى على أيدي الغربيين ، وبدأت عملية الإبادة للعرب في فلسطين والجزائر ، فأحس العرب أن القضية خطيرة ، ولم يعوا بعد من حقيقة الموقف ، ولو كانت نهضتهم حقيقية ، لما كانت أوضاعهم الاجتماعية والسياسية والثقافية على ما هي عليه الآن من تبلبل وتفكك واضطراب .

على هذه النهضة أن تثبت وجودها بالشمول أولا ، ليمكن مطالبتها بعد ذلك ، بالعمق ، أي بتكوين نظرية خاصة.

* * *

أما الواقعية التي يحاول الأستاذ حمادي أن يقنعنا بأنها هي « النظرية » المرتقبة للقومية العربية ، فلا أستطيع أن أجد فيها سوى رغبة من واضعها في تفسير بعض الظواهر . وهذا التفسير يرتكز ، في التحليل الأخير ، على الفلسفة الأميركية البراغماتية ، لا أقل ولا أكثر .

وبيان ذلك أن هذه النظرية « الحمادية » تعرّف الفكر بأنه « وسيلة لاكتساب المعرفة » . والبراغماتيون يحسبون الفكر ، كالحواس ، ذريعة إلى المعرفة ، والمعرفة ذريعة إلى القوة أو الفائدة المادية ، والفائدة المادية ذريعة الى العيش . ولهذا ترجم بعض الأساتذة العرب كلمة « البراغماتزم » بفلسفة الذرائع .

هذا التعريف البراغماتي للفكر ينفي « القيم » ، لأنه يتعارض آخر الأمر مع القول بوجود « الحق المطلق » الذي يؤمن به الأستاذ سعدون ، ولأن هذا الحق غاية ، وهو في الوقت نفسه فكرة ، تنتهي عندها الأفكار . فاذا اعتبرنا الحق المطلق وسيلة باعتباره فكرة ، كنا نردد شيئاً واحداً دون أن نتقدم أدنى خطوة في طريق المعرفة .

ثم إن المعرفة أنواع : منها ما هو ذاتي ، ومنها ما هو موضوعي ، والعلم يدخل في النوع الثاني ، وسائر الفكرات التي ترد على أذهان الفلاسفة والفنانين والمتصوفين تدخل في النوع الأول ، وهي نتيجة تجارب حية من جهة ، وأمزجة خاصة من جهة ثانية ، أي أن هناك « محتمات » للفكر يمكن أحياناً التقاطها ، وتهرب أمام إدراكنا أحياناً ، فلا يمكن

---
(١) مجلة « الكتاب » ديسمبر ١٩٥٢ ص ١٩٠

التأكد من قيمة المعرفة التي ينتهي إليها الفكر ، في بعض الأحوال ، كأن يكون المفكر محموماً مثلا ، أو مأخوذاً برغبة خاصة ، أو مستغرقاً في عاطفة ، فهل نعتبر « أفكاره » وسيلة إلى المعرفة ؟؟ وما صحة هذه المعرفة التي تقود إليها مثل هذه الأفكار ؟ وما هو معيار الصحة الفكرية ، اذا كان الفكر وسيلة للمعرفة ؟ ثم ما هو القول في شأن بعض «المعارف» ذات الصبغة الرياضية والهندسية العالية التي تظهر عند بعض أنواع الحيوان كالنمل والنحل والطيور المهاجرة ؟ أكانت هذه المعارف غايات توسلت تلك الحيوانات الى تحقيقها بالفكر ؟ إلخ ...

إن هذا التعريف للفكر – وهو تعريف براغماتي أميركاني – لايحل مشكلة، ولا يؤدي إلى بناء حضارة ، بل ينزل بالانسان إلى مستوى البهائم والحشرات ، ويضعه أمام سلسلة لا نهاية لها من المشكلات ، كسلسلة الوسائل والغايات .

ولا أحسب أن العقلية العربية تأخذ أو ترضى أن تأخذ بمثل هذه الفلسفة الأمريكية لأن الانسان يحتل المقام الأرفع لدينا في سلم الكائنات الأرضية ، وقيمة الانسان في إطار الحضارة العربية لا تتركز حول ما لديه من « وسائل » ، وما يملك من « ذرائع » تتحول آخر الأمر ، إلى أشياء مادية ، خالصة في ماديتها .

. قيمة الانسان – عربياً – فيما يعمل من خير ، ويبذل من نفسه في سبيل الحق ، ويتوق إليه من جمال ، ويحقق من بطولات في الدفاع عن الأهداف الانسانية العليا .

ومذ كانت هذه المعاني : القيم ، الحق ، الخير ، الجمال ، البطولة ، غامضة لا يلتقطها إلا العقل الذي يتمرس بها فكرياً وعملياً ، ويعانيها حياتياً ، جاءت تقديرات الحضارة العربية مضطربة ، ضعيفة لدى كثير من الباحثين والمفكرين الغربيين .

وقد يكون اشبنغلر أفضل من فهم الحضارة العربية وقدرها حق قدرها ، لأنه لمس جانب « الغموض » في بناء الكيان الحضاري للروح العربية ، وأعطاها وصف « السحرية » وكان مثالها المعماري –في نظره– هو « الكهف » . وغموضها ناتج عن تعلقها بما لا تقع عليه الحواس من جهة ، وارتكازها على قاعدة من الحس الواقعي العلمي العملي ، في الجهة المقابلة .

هذا يعني ، في آخر المطاف ، أن الروح العربية لا تفرق بين الفكر والعاطفة في تعقبها الحار لما هو نبيل ، وسام ، وشريف ، وجميل ، وخير ، وحق ، ومفرح ، من أوضاع الحياة ، وحالات الوجود ، وإنما هي تنطلق بهما، كما ينطلق الطائر بجناحيه في أجواز الفضاء صعداً ، نحو ما تتوق إليه وما تنشده .

وهو يعني ، أيضاً وأيضاً ، أن القومية العربية لا تمر كغيرها من القوميات بمرحلة عاطفة طوراً ، ومرحلة فكر طوراً آخر ، وإنما هي ترتقي بفكرها كلما ارتقت بعاطفتها .

وإذا كانت الحضارة العربية لم تستنفد كل ما في روحها بعد، على نحو ما استنفدت روحها حضارة اليونان والرومان، فلأن العاطفة البناءة ، الشريفة ، لا تتحجر ، ولا يمكن أن تتحجر ، وإنما تحيا مطلقة .. مع الإنسانية إطلاقاً .

عبد اللطيف شراره

اغنية الوحدة

مع الصمت ، في غرفة بارده
اعيش وعيناك عبر الظلال
وملء الخيال ..
تضيئان ، والاوجه الخامده
تمر على بابيَ المعتمِ
وتجمد كالموت في السلّمِ
ولي نخلة الدار والبلبلُ ...
عليها يبشرني بالصباحْ
لي السعفات التي تعولْ
اذا ناوحتها الرياح
ولي نزهة غاليه
مع الفأر والانجمِ . !

* * *

تغنيتُ بالامس من غير قوتْ
اغاني الهوى الباليه .
وهأنذا في انطباق الظلام
اغنّيك اشواقيه
وعينيكِ والخبز ..
والعنكبوتْ ..
من البرد في عتمة الزاويه
تلملم ارجلها وتموت
كأغنّية باكيه ....

* * *

مع الصمت والظلمة البارده
وعيناك ، والهرة الهامده
وافراخها السود .
والذكرياتْ ..
تجنّح بي فوق ، فوق الجدار
الى حيث يبسم وجه النهار
فتيّاً كوجهك حيث الصغار
يهيمون عبر القفار
مغنين جوع السنين
وانتِ بلا غمضة تحلمين
بلا اغنيات
تموج بها روحكِ الحاقده
بلا ذكريات

* * *

هناك ببيتٍ صغير مضاءْ
يشعّ وراءً المدينه
بحشد من الاصدقاء
وحيث ليالي الشتاء الحزينه
تلم الأحاديث والسامرين
على موقد الشاي ، حيث السمرْ
يلذ ويضفي الحنين
الى مهرجان الغد المنتظر
وإذاك يا وردتي تذكرين
صديقاً حزين
ولكنه غائبُ ...
عن الحشد ، في غرفة بارده
يعانقه القمّل الدائب
وتؤنسه الفأرة الشارده

* * *

وهأنا في غرفتي الخاويه
وعيناك تستطلعان
من الغيب ايامَي الزاهيه .!
اجل زاهيه ...
هنا الماء كالطين في الآنيه
ولي ساعدان
يزيلان اوساخه الناميه
وأرضي ملطخة بالدهان
تمط اللزوجة حول المكان
ولي كل مانقش العابرون
على بابيَ الموصدِ
وما ينقش الآخرون
على الحائط الرطب الأسود
ولي ساعة المعبد
ودقاتها كل صبح جديد
وعبء الحديد
ينوء به المعصمان ...
ليَ الليل ملء المكان
وانشودة الشمس عبر الزمان

* * *

وسيجارتي والدخان
وعيناكِ ...
يمضي الزمان
وتبقى موشوشة ، راويه
حكايا عن الانجم الساريه
فأضحك حتى كأن العفونه
شذا منك يغمر روحي الحزينه
حياة وحباً لتلك الحياه
فأهتف :
يا فرحتي الآتيه
اذا موّجت أرضنا الاغنيات
واضحك حتى كأن المدينه
تصفق ابوابها الداميه
لأحلى ربيع
كأغنية غمست بالدمِ
تشيعْ ...
حكايا عن الانجمِ
وانت هنالك مثلي سجينه
ببيت صغير وراء المدينه

* * *

وسيجارتي والظلالْ
وعيناك عبر الخيال
رؤى عالم ابدي مهيبْ رؤى كالغد
تدغدغ حلماً بلون الضياءْ
وتمحو خطوط الشتاء
اذا خطها اصبع من لهيب
على وجه عالمنا المجهدِ ...

بغداد **موسى النقدي**

شخصية الكلمة..

بقلم محمد عبد الحليم عبد الله

« أنا شخصياً أحس أن الكلمات المفردة لها ملامح »
«وألوان وطول وعرض ، وظل مثل ظل الروح على وجه »
«الانسان . واخال كل أديب يحس نفس الاحساس »

يقوم مقالي هذا على اسئلة تبدو الاجابة عنها للوهلة الأولى سهلة يسيرة. لكن (الاجابة) في محيط العلم والفن تتغير من جيل الى جيل وان ظلت صورة (السؤال) باقية لا تتغير.

اما الأسئلة التي اريد ان أجيب عنها فتتلخص فيما يلي :

(١) هل يكفي أن يعرف الأديب معنى (الكلمة) حتى يوفق في استعمالها كجزء من الجملة ؟ وهل يتفق أديبان تمام الاتفاق في هذه العملية ؟

(٢) هل هناك علاقة شخصية — تحس ولا توصف — قائمة بين الأديب و (الكلمة) ؟

(٣) ما قيمة هذه العلاقة في استعمال (الكلمة) عند الكاتب . والكاتب المترجم ؟ (حرصت تمام الحرص على أن أصف المترجم بأنه كاتب والا فلا أعتبره مترجماً) .

* * *

عن السؤال الأول :

منذ عشرين سنة وأنا أعيش — بحكم وظيفتي في المجمع اللغوي — بين الكلمات العربية كمفردات . ومنذ عرفت قراءة الأدب وأنا أعيش بين الكلمات العربية كجمل أو أساليب أو مجاميع .

وكنت قبل عشرين سنة أعتقد أن الكاتب يستطيع أن يختار بين المترادفات فيضع كلمة مكان كلمة لأنه يغلب أن تكون الكلمات متشابهة كما تتشابه الأشياء المصبوبة في قالب واحد .

لكنني أدركت بعد ذلك أن في (الكلمة) سراً ولها خاصة ووظيفة . وفيها شحنة من الذكريات ليس في مقدور كل كاتب أن يطلقها — بالاستعمال — من كيان الكلمة . وهناك كلمات عاشت في لغتنا أكثر من أربعة عشر قرناً مثلا استعملتها ملايين الألسنة وملايين الأقلام ملايين المرات وفجرت باستعمالها هذا طاقة الدلالة الكامنة في كيانها. وبقيت دلالتها ثابتة أو تغيرت على حسب الظروف فكونت الكلمة لنفسها (شخصية) تختلف قوة وضعفا وتوسطاً بين الاثنين ، كشخصية الانسان سواء بسواء .

وليس كل الناس يستطيعون ان يفهموا شخصية غيرهم . وليس كل كاتب يستطيع ان يفهم شخصية الكلمة . والذي ينجح في فهم شخصية الناس ينجح في معاملتهم . والذي ينجح في فهم شخصية الكلمة (يعني طاقتها ومدلولها وذكرياتها) ينجح في استعمالها أيضاً .

لهذا فان هناك كلمات لها مجد وعراقة وأقدمية كسبتها بقدرتها على اجتياز القرون ووصولها الينا واحتفاظها برونقها وجمالها الأول فضلا عما كسبته في رحلتها الطويلة من مميزات ينتفع بها القادرون على اشاعة (هذه الطاقة) في جو أسلوبهم .

ولهذا أراني أنظر بقلق واشفاق الى الذين يظنون أن المترادفات تطويل لا لزوم له . والى الذين يعتقدون ان الكلمة العامية التي تشبه (السَّقْط) أقدر على وصف المشاعر من الكلمة الفصحى لأنها هي اللغة التي يتكلمها الناس . واذا كانت الكلمة تكتسب شخصيتها بطول العمر وكثرة الاستعمال فانه من المحال أن تكون العامية ذات كلمات لها (شخصية) لأن الكلمات في اللغة العامية فقاقيع سريعة الظهور، سريعة الاختفاء . الا اذا كان هناك (عامية رفيعة) يقدر على الكتابة بها قليل من الناس، وذلك موضوع آخر يحتاج الى نقاش .

واذا سلمنا بأن لكل كلمة (شخصية) فلا مفر لنا أن نسلم بأنه من غير الممكن أن يتفق كاتب وآخر في استعمال الكلمة لأن كلا من الكاتبين يدرك شخصية الكلمة بحسه الذاتي ويفجر طاقتها في الأسلوب بطريقته الشخصية، فلا مفر اذن من الاختلاف .

وعن السؤال الثاني :

أقول : ان هناك علاقة — تحس ولا توصف — تقوم بين الأديب والكلمة .

فالكلمة نبرة موسيقية ذات دلالة متفق عليها . وهكذا تجمع الكلمة بين مزية النغمة ومزية تحديد المعنى . فأنا مثلا حين أسمع كلمة : (خلود) تكون موسيقى نطقها بمثابة باب ينفتح فيدخل منه خيالي الى عالم أستطيع أن أصف منه شيئاً . ولم يتكون هذا العالم عندي في دقيقة واحدة ، لكنه مكوّن جاهز من ذكريات هذه الكلمة (خلود) التي تتمثل في عدد المرات والعبارات التي قرأتها فيها او كتبتها فيها أو سمعتها فيها . وهذا العالم يتحكم فيّ انا حين اريد استعمال هذه الكلمة . أو بعبارة أوضح : أنا لا أستطيع التخلص من شخصية هذه الكلمة حين أستعملها وأكون خاضعاً لتاريخها في نفسي .

أما عالم هذه الكلمة في خيالي فهو على هذه الصورة :

« فنان في حجرة منزوية على سطح في حي راق . شاب يؤمن بنفسه ولا يؤمن به الناس ؛ يفطر خبزاً ويتغدى كداً ويتعشى بالأمل ويحلم بالحب . ضعيف منهوك توصد في وجهه الأبواب . يضيء عالمه نور خافت وتهز الريح باب حجرته في الظلام ...

ثم تتبدل الدنيا فتنفتح له الأبواب الموصدة ويعم النور والدفء والرضا والحب . ويقولون له : انت خالد . ويحاول أخيراً أن يتذوق طعم هذه الكلمة فلا يجد لها طعماً ... لقد كان يحسها من قبل.. اننا لا نحس الا بما هو بعيد عنا ! ! »

اما غيري فقد يكون عالم الخلود عنده « تمثالا لسياسي » أو « قصراً لغني » أو أي شيء آخر . وهذه العوالم تتحكم في أقلامنا دون أن نشعر كما يتحكم في تصرفاتنا عقلنا الباطن .

لهذا ، فانه لا ينفع الكاتب أن يتعلم (الكلمة) في المدرسة ثم يعاشرها على صفحات الجرائد ، ثم يسمعها من أفواه الناس ، ثم يكتبها في خطاب . فالمعرفة الحقيقية للكلمة بالنسبة للكاتب — المعرفة النافعة في الاستعمال — هي التي يستقيها الكاتب من أكبر عدد ممكن من الأساليب على مختلف العصور حتى يلم بذكرياتها — دون أن يشعر — ويتعمق شخصيتها و يجيد استعمالها كأديب

وعن السؤال الثالث :

أما قيمة العلاقة بين الكاتب والكلمة بالنسبة لمن يكتب بلغته فاظن أن فيما قدمته ما يكفي . اذ تبين أن ذكريات الكلمة وطاقتها تتزايد كلما زاد عدد الاستعمالات التي تعرف الكلمات من خلالها بتنوع العصور وتعدد الأقلام .

وأما قيمة هذه العلاقة بالنسبة للمترجم فهي أضخم منها بالنسبة للكاتب غير المترجم . فاذا كان الكاتب بلغته يغترف من نفسه بآلة ذات دلو واحد ، فان المترجم يغترف من نفسه بآلة ذات دلوين . والكاتب بلغته مسئول عن خلجات نفسه هو ، والمترجم عن لغة أجنبية مسئول عن خلجات نفس الغير . انه (المرصد الأدبي) الذي يسجل لنا اهتزازات النفس البشرية ويحلل ظواهرها في الأدب الاجنبي ؛ فانظر أي مسئولية يتحمل .

لهذا فانه يجب أن يكون أديباً وأن تكون ذكرياته عن الكلمة العربية ضخمة ، وذكرياته عن الكلمة الأجنبية قوية حتى يحس (شخصية) كل من الكلمتين .

وعشرة الأديب المترجم عنه — في آثاره وكتبه — مدة طويلة ، تتيح للمترجم بلاشك فرصة اكبر للتعبير عن خلجات نفس هذا الكاتب . فاذا قرأ شخص ما (تولستوى) أو (هاردي) أو (جوركي) في كل آثاره ثم بدأ يترجم كان توفيقه أعظم مما لو ترجم كتاباً لتولستوي ، وثانياً لهاردي وثالثاً لجوركي على الترتيب .

والعبرة فيما قلت راجع الى ان المترجم يكون أكثر تمكناً من (شخصية الكلمة) في الحالة الاولى واقل تمكناً في الحالة الثانية .

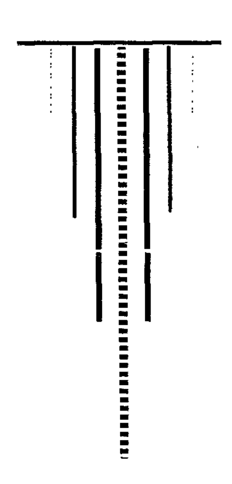
أنا شخصياً أحس أن الكلمات المفردة لها ملامح وألوان وطول وعرض وظل مثل ظل الروح على وجه الانسان . واخال كل أديب يحس نفس الاحساس .

أيها الناس : اعرفوا تراثكم العربي لتستطيعوا أن تعرفوا شخصية كل كلمة فيه .

القاهرة

محمد عبد الحليم عبد الله





يا حائطاً أحجاره عظامْ
دماؤنا عليه لا تزال
طريّة . . نديّه
توّهجت ضرام
بأحرف قدسيه
يخطّ : يا حريّه
من أجلك الفداء
فيرُجع الفضاء
من أجلك الفداء يا حريّه
من أجلك الفداء
فلترتعي بأرضنا الخصيبه
أيتها الحبيبه
وباركي الجنى
من قمحنا . . من قطننا
من خبزنا الممزوج بالإباء
وردّدي الغناء
ليضحك الموّال في مواسم الحصاد
وترقص الجياد
يثيرها المزمار
ودقة الطبول
وصفقة تخضّبت حنّاء
تذيعها الصبايا
يصدحن في انتشاء
كأنما البرايا
تعانقوا في فرحة الغناء
فتهتف السماء :
من أجلك الغناء
من أجلك الغناء يا حريه

القاهرة **كمال نشأت**

وَضع الإنسان الحَديث

بقلم أريك فروم

حوالي نهاية القرون الوسطى ، كان يبدو أن إنسان العالم الغربي يتجه نحو الإنجاز النهائي لأعمق رؤاه وأحلامه . فهو يتحرر من سلطة كنيسة طاغية ، ومن عبء الروح التقليدية ، ومن التحديدات الجغرافية لكوكبنا الذي كان نصفه قد اكتُشف . وقد مارس علماً جديداً أطلق ، فيما بعد ، قوى انتاجية كانت مجهولة حتى ذلك الحين ، وأفضى الى تغيير العالم المادي تغييراً كاملا ؛ وقد خلق انظمة سياسية كان يبدو انها تضمن تفتح الفرد تفتحاً حراً ومثمراً ؛ وضغط وقت العمل ضغطاً أتاح للانسان ان ينعم بفترات فراغ ما كان أجداده يجرؤون على التفكير بها .

ومع ذلك ، فأين نحن الآن من هذا كله ؟

إن خطر حرب إبادة يتهدد البشرية . ولو فرضنا ان ممثلي البشر السياسيين يحافظون على مقدار من التعقل يجنّب البشرية حرباً جديدة ، فان الوضع البشري ابعد من ان يحقق آمال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر .

لقد تطابقت شخصية الانسان على متطلبات العالم الذي خلقه بيديه . وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، اتجهت شخصية الانسان في اتجاه الاستغلال وتجميع المال ، فكان مجرى حياته محدداً برغبته في استغلال الآخرين وتوظيف ارباحه لاستثمار فوائد جديدة منها . اما في القرن العشرين فقد اتجهت شخصية الانسان بصورة رئيسية في اتجاه التلقي والتجارة . فهو متلقٍ في معظم اوقات فراغه . إنه المستهلك الأبدي : هو « ملتهم » الشراب والطعام واللفائف والقراءة والسينما .. انه يستهلك ويلتهم كل شيء ، فالعالم الذي هو زجاجة كبيرة وتفاحة ضخمة وثدي واسع هو موضوع هائل لطمعه . ولقد اصبح الانسان الرضيع الذي ينتظر ابداً — والذي يخيب ظنه ابداً .

ولئن كان الانسان العصري مستهلكاً « في حياته الخاصة » فانه « في الحياة العامة » في مشاركته العملية بالمجتمع ، بائع . والواقع ان نظامنا الاقتصادي مركز على وظيفة السوق التي تحدد ثمن جميع البضائع وتنظم نصيب كل منها في مجموع الانتاج الاجتماعي . فليس الضغط ولا التقاليد ، كما كان الشأن في عهود تاريخية سابقة ، ولا الاختلاس ولا الغش ، هي التي تقود نشاطات الانسان الاقتصادية . إنه حر في أن ينتج ويبيع ، ويوم السوق هو يوم محاكمة يجزي جهوده. فليست هي فقط بضائع تعرض وتباع في السوق ، فقد أصبح العمل نفسه بضاعة تباع في سوق العمل في الشروط نفسها من المنافسة المشروعة . ولكن نظام السوق امتد الى ابعد من النطاق الاقتصادي للبضائع والعمل . فقد تحول الانسان ، هو نفسه ، الى بضاعة . وهو يعيش كما لو أن حياته رأسمال ينبغي توظيفه خير توظيف . فاذا بلغ ذلك ، ادرك النجاح وأعطى معنى لحياته. والا فهي هزيمة وسقوط. إن « قيمته » تقوم على قيمته البضاعية . لا على مزاياه الانسانية من الحب والذكاء او على طاقاته الفنية . ثم إن فكرته عن قيمته الخاصة مرتبطة بعوامل خارجية ، بنجاحه وبحكم الآخرين . من أجل هذا نراه مرتبطاً بالآخرين ، متوقفاً عليهم ؛ إن أمنه متوقف على انسياقه ، اذا

بحث الشهر العلمي

كاتب هذا البحث ، اريك فروم ، عالم تحليل نفسي ، الماني الاصل . وقد كرّس حياته للتعليم وللبحث النظري ، ولا سيا في تحليل المشكلات الثقافية والاجتماعية . وهو الآن مقيم في نيويورك ، وقد درّس في عدة جامعات اميركية ، ونشر عدداً من الكتب والمقالات أثارت اهتماماً كبيراً وكان لها تأثير قوي . وهذا المقال يعالج وضع الانسان الحديث بين التقدم الآلي والتأخر الروحي . «الآداب»

عرف الا يبتعد قط عن القطيع اكثر من قدمين .

غير ان الشخصية « العامة » للانسان العصري لا تتحدد بالسوق وحدها . فهي محددة كذلك بعامل آخر وثيق الارتباط بوظيفة السوق . هو شكل الانتاج الصناعي . فان المشاريع تكتسب مزيداً من القيمة كل يوم . وينمو عدد العمال والموظفين الذين تلحقهم هذه المشاريع بها . وتُفصل الملكية عن الادارة ، وتحكم المدراء الصناعيين بيروقراطية مهنية تسهر على سير المشروع سيراً منتظماً وعلى اتساعه اكثر من سهرها على الفائدة .

*

ما هو نوع الانسان الذي يحتاج اليه مجتمعنا ليعمل بانتظام ؟ إنه بحاجة الى رجال يتعاونون تعاوناً منتظماً بشكل جماعات كبيرة . ويطلبون ان يزداد استهلاكهم دائماً ويمكن لاذواقهم ان يؤثر عليها بسهولة وان تدرك مسبقاً . إنه بحاجة الى رجال احرار مستقلين غير خاضعين اطلاقاً لسلطة اومبدأ أوضمير ، وهم مع ذلك لا يرفضون ان يؤمروا ، وان يفعلوا ما ينتظر منهم ، وان ينسجموا ، من غير اصطدام مع الآلية الاجتماعية ؛ رجال يسمحون بان يُقادوا من غير لجوء الى الضغط ، وان يُحثّوا من غير غاية الاغاية كونهم يعملون ويشتغلون ويتقدمون . وقد نجحت الرأسمالية الحديثة في انتاج هذا النوع من الانسان ؛ إنه الآلة ، الانسان العبد . إنه عبد بمعنى ان أعماله وقواه قد أصبحت غريبة عليه ؛ فهي تقوم فوقه ، وتعارضه ، وتحكمه بدلا من ان يحكمها . لقد انصبّت قواه الحية في أشياء ومؤسسات . وهذه الاشياء التي أصبحت اصناماً ، لا يشعر بها على انها نتاج جهوده الخاصة ، بل على انها اشياء منفصلة عنه يحترمها ويخضع لها . إن الانسان العبد ينحني امام الأثر الذي صنعه بيديه الاثنتين . إن اصنامه هي قواه الحية بالذات ، في شكل استعباد . وان الانسان ليكفّ عن الشعور بأنه حامل قواه الخاصة وثرواته الخاصة ؛ لقد أضحى « شيئاً » فقيراً ، يتوقف على اشياء اخرى ، خارجة عنه ، قذف فيها مادته الحية .

إن المعنى الاجتماعي للانسان مقذوف في «الدولة» . ولما كان قد جعل من « الدولة » تجسيداً لمعناه الاجتماعي ، فانه يقدسها ، هي ورموزها . إنه يقذف معنى السلطة عنده ومعنى الحكمة والشجاعة في حكّامه ، ونفوسهم ، كالأصنام . وسواء أكان الانسان الحديث عاملا ام موظفاً ام مديراً ، فانه مستعبدٌ في عمله . لقد أصبح العامل ذرة من الاقتصاد ، تحت اوامر منظمة آلية . فليس له اي نصيب في خلق نظام العمل ولا في نتيجته ، وليس له اي اتصال تقريباً بالمنتوج الناجز . اما المدير ، من جهة اخرى ، فمتصل بالمنتوج الناجز ، ولكنه عبد له بصفته شيئاً محسوساً ونافعاً . ان هدفه هو أن يحسن استغلال الرسمال الذي وظفه آخرون ؛ والبضاعة هي التجسيد المجرد للرسمال ، وليست هي شيئاً يعنيه كصفة محسوسة . لقد أضحى المدير بيروقراطياً يحرك الأشياء والارقام والكائنات البشرية على انها موضوعات نشاطه . وقد كان المفروض بان يخص تحريكها الروابط الانسانية ، بينما الواقع ان هناك روابط لا إنسانية على الاطلاق ، روابط بين آلات مجردة .

واستهلاكنا هو ايضاً مستعبد . إنه خاضع للاعلان اكثر من خضوعه لفمنا او عيوننا او آذاننا .

ان الانسان الحديث ، كمواطن ، مستعد لأن يهب حتى حياته لأمثاله ، واما كفرد خاص ، فليس له الاهم اناني بنفسه . والعمل الخالي من المعنى ، واستعباده ، قد أفضيا الى رغبة في الكسل التام . إن الانسان يحتقر حياته العملية لأنها تجعل منه سجيناً وكاذباً . إنه يحلم بحالة من الكسل المطلق يعفى فيها من كل حركة ويجري كل شيء وحساب شعار «كوداك» الإعلاني : « إضغط الزر ، ونحن نقوم بالباقي .» ومما يقوي هذه النزعة نوع الاستهلاك الضروري لاتساع السوق الداخلية والذي يفضي الى مبدأ اورده « هكسلي » باختصار في كتابة « خير العوالم » . إن بوسعنا ان نلخص العادات التي اكتسبها كثيرون منا ، منذ الطفولة ، بهذه الكلمات : « لا تؤجل ابداً الى الغد اللذة التي تستطيع ان تحصل عليها اليوم .» واني اذ تجنب تأجيل ارضاء رغبتي الى ما بعد (وقد عُودت على الا ارغب الا بما استطيع الحصول عليه) اكون بمنجى من الصراعات والشكوك ، فليس هناك اي قرار ينبغي اتخاذه ؛ وما دمت دائماً منشغلا إما بالعمل واما بالتسلية ، فاني لست قط وحيداً مع نفسي ؛ بل انه ليس لي ان اعي ذاتي . لأنني للاستهلاك ابداً . انني لست الا نظاماً للرغبة والارضاء ، وانا مجبر على العمل لأستطيع ان أرضي رغائبي . وهذه الرغائب نفسها ما تنفك تتحرك

وتتوجه بالآلية الاقتصادية .

اننا ندعي الانتماء الى الدين المسيحي ، دين محبة الله والجار . بل نزعم إننا نشهد الآن انبعاثاً للروح الديني . ولا شيء ابعد من ذلك عن الحقيقة . اننا نستعمل رموزاً تنتمي الى ماض ديني فنحولها الى عبارات قابلة لأن تستخدم لاهداف الانسان المستعبد . اننا نستعمل الدين لنعزز وسائل نجاحنا ، وهكذا يصبح الله شريك اعمالنا التجارية .

واما محبة الجار ، فظاهرة نادرة . إن الآلة غير قادرة على الحب ؛ والأمرسواء بالنسبة للانسان المستبعد. وما يطريه اخصائيو الحب ووكالات الزواج ليس هو الا علاقة بين شخصين يتدبران امرهما بمساعدة التكنيك المناسب وليس الحب بينهما الا دريئة لوحدة لا تحتمل ، ليس الا أنانية «ذات طرفين » .

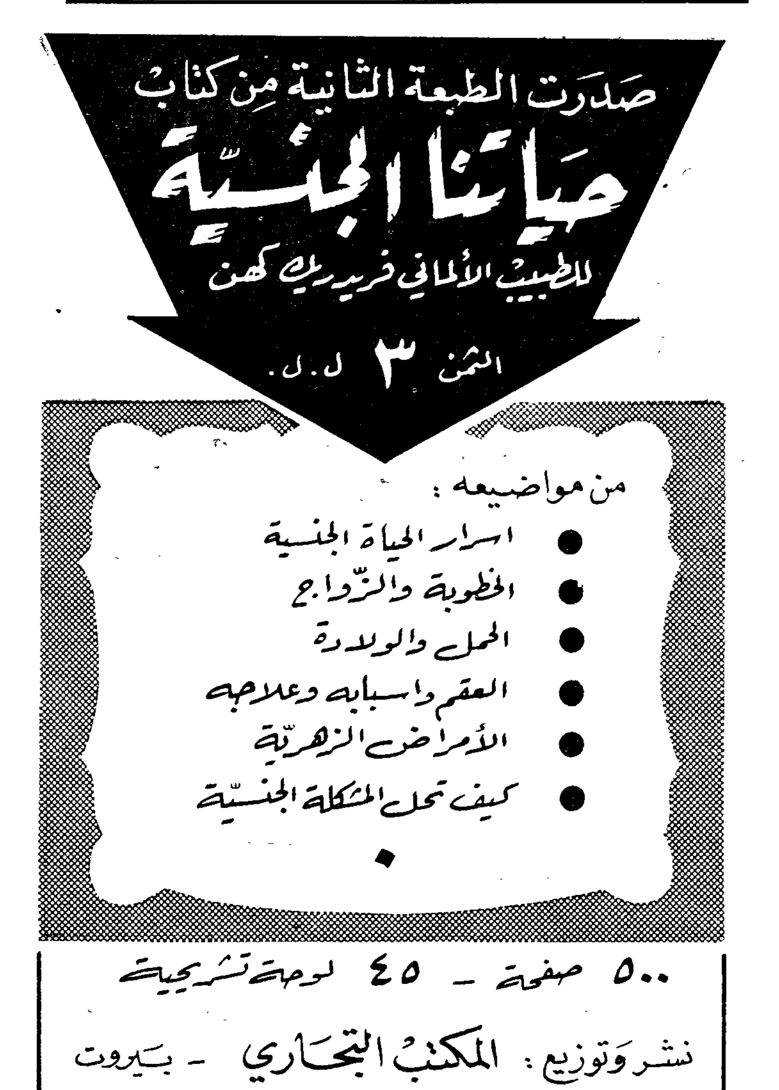
* * *

وبعد، فما هي ، في هذا الوضع ، منظورات المستقبل ؟

اذا صرفنا النظر عن رغباتنا ، فينبغي أن نعترف بان التباعد بين التقدم التكنيكي والعقل يوشك ان يقذف العالم في حرب ذرية . ولعل خير مخرج من مثل هذا الخطر هو تدمير المدنية الصناعية وإعادة العالم الى مستوى زراعي بدائي . واذا تبين ان هذا التدمير كان اقل كمالا مما يظنه كثير من الاخصائيين في الموضوع ، فيترتب على المنتصر ان ينظم العالم كله ويتسلط عليه . وهذا لا يمكن ان يتم الا بواسطة دولة مركزية قائمة على القوة ، والامر سيان بعد ذلك اذا قامت هذه الدولة في موسكو او في واشنطن .

ولكن حتى ولو فرضنا ان بالامكان تجنب الحرب ، فان هذا لا يكفي لأن يبدو المستقبل في حال أفضل . ذلك ان نظام الآلية والاستعباد ، خلال نمو الرأسمالية والشيوعية ، في الخمسين او المئة سنة القادمة ، سوف يستمر في التقدم . فالمبدآن كلاهما ينموان في مجتمع اداري حيث السكان يأكلون ويلبسون جيداً ويرون رغباتهم مستجابة وليست لهم رغبات لا يمكن ان تستجاب ؛ انهم آلات مطيعة في غير ما إكراه ، مقودة من غير قائد ؛ وهم يصنعون آلات تعمل كالبشر وينتجون بشراً يعملون كالآلات ، انهم بشر ينحط عقلهم بينما يكتمل ذكاؤهم ، وبذلك يخلقون وضعاً خطيراً يكون فيه الانسان مجهزاً باكبر قوة مادية ، فيما هو محروم من الحكمة اللازمة للتصرف بهذه القوة .

وبالرغم من نمو الانتاج والرفاه ، فان الانسان يفقد اكثر فاكثر حس شخصيته ، إنه يشعر بان الحياة لا معنى لها ، بالرغم من ان هذا الشعور غير واع في اكثره . كانت المسألة تتلخص في القرن التاسع عشر بنظرية : « لقد مات الله» . اما في القرن العشرين ، فهي تتلخص بنظرية « لقد مات الانسان . » كانت اللا إنسانية ، في القرن التاسع عشر ، تعني الوحشية ، اما في القرن العشرين ، فقد أصبحت تعني استعباداً « شيزوفرانياً » للذات . كانوا في الماضي يعيشون وهم يخشون ان يروا الناس يسقطون في العبودية . اما خطر المستقبل فهو ان يصبح الناس آلات . ولاشك في ان الآلات لا تثور . ولكن اذا اعتبرنا طبيعة الانسان ، فسنعرف ان الآلة لا تستطيع ان تعيش وعقلها سليم . وسوف تهدم عالمها ثم تهدم نفسها لأنها لا تستطيع ان تحتمل ضجر حياة فارغة من اي معنى .



ترى . هل هناك علاج للحرب وللآلية ؟ لعل خير جواب هو في قلب عبارة امرسون « إن الأشياء تمتطي صهوة الانسانية » وجعلها « ضع الانسانية على الصهوة لتمتطي الاشياء » ، يعني ان على الانسان ان ينتصر على استعباده الذي يجعل منه كائناً عاجزاً ولاعقلياً ، كائناً يعبد الأصنام . اما اذا ظللنا في الميدان البسيكولوجي ، فهذا يعني انه لابد من هزيمة التوجيه التجاري ، التوجيه التقبني الذي يستعبدنا اليوم ، ولا بد من سلوك طريق منتج يؤدي الى النضوج . ينبغي للانسان ان يستعيد معنى شخصيته ، وان يصبح من جديد قادراً على ان يحب وان يجعل من عمله نشاطاً محسوساً يحتفظ بمعنى ما . يجب ان يترك الطريق المادي ليبلغ مستوى تأخذ القيم الروحية عنده ، كالحب والحقيقة والعدالة ، أهمية رئيسية. ان اية محاولة تقصد الا تغيرّ الاّ مظهراً واحداً من مظاهر الحياة ، هو المظهر الانساني او الروحي ، انما هي مرصودة للخسران . والواقع ان اي تقدم يتحقق في ميدان ما ، تكون له نتيجة هدامة على الميادين الاخرى . فالانجيل الذي لم يكن يقصد إلا الخلاص الروحي ، قد ولّد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ،والثورة الفرنسيةالتي كانهمهاالاوحد الاصلاح السياسي ،قد أفضت الى روبسبير ونابوليون ، والاشتراكية التي لم تكن تنزع الا الى تغيير اقتصادي قد خلّفت الستالينية .

واذ نطبق هذا المبدأ ، مبدأ تغيير يقوم في جميع ميادين الحياة مرة واحدة ، فيجب ان نفكر بالتغييرات الاقتصادية والسياسية التي لا غنى عنها للتغلب على عنصر الاستعباد البسيكولوجي . يجب الاحتفاظ بالنظام الصناعي ، ولكن يجب ازالة مركزية العمل والدولة بحيث نردها الى أبعاد « انسانية » ولا ندفع المركزية الا الى الحد الذي تحتاجه الصناعة . وفي الميدان الاقتصادي يجب ان تشجع الادارة المشتركة جميع الذين يعملون في مشروع ما ان يسهموا في المسؤليات اسهاماً فعالاً . وليس من الصعب ايجاد اشكال جديدة لمثل هذا الاسهام . واما فيما يخص الميدان السياسي ، فيجب العودة الى المجالس العمومية ، بخلق آلاف من الفرق الصغيرة المطلعة اطلاعاً واسعاً والتي تتجابه في النقاش وتظهر قراراتها في « مجلس تحتيّ » جديد . ولابد من نهضة ثقافية في الامة كلها تشدّ تربية الاطفال والشباب الى فن شعبي جديد .

وكما كان الانسان البدائي عاجزاً امام قوى الطبيعة ، فان الانسان الحديث عاجز امام القوى الاجتماعية والاقتصادية التي اطلقها هو نفسه . إنه يمجّد عمل يديه الاثنتين ، وينحني امام الاصنام الجديدة ، فيما لا ينفك يسبح باسم الاله الذي أمره ان يحطم كل صنم . إن دريئة الانسان الوحيدة ازاء نتائج جنونه انما هي خلق مجتمع متوازن ، مطابق لحاجات الانسان ، وهي حاجات تقوم على شروط وجوده بالذات — مجتمع يمارس فيه الانسان علاقات محبة مع جاره ، مجتمع يرتبط فيه بروابط الاخوة والتضامن لا بروابط الدم والارض ؛ مجتمع يمنحه امكانية تجاوز الطبيعة بواسطة الخلق ، لا بواسطة الهدم ، بحيث يستطيع كل فرد ان يكسب معنى الذات اذا قام بتجربة قيادة نفسه ، لا بالانسياق لسواه ، مجتمع لا يطلب نظام التوجيه والتقوى فيه ان يشوّه الانسان الواقع وان يقدس الأصنام .

إن التقدم هو في اقامة مثل هذا المجتمع ، وليس ذلك « نهاية العالم » ولا « الكمال » ولا الانسجام التام الذي لن يعرف فيه الانسان الصراعات ولا المشكلات . والحق ان قدر الانسان انما يكمن في حياة مليئة بالوان التناقض الذي يريد ان يحله من غير ان يبلغ ذلك ابداً . فاذا تغلب على الحالة البدائية للتضحية الانسانية ، واذا أصبح قادراً على تنظيم علاقاته تنظيماً عاقلا مع الطبيعة ، بدلا من ان يمارسها ممارسة عمياء ، واذا أصبحت الاشياء عبدة له بدلا من ان تكون أصناماً تُعبد ، حينذاك يبقى عليه ان يجابه الصراعات والمشكلات الانسانية حقاً . إن عليه ان يكون مغامراً شجاعاً ، واسع التصور ، جديراً بالألم والفرح ، ولكن ملكاته ستكون في خدمة الحياة لا في خدمة الموت . إن العهد الجديد للتاريخ البشري اذا اتى يوماً ، فسيكون بداية لا نهاية .

اريك فروم

ترجمة « الآداب »

خليل تقي الدين وماروت عبود

قصاصان من لبنان

بقلم الدكتور سهيل ادريس

خليل تقي الدين قصاص موهوب من غير شك . ومجموعتاه « عشر قصص » (١٩٣٧) و « الاعدام » (١٩٤٠) تدلان على انه يملك فن رواية الاقاصيص وتأليفها . وتطبع آثاره ميزتان على الاقل : لون محلي توصف فيه العادات والتقاليد والاخلاق اللبنانية بلهجة حية ، وتحليل نفسي دقيق يثبت ان للمؤلف حاسة للحياة مرهفة . وهو يصرّح في مقدمة مجموعته الاولى ان « جوهر القصة هو الوصف والتصوير . وان الحادثة في حد ذاتها ليست الاعرضاً . »

فمن الطبيعي اذن ان لا نجد في قصة خليل تقي الدين حبكة هامة او عقدة غريبة ، ولكننا نلاحظ ان فنه التصويري التحليلي دقيق . واقاصيص «الواحة» و «ذكرى الهول الاول» و «صاحبي الذي مات» تقوم على حقيقة عادية ، ولكن التحليل الفني يجعل منها موضوعات هامة . ويتناول موضوع الاولى العلاقة بين الحياة والحب ، فان الحياة صحراء واحتها الحب ؛ ولكن يجب الا تبلغ هذه الواحة « تُرى أقدّر للحب الا ينمو ويسمو ويخلد الا في جدب الحرمان ولهيب الحنين ، فاذا بلغ الواحات عاد كاعشابها يعيش ليلة ويموت ؟. » . وبدلا من هذه الرمزية «الرومانتيكية» اذا صح التعبير ، نجد في القصة الثانية « ذكرى الهوى الاول » جواً شعرياً مرهفاً ، بل ان الابداع فيها صادر عن ذلك التماس الشعري بين الحقيقة والخيال . ولعل في نقل المقطع التالي توضيحاً لهذه الشاعرية :

« كانت خيمتي ملجأ احلامي . وهي احلام فتى لم يتجاوز السادسة عشرة ، وكانت احبّ ساعات النهار الي ساعة الغروب ، فكنت استلقي على ظهري امام باب الخيمة ، فيستوي في نظري البحر والارض والسماء ، وأظلّ غارقاً في ما يشبه الحلم ، ويداي متشابكتان تحت رأسي ، والحصى غارز فيهما ، وانا لا اشعر ، الى ان تغطس الشمس في البحر ، فيحمل الهواء الى اذني من البلدة الكبيرة القائمة قبالة بلدتي اصوات الاجراس مؤذنة بالمغيب ، وترتفع من الارض موسيقى ساحرة يرسلها رنين الاجراس المتلاشي وترجيع النواقيس الصغيرة المعلّقة في رقاب الاغنام والماعز والبقر العائده الى حظائرها . واصوات الفلاحين والرعاة ينهرون مواشيهم ويستحثونها ، وقد دهمهم الليل . ويخلع المساء الزاحف على هذه الموسيقى ثوباً رائعاً من الوحشة والسكون ، ثم يغشى الغسق الارض شيئاً فشيئاً . فتمحي الحمرة التي خلفتها الشمس وراءها . ولا يلبث البحران يغرق في الظلام ، ويلحق به الوادي . ثم تتراجع من امام عيني اطراف القرية وقد امتصّها الليل . حتى اذا بدأت ترتعش في بعض البيوت انوار المصابيح الضئيلة الصفراء التي ينيرها القرويون ، كان الليل قد غمر من حولي الكائنات جميعاً كما غمرني ، فاحسست رطوبة الندى على شعري وجبيني ، وقمت من ضجعتي تلك ، ودخلت خيمتي وانا اترنح كالسكران . »

ان الكاتب هنا يحيا في غفوة ذاتية حياة شخصياته ، حياة الشمس والاجراس والرعاة — والمساء والوادي ، فكأنه بذلك يقسم بينها روحه ويتلبّسها ، ويفيض على كلٍّ منها قبساً من طبيعته ونزعاته دون عمد ، فيبلغ درجة رفيعة من الذاتية في الفن . وقد لا يجد قارئ هذه القصة شيئاً فيها ولكنه يشعر دون ريب برعدة من التأثر تملك حواسه ، وبموجة كهربائية تتسلل بين اعصابه .

ويعرض المؤلف « صاحبي الذي مات » قصة بطلين ليسا هما في الحقيقة الا بطلا واحداً هو المؤلف ذاته ، وانما يتحدث عن نفسه في طور من اطوار حياتها العاطفية ، يوم

عشق امرأة متزوجة تكبره بعشر سنوات ، فلم يبح لها بحبه خشية ان يثير عاطفة الفضيلة فيها ، ولم تبح هي ، فخسر هذا الحب ، وماتت نفسه في هذا الطور ، لانه ترك تلك الساعة من حياته تمر دون ان يغنمها .

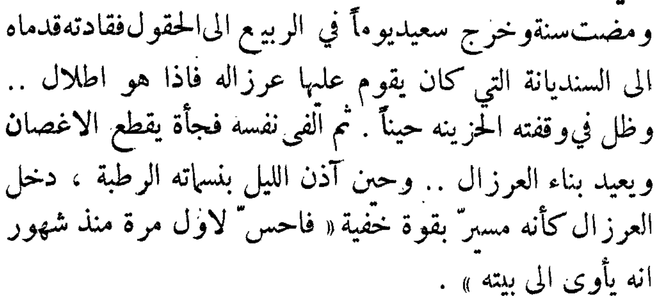
على ان التحليل النفسي انما يبلغ درجة طيبة في قصة المؤلف « الاعدام » وهي اولى قصص مجموعته الثانية ، بالرغم من ان الموضوع المطروق شاذ وغريب ، وانه بذلك يتوقف اكثر ما يتوقف على هوى المؤلف . انها قصة شاب ماتت امه ساعة ولادته فخالجت في نفسه فكرة الموت يتابعها وتتابعه . وما لبثت هذه الفكرة ان اتخذت شكلا آخر ، او تحوّلت في شعوره الى لذّة يحسها كلما رأى اعدام محكوم أو مجرم . بل هو راح منذ ذلك الحين يسعى الى التلذذ برؤية عملية الاعدام ، فاذا فاته المنظر ، استعاض عنه بالمطالعة وقراءة الروايات البوليسية والجاسوسية وما اليها من الروايات التي تنتهي بالقتل والاعدام . وحين بلغ الشاب العشرين من عمره ، وقع في حب راقصة اسبانية كانت تعمل في ملهى ببيروت . واذ ذاك نشبت الحرب ، فلم يمض وقت طويل حتى القي القبض على الشاب بتهمة التجسس للأعداء الذين كانت الراقصة نفسها عميلة لهم . وحُكم عليه بالاعدام .. وهكذا اصبح ضحية للاعدام الذي كان يتلذذ بمشهده .. ولكنه مات قبل ان يوثق الى عمود المشنقة ، بل قبل أن يخرج من السجن .



خليل تقي الدين

ونحن نذكر اننا حللنا ، **إذ** درسنا توفيق يوسف عواد ، قصة عنوانها «ميثاق الموت» تصور هي أيضاً تأثير وهم أو فكرة راسخة . وبوسعنا ان نتساءل : هل كتب خليل تقي الدين قصة «الاعدام» تحت تأثير «ميثاق الموت» التي نشرت قبل ذلك بثلاث سنوات؟ مهما يكن من امر، فاننا نجد في «الاعدام» خطاً تحليلياً اثبت وأدق ، بالرغم من ان تكنيك القصة ليس ابرع او أكمل . وليس لهذه القصة فائدة نفسية فقط ، وانما تتميز كذلك بفكرة خلقية تستنتج من مصير البطل .

واللون المحلي الذي يصوره المؤلف يدل على براعته في الوصف ونفاذه الى أعماق الجو اللبناني ، ولكن ذلك لا يكون على حساب التحليل النفسي . فهنا يطغى تعبير الشخصيات قوية كانت أم ضعيفة ، وتبرز ردود فعلهم تجاه الرجل والطبيعة صادقة مؤثرة . والحق ان خليل تقي الدين يملك حاسّة خاصّة لتحسّس الجو الاقليمي، فهو يعرض في عدد من قصصه عادات خاصة وتقاليد معينة وطرقاً للمعيشة متميزة . وقصته «نداء الارض» هي اجمل اقاصيصه المحلية ، ومن اجمل الاقاصيص العربية الحديثة اطلاقاً . فهي لا تستوحي فقط حب الارض ، وشعور الحنين للاماكن العائلية الحميمة وانما تجعل من «عرزال» كائناً حقيقياً هو الذي يحدد خطة العمل ، حين يقارَن بالاشخاص الانسانيين او بواحد منهم على الاقل ، ويوجه المصير . فسعيد شاب قوي عبل الساعد ، كان يمتهن مهنة الناطور ويعيش في عرزال مشرف على وادي الصفا . وكان يتردد الى بيت عمه ليلقى ابنة عمه التي كان يحبها وتحبه حباً قروياً لم يكن بحاجة الى ان يعلن عن نفسه . وجرت يوماً معركة بين سعيد وبين افعى كانت تسعى الى عرزاله، فقتلها ولكن بعد ان لسعته . وحين علمت ابنة عمه باللسعة التي سارع سعيد الى علاجها، بكت وابتهلت اليه ان يهجر النوطرة ويعيش معها في الدار ، فنزل عند رغبتها وعقد عليها بعد حين . ويوم العرس تنافس الشبان في حمل الاجران ، فأخفق سعيد في حمل الجرن الكبير ، وقدكان الى ايام خلت ، قبل ان يهجر عرزاله، يتلاعب به تلاعباً . وقد شقّ عليه ذلك وحزّ في نفسه طويلا ..



ومضت سنة وخرج سعيد يوماً في الربيع الى الحقول فقادته قدماه الى السنديانة التي كان يقوم عليها عرزاله فاذا هو اطلال .. وظل في وقفته الحزينة حيناً . ثم ألقى نفسه فجأة يقطع الاغصان ويعيد بناء العرزال .. وحين آذن الليل بنسماته الرطبة ، دخل العرزال كأنه مسيّر بقوة خفية « فاحسّ لاول مرة منذ شهور انه يأوى الى بيته » .

فظاهر هنا ان فكرة القصة المحلية تتجاوز رغبة الوصف وحسّ اللون المحلي لتدخل في الدراما عنصراً انسانياً . واقاصيص « طريق الوجيه » و « بعد العرس » وسواهما تحويان تصويراً محلياً جيداً ، فالاولى تصف هماً من الهموم الكبيرة التي تراود نفوس الزعماء من القرويين ، يبذلون كل ما يستطيعون بذله ليحافظوا على وجاهتهم ؛ فبطل القصة اسعد بك كان يعتقد أن بقاء وجاهته متوقف على شق طريق تمر من امام بيته ، حتى اذا تم له ذلك ووجد الناس منصرفين

عنه ، ادرك ان وجاهته انتهت « فسار الى سريره شقياً بائساً متهدماً ، وارتمى عليه كأنه جثة القيت في تابوت» . اما الثانية فأقل تركيزاً وتناسقاً . ولكنها تقدم تصويراً هاماً لعادات القرويين في الخطبة والعرس والزواج ، وتشير الى آفة اجتماعية شديدة الانتشار في البلاد ، هي تزويج الفتيات بكهول وشيوخ غير جدير بهم ان يسعدوهن. والتكنيك القصصي ضعيف بالاجمال هنا ، لاننا ازاء روايةطويلةلا قصةفنيةقصيرة.

وقد عالج المؤلف في اقصوصة « فارس الشامي » موضوعاً طرقه الكتاب اللبنانيون كثيراً هو موضوع عودة المهاجرين الى مساقط رؤوسهم والمشكلات التي يواجهونها في وسط فقدوا عاداته وتقاليده . وقد عجز فارس في الحقيقة عن التموضع في قريته بعد عودته .

ولابد من ان نذكر ان للمؤلف في جميع هذه الاقاصيص اسلوباً رقيقاً انيقاً ولغة متينة جميلة بعيدة عن الضعف تحتل العبارة الموحية فيها مكاناً كبيراً وتكسب كثيراً من الالوان والظلال الغنية .

هذا وقد اصدر خليل تقي الدين عام ١٩٥٥ أقصوصة بعنوان «تامارا» احدثت ضجة في الاوساط السياسية لتناولها موضوعاً سياسياً دولياً من موضوعات الساعة . ففيها يتحدث ممثل سياسي لدولة عربية في موسكو عن ملاحظاته لدى وصوله الى العاصمة الروسية ، ثم يروي كيف التقى في حفلة راقصة اقيمت في السفارة الصينية صبية حسناء في التاسعة عشره من عمرها تراقص صديقاً لها من السفراء ، وكان زوجها آنذاك في باريس بمهمة سياسية .

وهنا يرتد الراوي ليقص حكاية تامارا منذ كانت في السادسة عشرة ، اذ تعرفت الى جندي روسي اتى يقضي اجازة اسبوع في موسكو فاصبحت عشقيته ، ثم تركها الى ساحة القتال .. واخذت الفتاة ، وقد تفجرت في جسمها ينابيع الحب ، ترفه عن عشرات الجنود ولا ترتوي ، حتى انتهت الحرب . وفي احتفالات موسكو بالنصر هاجمت الفتيات بقيادة تامارا فندقاً للاجانب ، وتعرضن لسفير دولة شرقية ، بل ان تامارا جرؤت على تقبيله « وكانت تلك القبلة اول حرف خطه القدر في حياة تامارا « وقد تمكن السفير الكهل من الانفراد بها ثم ادخلها الى غرفته . غير أنها تأبت عليه . وتبين انها كانت مكلفة بمهمة خطيرة ، ولذلك طلبت منه الزواج فوافق عليه وكان قد أغرم بها . وراحت الزوجة تامارا تنقل الى دائرة الأستعلامات الروسية كل الاسرار التي تقف عليها ، ثم كلفت باسقاط سفير دولة اخرى في حبائلها ، ولكن هذا السفير كان من الوعي بحيث اخضعها هو لسلطانه واخذ يستبثها اسرارها . واذ ذاك منعتها حكومتها من السفر الى الخارج مع زوجها ، الذي لم يرجع الى موسكو ، ثم بعث اليها بوثيقة الطلاق . فسقطت مرة اخرى في حياة الرذيلة ، وراحت دائرة الاستخبارات تلاحقها وتراقبها . وفي هذه الاثناء لقيها صديقها الراوي في السفارة الصينية المتقدم ذكرها فوقف على قصتها التي ناشدته ان يكتبها . ثم اختفت الى الابد ولم يعرف احد ماذا حل بها : « لقد سحقتها الآلة الجبارة ! فهي تموت الف مرة كل يوم في حقول الجليد المخيفة في سيبيريا او تعيش مع ذكرياتها وفزعها بظلمة القضبان الحديدية في غياهب سجون لوبيانكا ! او .. من يدري ؟ « .

وليست بنا حاجة الى تأمل طويل لندرك مغزى هذه القصة فقد اورده المؤلف صراحة اذ قال : « وتامارا ؟ الم تكن هي الاخرى آلة اديرت على ان تحسن الدوران فتكاسل شيء فيها وتخاذل وتحطم ؟ انها ارادت ان تكون انساناً . فاقترفت بذلك الغلطة التي لا تغتفر ! والالة الجبارة الكبرى لا تطيق ، ولا تتساهل ان يتحطم في داخلها قطعة ولو صغيرة ، كبابي تامارا الاله الجبارة الكبرى يجب ان تدور الى الابد باستمرار ونظام فان عاقها شيء سحق هذا الشيء بلا رحمة . وهل تعرف الالة الشفقة والرحمة ؟ وهل للآلة شعور ؟ الرحمة والشعور اختراع الضعفاء . وميزة الالة الكبرى انها قوية جباره فبل كل شيء « (ص ٣٧) .

ان هذه القصة اذن تصور بعض الاساليب الشيوعية في الحكم الداخلي الذي لا يتورع عن ان يضرب بشدة بعض عماله الذين يضعفون او ينحرفون في خدمته . وهو موضوع هام عالجه عدد من كبار الروائيين والمسرحيين في الغرب . ولكن لنا ماخذ عدة عل « تامارا « .

ان المؤلف يتدخل منذ بدء القصة بتقريرات مسبقة واحكام مبتسرة تنم عن انه لم يكن ذلك القاص المتجرد الذي يريد ان يقنع قارئه عن طريق الاحداث والحبكة لا غير . فهو يقطع الشرد الروائي في كثير من الاحيان ليكشف عن مقصده . ونكتفي ببعض الامثلة هنا : فهو حين يتحدث عن وصول البطل الذي يسميه « صاحبي « الى موسكو ، يقول: « تلقاه برد قارس ومطر خفيف كان يتساقط هادئاً لا يسمع

له صوت ككل شيء في موسكو » وقوله بعد اسطر : « الى بلد غامض مخيف تكتنفه الاسرار وتروى عنه احاديث الرعب » وقوله عند الحديث عن الغربان التي تعشش في الكرملين : « اتكون الغربان وحدها هي التي افلتت من قبضة الديكتاتور الاحمر ؟» وقوله« ليس في موسكو شيء يقال له المنزل او البيت (...) واما المنزل فللموظفين وللمميزين وهم قلة » وقوله : « كانت الجدران في فندق ناسيونال ترى وتسمع ، وللجدران في موسكو عيون وآذان ، ولا سيما اذا كانت جدران غرفة تضم سفيراً من دول البلقان اندلعت في داخلها وعلى اطرافها ثورة شيوعية حمراء ... »

فكل هذه التعليقات تثبت تدخل المؤلف تدخلا يفسد الجانب الفني من الرواية وتقصّده بان يؤثر على القارئ باحكام مسبقة في ذهنه ليست لها تبريرات في القصة ، أو أن هذه التبريرات تأتي في آخر القصة على الاقل . ولعل بوسع القارئ ان يتساءل هنا : اليست هذه القصة من قصص الدعايات السياسية ؟

ثم ان القارئ يشعر بان المؤلف لم يحلل نفسيات ابطاله التحليل الذي تكشف عنه قصصه الاولى، ولاسيما « الاعدام » ، بل هو يسرع في السرد اسراعاً يميل بالقصة الى الكتابة الصحفيه . فهناك بعض العبارات التي تثبت زهد المؤلف بالتحليل الصادق العميق. من ذلك قوله : « كان القدر في تلك الليلة يلهو ويلعب شأن كل الناس » (ص ١٥) ، وقوله : «كانت تامارا تلعب اللعبة المزدوجة الكبرى باحكام واتقان » (ص٢١) وقوله : « وكانت جلسة تفتت الاكباد بينها وبين فيرا » (ص٣٤) وليس هذا كله من الفن القصصي في شيء .

وبعد ، فيتبين لنا من تحليل آثار خليل تقي الدين ان طريقته في معالجة القصة هي الرومنطيقية المطعمة بالواقعية . واسلوبه في السرد ينهض على التشويق والتركيز الفني حول حادثة والتحليل النفسي في معظم اقاصيصه ، وهو بالاجمال من المع وجوه القصة في لبنان .

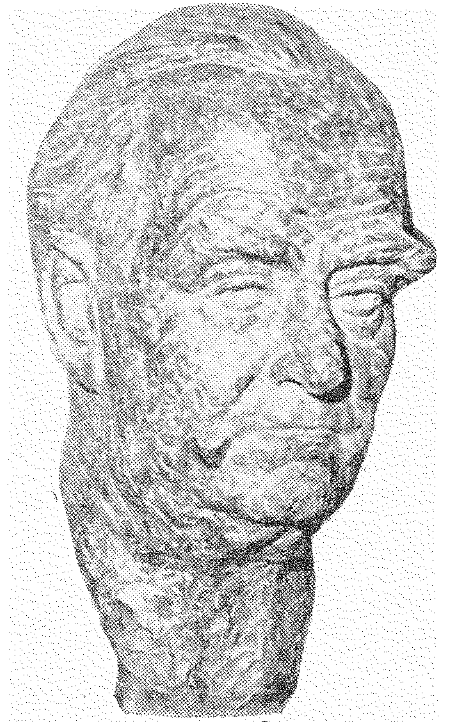
* * *

مارون عبود

عالج مارون عبود اللون القصصي في ثلاث مجموعات قصصية هي «اقزام وجبابره » (١٩٤٨) و «وجوه وحكايات (؟) و «احاديث القرية » (١٩٥٦) ،وفي رواية عنوانها «الامير الاحمر» الفها عام ١٩٤٨ ، وطبعت عام ١٩٥٣ .

والميزة الرئيسية لهذا الانتاج بروز اللون المحلي فيه ، فهو يصور تصويراً صادقاً اشكال الحياة المحلية في القرى والمدن الصغيرة ، ويصف العادات والتقاليد والهوايات الخاصة التي تنبض بها عيشة القرية اللبنانية ، ويستشهد في معظم الصفحات بالامثال والاقوال العامية ، ويحيي الصور والتشابيه القروية ، في لوحات مأخوذة من صميم الارض اللبنانية .

على ان ضعف الحبكة القصصية واهمال التقنية الفنية يكادان يخرجان بهذا الانتاج عن القصة الى الحكاية او الاحدوثة. فاذا نحن امام صور ولوحات وشخصيات معروضة امامنا من غير عقدة تقودها . نحن لا نستطيع بالطبع ان ندّعي أن الحبكة ينبغي أن تكون العنصر الرئيسي في القصة. ولكنها مع ذلك عنصر اولي لا يستقيم الخلق الحقيقي من دونه . والحق انه لا يكفي ان نسند الى الحبكة دور الواسطة ؛ بل ينبغي أن تكون لها قيمة بذاتها ، تنهض على اتقان التركيب والتأليف والتحريك . ونحن نفتقد مثل هذه الحبكة في اقاصيص مارون عبود التي تكتفي بالتصوير .



مارون عبود

والواقع ان عبود يهتم اهتماماً كبيراً بالوصف الخارجي الذي يبرز الخصائص الجسدية او الطبيعية التي لا تدرك البشر من الداخل ، وان كانت احياناً تدل على نفسيات معينة . وهذا الوصف الخارجي غالباً ما يكون على حساب العناصر الاخرى : عنصر «العمل» الذي هو في معظم هذه القصص حادثة تنتهي بنكتة او بموقف طريف . وعنصر « التحليل » الذي لا نكاد نجد له اثراً . وعنصر التأليف الفني الذي يهمه اول ما يهمه ان « يجمع »جمعاً لا انفصام له البطل الرئيسي للقصة ومعرفة القلب البشري وحضور الطبيعه ، بحيث يجعل

من الوسط الذي يصفه. سواء أكان محلياً ام عاماً. لا مجرد غاية ، ولا مجرد ديكور . بل يجعل منه عنصراً فعّالا في الاحداث التي تجري فيه .

ان انتاج مارون عبود القصصي يتكشف لنا عن حكايات محلية مستمدة من الاساطير او من الوقائع التي تتناقلها القرى ، او عن صور افراد ذوي خصائص بارزة تميزهم عن سواهم . وفي الحالتين كلتيهما ، توشك الحبكة ان تكون منعدمة. ويبدو ان الحكايات قد كتبت لمجرد التسلية والتفريج . لأنها تتناول دائماً حادثة ممتعة او تنتهي بفكاهة مضحكة .

وان حسّ الفكاهة هذا ليطغيِ على المؤلف احياناً طغياناً يفسد عمله القصصي ويحيله اثراً لا قيمة له . وهذا ما نلمسه بصورة واضحة في رواية « الامير الاحمر » .

انها قصة ثورة كان على رأسها رجل دين يدعى الشدياق سركيس ، قرر مع رفاق له اقلاق راحة المير بشير الذي كان يدعى الامير الاحمر لما عُرف عنه من ظلم ومن فرض الضرائب المتزايدة على الشعب . وقد قدمت عساكر المير الى بلاد جبيل بحثاً عن عصابة الثائرين الذين كانوا قد هاجموا ولده المير قاسم في قلعة جبيل وقتلوا احد رجاله . وفي هذه الأثناء حل محل حديث العصابة خبر ناسك جديد ظهر في احد الاديرة وسمي «الحبيس» وكان يبث روح الثورة على الاستعباد في نفوس شباب كان يسوسهم . وقد تبين فيما بعد انه المطران يوسف اسطفان مستشار عاميتي « انطلياس » و « لحفد » الذي قيل ان الامير عفا عنه فذهب اليه ولكن الامير ما لبث ان غدر به . أما الشدياق سركيس فقد واصل ثورته مع رجاله ، وكان يقوم بحرب العصابات ويلتجئ الى دير حصين في رأس جبل ، يتنكر تارة بزي معلم واخرى بزي بائع .. وينتظر وعصابته الفرص المناسبة للهجوم . وحدث ان وقع الامير قاسم في كمين نصبه له الشدياق سركيس . فاعطاه درساً في الديمقراطية ثم اطلقه من غير ان يؤذيه ، ولما بلغ الخبر المير بشير ، غضب وثار وأمر رجاله بمهاجمة جبيل وإعمال النهب والذبح والتقتيل فيها والاتيان برأس الشدياق سركيس . وخرج الامير ذات يوم يشرف على قطف شرانق موسمه . فلما وصل احدى القرى ، ابصر تحت شجرة سنديان جوقة من النوَر كانوا يُرقصون دباً وقرداً . وكان بينهم شاعر اطرى الامير كثيراً وجعل يتودد اليه . وهنا يكشف لنا المؤلف عن ان هذا الشاعر لم يكن غير الشدياق سركيس الذي طلب الامان من الامير . حتى اذا أمّنه ثم عرف اسمه قال له : «الله» يخيّبك ! صحّ فينا قول المثل « الدارس غلب الفارس ! » .

وبهذه العبارة تنتهي رواية « الامير الاحمر » . انها قصة ثائر يثور على الظلم ويكافح لرفعه عن رؤوس شعبه ، ثم ينتهي به الامر الى ان يتنكر بزي «قرداتي» ليطلب امان الامير ويستسلم له ! ان احدنا ليتساءل عن معنى هذه القصة ، ومغزى هذه الثورة التي اجهضت ؟ فاما ان يكون المؤلف قد اراد ان يسجل واقعة تاريخية ، فهو لم يحسن اختيار المادة لتجسيد ثورة على الظلم ، واما انه لم يقصد الا الى النكتة ، هذه النكتة التي تنهض عليها معظم آثاره القصصية ، فاذا هو يسقط ثورة عظيمة كانت جميع حوادث القصة تدور حولها . ولقد كان القارئ يشعر ان فكرة الرواية هي محاربة اقطاعية الامير بشير الشهابي ، فاذا النهاية لا تشير الى ذلك ولا تدل عليه ، كأن المؤلف قد نسي ما كان يقصد اليه ، أو كأنه لم يكن يقصد الى شيء بذاته ، وانما كان قلمه يجري بلا غاية .

ونحن نكاد نوقن بان المؤلف لا يضع لقصصه تصميماً .

فهو في هذه الرواية مثلا يبدأ بقصة ابو ناصيف الذي يثور ثم يخلفه في وسط الطريق ولا ندري بعد ذلك شيئاً من امره ، ثم هو يستطرد الى قصة «الحبيس» التي لاتلتحم بسياق الرواية ، ويتطرق الى اوصاف وتفاصيل كثيرة من غير ما حاجة ، ودون مراعاة لمبدأ «الضرورة» .من ذلك مثلا انه تحدث في خمس صفحات عن دير القطين ، ثم انتهى الى القول «وقصارى الكلام ، كان هذا الدير حصناً حصيناً يتوارى فيه الشعب اللبناني هارباً من وجه حكامه الظالمين ... » ولا يكتفي بذلك بل يستطرد قائلا « اما كيف خرب هذا الدير ، ففي المحيط اسطورة تروى حكاية عن سكانه لا محل لها هنا » (ص٨٢) ولا حاجة بنا ان نشير الى بُعد هذا كله عن القصة الفنية الحديثة.

ومثل هذا القول في اقحام المؤلف آراءه وتقريراته في سياق القصة . فهو لا يتورع في كثير من الاحيان عن اصدار احكام لا تنسجم والسرد القصصي كمثل قوله « والمير بشير ، في اعتنائه بعقاراته ، كان مثلا صالحاً للفلاح اللبناني » ونحن نجد هذا التدخل في كثير من قصصه القصيرة . كاقصوصة « من مشاكل القرية » التي يقدم فيها بمقدمة وعظية عن لبنان وقيمة ارضه وترابه ، فيقتل عنصر الايحاء الذي هو عنصر هام في القصة الفنية . ومثل هذا الوعظ نقع عليه في اقصوصة «لا يا بونا» التي هي عظة مملة طويلة تلقيها امرأة على ابنة اخيها بالا تتزوج الا بارادتها .

وقد تتوفر لبعض اقاصيص عبود الحادثة التي يمكن أن تؤلف حبكة فنية . ولكننا نجد المؤلف بعيداً عن أن يحسن استغلالها لهذه الغاية . فاذا اخذنا مثلا اقصوصة «ميلاد» قرأنا حكاية فتى قروي يهجر القرية الى المدينة فيلاقي فيها البؤس ويضطر الى الاستعطاء حتى يكاد يموت جوعاً . وفي هذه الاثناء تهبط امه الى المدينة بحثاً عنه لتعود به الى القرية في عيد الميلاد . وقد لقيته فعلا في الطريق ، وبسرعة عجيبة . فعادت به ، ولا يستطيع القارئ الا ان يشعر بالاصطناع في تدبير هذا اللقاء بتلك المصادفة العجيبة .

ومثل هذه المصادفة التي لا تعبر الا عن الرغبة في الخروج من مأزق . نقع عليها في اقصوصة « طبيب امرأته » التي روي حكاية اب قروي زوّج ابنه الطبيب وكان يرجوان يردّ له بعض فضله عليه ليخلصه من ديونه . ولكن الابن يتناساه فيغضب عليه الاب وتسوء حالته المادية حتى يضطر الى طرح بيته واملاكه . ولكن ينقذه فجأة تدفق نبع في ارضه. إن هذه الحادثة الاخيرة توحي بالاختلاق والتصنع لقيامها على مجرد المصادفة والمفاجأة .

وقد يحاول المؤلف معالجة القصة التحليلية ، فلا يصيب في ذلك النجاح . فهو في اقصوصة « لا يسلم الشرف .. » يحلل انفعالات رجل يشك في مسلك زوجته فيصمم على قتلها ويظل ردحاً طويلا يحدث نفسه في ذلك . وحين تستيقظ زوجته تعد القهوة وتقدمها له ، فيندم على اتهامه اياها ، ويشعر بانه قد ظلمها . ولما لم يكن لشكه ذلك من تبرير ، ولم يكن لندمه من تبرير ، فانه يسهل على القارئ ان يشعر بان تحليله كان مزيفاً مختلقاً .

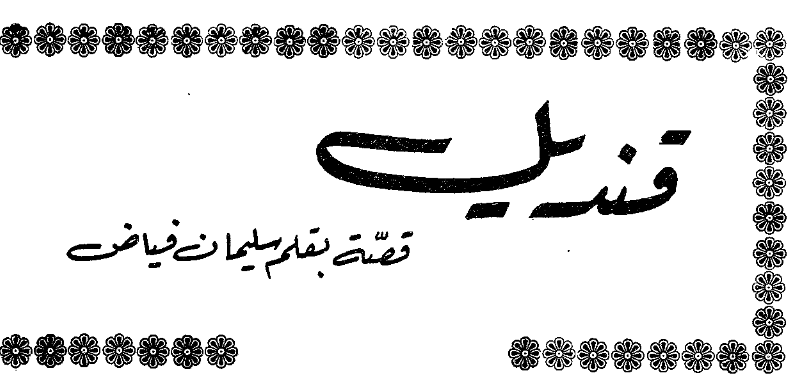
على ان مارون عبود يحسن رسم النماذج ذات السمات البارزة . ويخرجها اخراجاً حياً باسلوب نابض قوي . فان « مغرور » نموذج للانسان الذي يعيش على الوعود الكاذبة باسناد وظيفة اليه ، ويتغذى من هذه الوعود ليسوق حياة غرور وتنفج ، ثم يسقط ضحية حمقه وتصديقه هذه الاوهام اذ يقع تحت عجلات ترام وهو يلاحق الرجل الذي وعده بالوظيفة ، فتقطع ساقه.ونجد مثل هذه الصورة الوصفية في « ابو الغنباز » نموذج للتأتاء الاقرع . ومثلها اقصوصتا «هيكل» و «قاطع طريق» . وهذه الاخيرة تسرد حكاية رب اسرة متدين تقي يصلي ويناجي العذراء ويحفظ للدين حرمته ، ولكن هذا لا يمنعه من ان يكون قاطع طرق . ويبرر مسلكه بقوله عن الذين يسلبهم : « لولا قلة دينهم ما وقعوا بايدينا ! »

وقد لا يلمس القارئ في هذه الاقصوصة سخرية ببطلها . ولكنه سيجد السخرية اللاذعة في كثير من الاقاصيص التي يتحدث فيها المؤلف عن رجال الدين وعن ازدواجية سلوكهم في الحياة . والواقع ان معظم انتاج مارون عبود القصصي يتناول رجال الدين على مختلف مراتبهم ، فينتقد بطريق الهزؤ الرفيق غالب الاحيان استغلالهم او رياءهم او حتى سذاجتهم ، ويناقض اسلوبه هذا في نقدهم اسلوب جبران العنيف المباشر .

وهذا الاسلوب من النقد الاجتماعي نقع عليه في عدد من اقاصيص عبود . ففي اقصوصة « السلالم » تصوير صادق لجانب من الحالة السياسية في لبنان ، هو وعود النواب الكاذبة ، هؤلاء النواب الذين يحملهم الشعب الى المجلس النيابي ، فيتخذون من ظهوره سلالم يرقون عليها الى مطامعهم . وفي اقصوصة « البهائم تفكر في مصيرها » نقد اجتماعي خفي لكثير من مساوئ المجتمع اللبناني والحكومة .

وبعد ، فاذا لم يكن لمارون عبود مفهوم واضح للقصة ، ولئن كانت اقاصيصه تفتقر الى معظم المقومات الفنية ، فانها تزخر بالتصوير الصادق واللون المحلي والعادات والتقاليد القروية والامثال المعبرة والنقد الاجتماعي الساخر ، كل ذلك في اسلوب فكاهي طريف هو نسيج وحده في الاساليب العربية الحديثة .

سهيل إدريس



بلغ « قنديل » من الإعياء درجة التخاذل ، حتى أنه فكر بلا وعي أن يجلس هنا في هذا البستان المستدير بميدان الخازندار ، أو هناك على الرصيف ، أو في وسط الشارع حيث تدب ساقاه .. وليكن ما يكون ؛ فليمزقه الترام ، أو لتدهسه سيارة ، كله واحد : أن يحيا ، ان يموت .. كله موت . ولكنه ظل ينقل ساقيه ، وينقل معهما نفسه ، حتى اجتاز الميدان . كان يائساً من حياته ..

« .. حياتي ؟ .. هه . كان يمكن أن تكون حياً لو كنت تأكل شيئاً آخر غير سندويتش الفول والطعمية مرة . لو كان لك بيت ومستقبل وأصحاب يعينونك على الزمن ، وتعينهم عليه . لقد عشت على الأمل في أن تعطيني الدنيا ، حتى ضاع كل شيء من يدي . الناظر الملعون هو الذي أضاع منك كل شيء . الله يحرقه بجاز . كارت التوصية من أخيه ، لم يلتفت إليه إلا ليعتذر ، لأني بدون شهادة . شهادة ؟! الشعب بدون شهادة . يموت لأنه بدون شهادة ؟ شهادة ؟ هل الشهادة هي التي تقوم بالنجارة أم النجار ابن الكار ؟ لقد قلت له انني أعرف القراءة والكتابة ، وإذا كانت وظيفة نجار بمدرسة تحتاج إلى شهادة ، فأنا على استعداد أن آتيه من الورشة بشهادة تشهد بأنني نجار ابن كار . حضرة الناظر ضحك ، حضرته يريدني بشهادة من مدرسة الصنايع من قسم النجارة . قلت له :

— يا بك . عندنا في الورشة نجار معه شهادة المدرسة إياها . لكن أقل صبي في الورشة نجار ابن كار أحسن منه . إسأل المعلم صاحب الورشة يا بك .

الناظر طبعاً منفوخ . قال لي :

— انت فضولي . كفاية فلسفة .

قلت له :

— يابك . أنا من طرف أخيك . اجعلني فراشا بمدرسة .

طردني من بيته دون أن يتفاهم معي . لكن الحكاية حكاية حظ . أنا خمنت أن بينه وبين أخيه خلافاً على تركة ، أو بنت ، ما المانع ؟ ليتني كان لي أخ ، وكنت أنا ناظراً من الحكام ، كان لابد وأن أكرم أخي ، وأحترم توصيته على كل من يوصي به ، مهما كان بيننا من خلاف .. الحكاية حكاية أصل ، قليل الأصل الله يحرقه بجاز .. جاز واسبرتو وبنزين !!

آخ .. لو كنت قد كسرت نفسي ، ولم أنو السكن بعد الوظيفة بعيداً عن أمي وعن زوجها البرعي ، ربما كانت الوظيفة من حظي . مّن الجائز يا قنديل أن البرعي رجل ولي ، لم يشأ الله أن تغدر بوعدك له ؛ الرجل أعطاك توصية وشقي حتى حصل عليها ، لم يكن من الذوق أن تنوي الغدر به . مقدر وكتب « حظ » زهر . ولكن ، هل هو ولي حقيقة ؟ .. رجل يصلي ، ويقرأ الأوراد ، ومعه الطريقة الرفاعية ، لابد وأن يكون .. لكنه يضرب أمي ، يضربها أمامي ، تستحق . لماذا تزوجته بنت الـ ... !!؟ . عندما كان يضربها ودمي يغلي ، وأحب أن أضربه ، كانت تدافع عنه ، وكانت تبكي بكاء حزيناً . ضربتها مرة ، حين حاولت أن تمنعني من ضربه . كان دمي فائراً . طردتني من بيتها و .. بيته . من أيامها وأنا أدفع سبعة قروش في اللوكاندة ، أجراً لليلة واحدة . ليلة واحدة يا عالم . ضيقت رزقي بنت الـ .. !!

.. ارجع لها يا قنديل . لا يمكن . كرامتي .. هي الكرامة لعبة ؟.. الموت أحسن . منذ أسبوع جاء البرعى إلى اللوكاندة ، وصلح نفسه عليك ، وأعطاك الكارت . أنا أعرف السبب . بنت أخيه بايرة ، يريد أن يزوجها لى ، لكن بضب ، وأنا ما شأني ومصائب الناس ، أولادي منها يولدون بضب مثلها . ويا وقعتك إذا كان المولود بنتاً . مستحيل . الموت أحسن . البرعى يريد أن يضحك عليك بكارت ؟ (بعده) . ما حدث أحسن لك . لم يقدر على أن أكون أسيراً لجميله . التوصية فشلت . كم أحب أن أرى وجه البرعى وأنا أخبره بالفشل . الفشل ؟ فشل من ؟.. إنه فشلك أنت ، لا فشل البرعى !! »

وسقطت ساقه اليمنى في فجوة بين بلاط الرصيف المهشم — ورنت القروش الباقية في جيب بنطلونه ..

« .. خمسة فضة ، وقرش أحمر ، وقرش أبيض مثقوب . ليتني أنام في بيت أمي على الحصير ، في الصالة ، وأوفر على نفسي هذه القروش ، هذه القروش ، وتأكل كبداً ومكرونة ، وتشرب شاياً على القهوة ، وتدخل سينما ، و ... تطلب شاياً على حسابك ، مثل زمان ، لأي مخلوق ، وتسهر إلى نصف الليل مع أولاد بولاق ، تشرب معهم الشاي العربي المزرود . آه . لو أستطيع أن أذهب إليهم الليلة ، وأغرق معهم في سيرة البنات .. البنات ، والعمل ، ومعارك الفتوات . البرعى ابن دين الـ . لم يعرض عليك ، حين جاء ليصالحك ، أن تذهب معه إلى البيت ، لا تستطيع حتى أن تذهب إلى البرعى لتخبره بالنتيجة ، وتسمر مع أولاد بولاق ، وتعود آخر الليل ؛ لاتقدر أن تمشي إلى بولاق ، ولا أن تركب الترام . ليس معي سوى أجرة الليلة . الليلة . خير لك ألا تذهب ، حتى لا ترى أم ضب بأسنانها الصفر »

وبلغ قنديل مدخل اللوكاندة ، ورفع ساقه اليمنى على درجة المدخل ، وأخذ مفتاح الحجرة (٦) من لوحة المفاتيح السوداء . وطرح لعم علي كل ما بجيبه من قروش . وتوارت خلفه وهو يصعد السلالم : الأريكة الخشبية التي يجلس عليها عم علي ، والمكتب المتقاعد المسود . وببطء ، كانت تتراجع من تحت ساقيه درجات السلم الخشبية الضيقة ، المنحولة الأطراف ، واستمر في نقل ساقيه على بلاط الصالة المدشدش . عن يساره المنافع . وعن يمينه جدار الحجرة (٥) الطويل ، بلا نافذة ولا باب . وأرجع قنديل باب الغرفة (٦) خلفه . وترك الحجرة مظلمة . وأوشك أن ينطرح على السرير ، بالبنطلون الكاكي ، والقميص الحريري الطويل ، غير أنه تذكر أنها ملابس عباس ، الملابس التي استعارها منه منذ أيام ..

« .. سلفة شؤم . لقد ضاعت المكوى منها . لا أملك ما أكويها به قبل أن أعيدها إليه ، يكويها عباس ، تكويها أخته « سكينة » . عباس له بيت ، له أخت حلوة . ويلي من شفتيها الملآنتين بالشهد . رأيتها مرة في السينما . وانتظرتها على الباب قرب نهاية الرواية . مشينا ساعتين على شط النيل في الظلام . كانت تنير الشارع ببياضها . يا وعدي على عودها . لم يكن معي غير قرش واحد . اشتريت لها به ترمساً وحلبه . طلبت (أبو الفرو) . جعلت أني لم أسمعها . حاولت أن أرجع بها بعيداً عن بائع (أبو الفرو) لكنها أخرجت محفظتها الحمراء الصغيرة من فتحة الفستان ، فوق نهديها ، واشترت بقرش . سكينه

عرفت طبعاً أني أفقر من (دبور) لأنها عرضت عليّ ورقة بخمسين قرشاً. رفضت طبعاً ؛ عقلي لا يسمح لي أن آخذ قرشاً من امرأة . عباس يعملها . لكن ، أنا غيره . رجعنا على أقدامنا إلى بولاق . عرضت عليها أن تركب الأتوبيس . قالت لي :

– وانت ؟

قلت لها :

– الليلة القمر طالع ، والمشي في نوره جميل .

قالت لي بعتب :

– وتمشي وحدك ؟ أنا معك للبيت .

آه . لو تقدر أن تتزوج سكينه ، تنسى الدنيا وهمومها . لو أن أمك دعت لك . أمي . أمي . دائماً أمي . بنت الحرام لا تستحق التفكير فيها ، كانت أمي . وكانت طيبة قبل أن تتزوج البرعى . كانت تحبك وحدك . أكاد أجن عندما أتصوره معها في حجرة واحدة . مع رجل غير أبي . سلبها عقلها ابن اللئيمة »

كان قد وقف عارياً الا من ملابسه الداخلية . وانطرح على ظهره فوق السرير ، الذي راح يزيق من تحته . رأسه على الوسادة اللزجة العارية . وجسده المزيل يفوح بعرقه الناضح . وساقه اليسرى ممدة من تحته ، واليمنى مثنية إلى فخذه تروح وتجيء من يمين إلى شمال ، ومن شمال إلى يمين . وعيناه تنظران إلى لا شيء ، في سقف الحجرة ، إلى مصير مبهم من خلال صورة الغرفة في رأسه : الغرفة المثلثة ، المخنوقة بحرارة الصيف ، الضيقة بأسرتها الحديدية الثلاثة ، كأنها هياكل في مقبرة . وأنفاسه خافتة حارة ، تجذب نحوها (الذهب الأحمر) برائحته الثقيلة على الجدران الصفراء . ومن وراء النافذتين المطلتين على الشارع ، راحت أشعة عشرات المصابيح تنبعث ساطعة طليقة ، حتى تجتاز فراغ النافذتين ، فيصيبها الشحوب ، وترسم لأعمدة الأسرة عدداً من الظلال المتراقصة على الجدران الصفراء . وبين حين وآخر ، كانت تلك الظلال تتذبذب وتتقاطع وتظهر وتختفي ، مع حركة السيارات والترام في الشارع الصاخب . ومن وراء الباب المقفل ، وعبر ثقب مفتاحه ، كانت تتسلل رائحة عفنة ، يدفعها هواء نافذة (المنافع) البحرية إلى أنفه .

« .. لا يمكن . لا يمكن لاحد أن ينقذك ، حتى ولا سكينة . سكينة بعيدة كالنجوم . سكينة بالقرش . القرش كل شيء في الدنيا . معك قرش تتزوج سكينة ، وتسكن في بيت ، وتتنزه ، وتضحك ، والدنيا تجري وراءك . بدون قرش ، الدنيا عقدة على قلبك . كانت كل نعمة في يدك لو كان الناظر ... الله يحرقه بجاز . سكينة حلوة ، طلابها كثيرون . حالا تتزوج سكينه وتفر منك ، سكينة . عباس يعزك لكن الفقر باب يحجز بينك وبين أخته . أجرتك في اليوم ١٥ قرشاً . واللوكاندة بطنها واسع . سكينة عاقلة ، تلمك ، وتدبر بيتك بأجرتك وهي مستريحة . بيوت كثيرة في بولاق تعيش على ستة أو سبعة قروش في اليوم . لكن أمها طالعة القلعه بحلاوتها . لا ترضى لسكينة إلا برجل بيته مفتوح بسبعة أو بثمانية جنيهات . سكينة تستحق أكثر يا قنديل . لكن النصيب . آه . لو رجعت أيام زمان . كنت تزوجت سكينة عند مطلع الشمس المعلم صاحب الورشة طماع . طمع في زيادة الانتاج . خصم من كل نجار نصف يوميته ، وأعطاها لعامل جديد . دولة كلها نصب : مكتب العمل ، النقابة ، الحكومة نفسها مع المعلمين . وكلنا في ايديهم ليمون . ليمون !! »

وسمع قنديل عم علي يمسح بلاط الصالة أمام مدخل الحجرة . أحس آنئذ بالوحدة . وبأنه متعب لا يريد النوم أن يغمض جفنيه ، ويريحه من الفكر . وتذكر آنئذ « محموداً » زميله في الغرفة «٦» منذ أسابيع ..

« .. لماذا غاب حتى الآن وأنا في حاجة إليه ؟ لو كان قد جاء الآن كنت أشتكي له الدنيا . أوه . محمود سافر . الله يعافيه . ستذهب للورشة بدون فطور . لو كان محمود هنا لحل مشاكلك وأعطاك ما تفطر به . اتذكر يا قنديل يوم أن كنت على (الحديدة) ؟ . كنت مهموماً من الفقر ، ورجعت ماشياً من خمارة الظاهر إلى اللوكانده . وكنت جائعاً ، حتى أجرة اللوكاندة ليست معي ، ويومها ، بعد كلمة من هنا وكلمة من هناك ، دفع لي محمود أجرة اللوكاندة وثمن العشاء . وسألني عما يضايقني . أنا أحببته جداً . ومحمود كان يتمنى أن يكون معه قرشان ويفتح لي تجارة . محمود يطلب العلم بالجامعة . ابن حلال . لكنه سافر وتركك تغرق . سافر . طبعاً !! . كل واحد يبحث عن نفسه ويشيل مشاكله . حتى محمود يجري وراء قرشه . لسانه حلو صحيح . لكن ما فائدة الكلام ؟ . هه . كلام . كل واحد يبحث عن



بنفسه لا عن الناس : أملك . سكينة . البرعى . أم عباس . حتى أنت . كل واحد : أنا . وملعون أبو الدنيا . سملك . سمك يأكل بعضه . الدنيا مثل البحر . محمود سيفكر في نفسه أو فيك . أنا أحببته جداً . كان معه (شنطة) فيها كتبه وملابسه كذا «غيار» ولا يحافظ عليها . وكنت أقول له :

– نزل (الشنطة) عند عم علي . اولاد الحرام في اللوكاندات كالنمل .

أنا طبعاً لا أمد يدي إليها . صحيح أنني لا أملك سوى غيار واحد . لكن . لا أسرقه . من يسرقه أقطعه بأسناني . تنقطع اليد التي تسرقه . آه . محمود سافر وتركك وحدك للأرجل تدوسك ! !

كله من امي . أمي . والبرعى ، والمعلم . ظلم . ظلم أن تعيش في بلد مقلوب حاله . الموت أحسن . لو كنت خشباً كنت قطعت نفسي بالقدوم . كوبري قصر النيل ، البحر تحته واسع ! ! لكن . ربما لا يراك أحد . لا أريد أن أنقذ من الموت . أريد فقط ، أن تنشل جثتي وتدفن ؛ ربما لا يعثر عليها الناس . لا ؛ الترمواي أفضل . لكن رقبتك ستقطع . والناس ستتفرج عليك ستحرم من عينيك . ولن ترى . ولن تسمع الكلام .و.. سكينة . وأن تمشى . وأن تنام وتصحو . الدنيا عزيزة . كيف تتركها حتى ولو كنت فيها ليمونة . وكانت فيها أمي . والبرعى . والمعلم . السرقة أفضل . اسرق وعش . تسجن . تتشرد . لا يهم . المهم أن تعيش . لكن . من تسرق ؟ المعلم ؟ عنده خزانة حديدية لا تفتح ، اللوكاندة ؟ على الشارع . لا أحد تسرقه . ليست هناك فرصة . فتعش كما يكون . من اللوكاندة للورشة . ومن هناك إلى هنا . هنا ؟ هه . تنجر .و.. سندويتش . وتنام . وتنجر . وتحـ..س .. الد .. ؛ .. يا .. يا .. آااخ ... س »

**

كانت الدنيا ساكنة تماماً عندما استيقظ قنديل قبيل الفجر بقليل : الترام . السيارات . الأرجل الكثيرة . المحلات المغلقة . صمت ساحق ذلك الذي يسود شارع (كلوت بك). مصابيح الطريق . كركرة عربة (كارو) وأرجل الخيل . طرقعة قباقيب العجائز وتمتماتهم في طريقهم إلى المسجد الأحمر . هذه فقط كانت بشائر يوم آخر كسائر أيام قنديل .. كانت ساقه اليمنى مثنية إلى فخذه ، واليسرى ممددة من تحته . كما لو أنه لم يتقلب مرة في نومه .وبدأت ساقه اليمنى تروح وتجيء في كسل وصحصحة أيضاً . وكان في رأسه ذلك الوعى وهذا الشتات اللذان يمارسهما من يستيقظ من نوم عميق . وطوى قنديل اللحاف بين ساقيه وذراعيه . وأخذ يضغط عليه في حنان ..

« .. هيه . يوم آخر . كرهت النجارة . وكرهت نفسي . وحدة . تكرار صرفت كثيراً في أحلامي . كانت معي سكينة . وعندما ضممتها إلي وجدتها المعلمة « فتوحة » .. هه . تخاريف . أشعر بالجوع . كأن قلبي يغور ويسقط في بطني . عصافيرها طائرة . سأذهب بدون فطور . ربما يعطيني صاحب الورشة على الحساب ما أفطر به .منذ زمان .. وأنا لا أشرب شاياً في الصباح . تفرج ، لا أحد يموت من الجوع . يظهر أن أحداً قد نام معك الليلة ، دون أن تدري به .. هس .. هذه الأنفاس ... »

وشبك قنديل أصابعه خلف رأسه ، ورفعها قليلا إلى خلف ..

« .. شخص آخر في سرير محمود . بارد . لماذا ينام مكانه ؟ أوه . يبدو أنه محمود. (توكة) حزام بنطلونه تلمع على ضوء عمود النور . بنطلون محمود البني . هو بالتأكيد . لماذا عاد ؟ فرجت يا قنديل . ما عليك إلا أن تنتظر حتى يسير أول ترمواي في الشارع . سيعطيك ما تفطر به . إنه

– التتمة على الصفحة ٩٤ –



[يولد الانسان أغنى منه يوم يموت]

« يوميات مراهق »

أقسمْ
بالشمسِ تُشرقُ ثم تُعتمْ
بأبي ، أبيكِ ، وبالذي في الصمتِ باسمينا يغمغمْ
ولدي ، بغرس يدي ، بمن في عامه الثاني يُتمتمْ
لم يدر من هي أمه ، وأبوه ، أيهما يُكلمْ
هو والخطيئةُ في دَمي ، نشأا معاً ، واتتْ تتمْ
وترعرعا في ليلِ عارِ قاتل كاللحدِ مظلم
أبلا أبٍ هو أم بلا أمٍ ، يكادُ الشكُ يُلجمْ
كلُّ الصغارِ لهم أبٌ ، فعلام أخطأه المقسِّمْ ؟

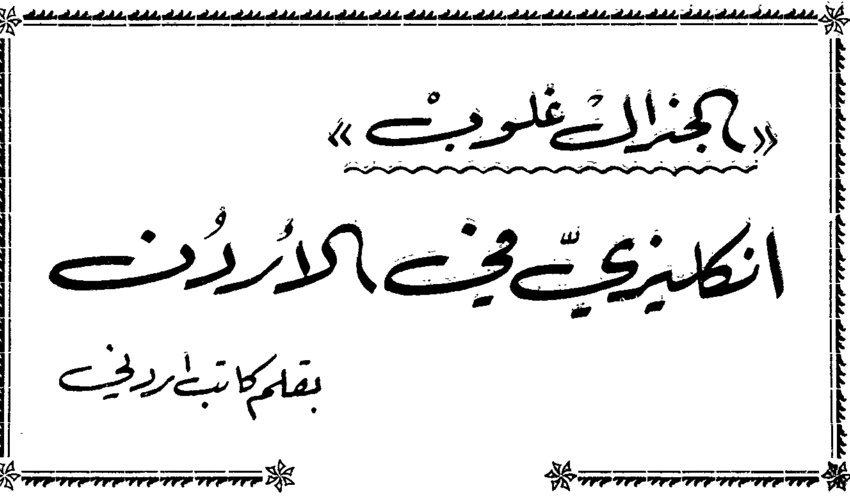
* * *

وتظل في عينيهِ ، تَصرخُ حيرةٌ أبداً تترجمْ
متلفتاً أبداً اليَّ ، اليك في قلقٍ يُهدّمْ
متصفحاً عنا وجوهَ الناس ، يدنو ثم يحجمْ
لا يا صغيرُ ، أصبتَ ، لا، أخطأت أملك لا تُعلمْ
غلتَ الدموعْ بناظريكَ فقلْ لكفكَ أن تلملمْ
لم تفش سرَّ خطيئةٍ زلَّتْ بها يوماً لتأثمْ
عشقتْ أباكَ وخانها ، فهوتْ ، وكان يظنُ أغرمْ

: : : : :

ذاكَ الصغيرُ أنا أبوه ، أيدري أن أباهُ مُجرمْ ؟

بغداد **صفاء الحيدري**



في اليوم الثاني من اذار ١٩٥٦ ، رحل جلوب عن الاردن بعد ان اقام فيه خمسة وعشرين عاماً . وفوجئت بالنبأ كما فوجيء به سواي ، واغرورقت عيناي بالدموع عندما استمعت في الصباح الى صوت الملك حسين في المذياع وهو يعلن نبأ تحرير الجيش العربي الاردني. فقد كنت واحداً من آلاف المواطنين الذين اصابتهم سياسة جلوب بالسجن والاعتقال والملاحقة والاضطهاد واحسست ان كابوساً مخيفاً قد ازيح عن صدور ابناء هذا الجزء الصغير من الوطن العربي ، بل عن صدور الكثيرين من ابناء العروبة في مختلف اقطارها وامصارها .

وقد كتب الي (صديق) انجليزي يعاتبني على الطريقة الصارمة الحاسمة التي اتبعت في انهاء حياة الرجل في الاردن . وبدا الحنق واضحاً في تعليقات الصحف الانجليزية حتى مضت الى اتهام الاردنيين بالعقوق وعدم عرفان الجميل ، لرجل قضى زمناً طويلا في خدمتهم ، وكان من المدافعين العنيدين عن «كيان» الاردن وعن « استقلاله ورفاهيته وازدهاره » . وكتبت لصديقي اوضح له بعض ما خفي عليه وعلى الكثيرين من افراد الشعب الانجليزي ، ووعدت ان اكتب مقالا اشرح فيه « خدمات » الرجل التي يمنون بها علينا . وها قد مر عام حافل على رحيله ، ونستطيع الآن ان نزن الامر بروح معتدلة متجردة ، لا غلو فيها ولا اغراق .

لنبدأ اولا بالكتاب الذي وضعه جلوب « قصة الجيش العربي »(١) عام ١٩٤٨ ، واهداه الى ضباط الجيش العربي « اخواني في السلاح » . ففيه قصته هو الى جانب قصة الجيش العربي . لنقرأ ما كتب :

« عينت ضابطاً في فرقة المهندسين في نيسان ١٩١٥ بعد ان انهيت دورة عسكرية مقتضبة في الاكاديمية العسكرية . وقضيت مدة الحرب العالمية الاولى في ميادين فرنسا وبلجيكا مع بعض فترات في المستشفى.

وبعد ان انتهت الحرب ، بدت لي الخدمة العسكرية رتيبة مملة ، ولذا فقد سررت جداً عندما قرأت في صيف ١٩٢٠ ان الحكومة تعلن عن حاجتها لمتطوعين ضباط للخدمة في العراق . كان عرب العراق في حالة ثورة . ووجدت في هذا فرصة طيبة للمغامرات في بلد غريب ، والاشتراك في المعارك من جديد . فتطوعت وقبلت .

« وبلغت العراق بعد ان كان معظم القتال قد انتهى . وقضيت الشتاء على الحدود الايرانية . وقضيت صيف ١٩٢١ في الرمادي والفلوجه ، ولم يكن عملي يستغرق الكثير من وقتي . فابتعت مهرة وبدأت اتجول في البلاد واطوف بالقبائل النازلة في اواسط الفرات . »

(١) The Story of the Arab Legion - 1948.

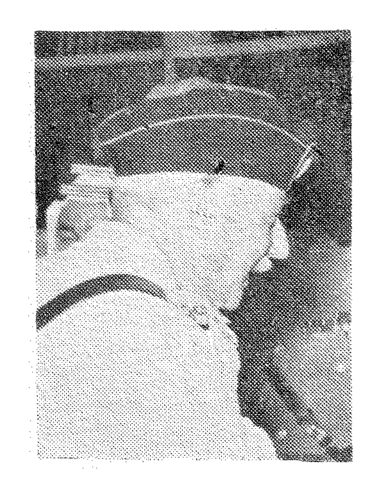
هي البداية بعينها التي بدأ بها من قبله لورنس وجرترود بل وفلبي وبلجريف. انهم يبحثون عن المغامرات في بلاد العرب ، بلاد الف ليلة وليلة ، ويدعون حبها والهيام بها وباهلها . ولكن « ما الحب الا للحبيب الاول » . ان حبهم لبلاد العرب لم يخرج ابداً عن نطاق الدائرة الكبيرة التي يعيشون في فلكها : دائرة المصالح البريطانية، وان ولاءهم الاول لم يكن ابداً عرضة للشك والتساؤل . فاذا ما تعارضت المصالح العربية والمصالح البريطانية، واذا ما اختلفت الاهداف – ظهر عند ذلك بوضوح وجلاء اين يقفون والى اين يتجهون .

من هذه الزاوية يجب ان نفهم الانجليز وغير الانجليز . قد يحبون بلادنا فعلا ، وقد يستطيعون الاقامة بيننا ، ولكنهم يعملون جاهدين لخدمة بلادهم وامتهم من خلال حبهم لنا واستطابتهم الاقامة بيننا ، وكثير من الناس يظنون ان الانجليز متساهلون في وطنيتهم لانهم لا يتبجحون بها دائماً ، ولكن هذا خطأ فاحش ، فالانجليز من اكثر امم العالم تعصباً لقوميتهم ووطنهم، ومن اشد الناس غلواً في الاعتداد ببلادهم وتقاليدهم . ولكنهم على قدر كبير من المرونة وضبط النفس .

اقام جلوب في منطقة الفرات يختلط بالناس ولا يستنكف عن مشاركتهم في مختلف اطوارهم الحياتيه ، واخذ يتعلم اللغة العربية ، فانتبهت قيادة الجيش في العراق الى جهوده هذه، وعين في ربيع ١٩٢٢ ضابطاً في شعبة الاركان. ثم عين ضابط ارتباط في الناصرية . وقال في صدد ذلك « واستطعت في العامين التاليين ان اوطد معرفتي بقبائل النهر وباللغة العربية . وبدأت اتعرف كذلك الى البدو الرحل في الصحراء . »

لقد كانت الخاتون (جرترود بل) يومئذ هي التي تمسك خيوط السياسة الانجليزية في العراق . ان جلوب لا يذكرها في كتابه ولكن لاشك في انه تتلمذ على يدي تلك العانس الداهية، ولاشك في انها استعانت به على انجاز كتابها الذي وضعته في ذلك الحين عن قبائل العراق ، لتسهل به مهمة الاستعمار.

ولم يكن جلوب من اولئك الاجانب الذين يقومون بالدور الذي يسند اليهم فحسب ، بل كان من ذلك النوع الذي قامت على جهوده امبراطورية بريطانيا ، النوع المغامر الذي يريد الدخول الى حياة الشعوب الاخرى من الابواب العريضة ، وهذا لا يتاح لاجنبي الا اذا تنازل عن كبريائه ، وتعامل مع الناس الذين يحل بينهم كما يتعاملون هم مع بعضهم . لقد ارتدى اللباس البدوي ، واخذ يتحدث باللهجة العامية ، وصار ينام كما ينامون ويأكل كما يأكلون بل يحل المشاكل التي تعرض له حسب عادات البلاد وتقاليدها ، لا حسب


الجنرال غلوب

ما توحي له العقلية البريطانية .

وقرأ عن رحلات بركهاردت ودوتي وبلنث وبلجرين في البلاد العربية واراد ان يحذو حذو اولئك الرحالين . ففي ١٩٢٤ طلب اجازة وقطع الصحراء السورية من العراق الى شرقي الاردن ، على امتداد مساحة لاتقل عن خمسمئة ميل ، واستغرقت الرحلة شهراً كاملا ، وكان برفقته خادم واحد ، فابتاع جملين لهذا الغرض وارتدى ملابس البدو ، وسار باحثاً عن المغامرات .

وصادفته مصاعب كثيرة في الطريق ، وكاد يفقد حياته ، ولكنه بعد شهر من الزمن بلغ غايته ، فنزل في ضيافة قبيلة بني مخر الضاربة في مشارف عمان . وقال ان استقباله في الاردن كان يحمل دلائل لا تسر ، اذ جاء الى بيت الشعر الذي كان يحل فيه ، ضيوف آخرون من عمان . ودار بينه وبينهم الحديث التالي :

جلوب : ما هي الانباء الاخيرة ؟

الزائر : انت انجليزي ، ولابد انك على معرفة تامة باحداث العالم .

جلوب : هذا مستحيل بالنسبة لي . لقد قضيت شهراً وانا اقطع الصحراء على ظهر بعير ، بينما انت جئت بالسيارة من عمان .

الزائر : اوه ، في هذه الحال لا بأس من ان احدثك . اننا نسمع ان الانجليز قد حنثوا بوعودهم مرة اخرى ، كما هي عادتهم .

وكان الحسين بن علي صاحب الثورة العربية يزور الاردن في ذلك الحين ، فذهب جلوب لزيارته في الشونة بغور الاردن . وعندما حدثه عن سفرته عبر الصحراء ، عبر الملك العظيم عن اعجابه بقوله :

والله هذا بدوي !

وعاد جلوب الى عمله في العراق ، ثم استقال في ١٩٢٦ من الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني ، وعين في وظيفة مدنية مع حكومة العراق بصفة مفتش اداري . وكان مركز اعماله في منطقة الفرات .

ولابد ان نجاحه في التعامل مع البدو والقبائل واختباراته الواسعة خلال عشر سنوات – قد حازت على انتباه روسائه المسؤولين ، فعرض عليه في خريف ١٩٣٠ ان ينتقل الى شرقي الاردن كي يتولى مهمة القضاء على عادة الغزو بين قبائل البادية ، خصوصاً تلك الغزوات التي كانت تجري بين قبائل بدوية من الاردن وقبائل بدوية من السعودية ، والتي كانت تقلق بال الحكومة البريطانية ، لانها من جهة تعهدت على نفسها بحماية الاردن من الاعتداءات الخارجية ، ومن جهة اخرى كانت تتلقى الاحتجاجات المتكررة من ابن السعود . وقبل جلوب العرض وجاء الى عمان .

ونزل في دار المعتمد البريطاني هنري كوكس . وقال في كتابه انه اعد ميزانية تكفي لتجنيد قوة قوامها تسعين رجلا من ابناء القبائل ، ثم ابتاع سيارة واتجه نحو مناطق البادية .

ولم تكن مهمة جلوب بسيطة ، ولم يكن طريقه مفروشاً بالريحان ، فان قبائل الحويطات التي توجه اليها وهي تقطن في المنطقة المتاخمة للحدود السعودية كانت تنظر الى الحكومة نظرة عداء ، اذ ان هؤلاء البؤساء كانوا يهاجمون من قبل البدو السعوديين وتنهب مواشيهم فلا تفعل حكومة الاردن شيئاً من اجل استعادة اموالهم ، فاذا قاموا بغزوات مقابلة لاسترداد ما فقدوه ، لاحقتهم قوة حدود شرق الاردن البريطانية وطاردتهم وعاقبتهم .

ذهب جلوب الى البادية وحده مرتدياً الملابس البدوية . ولم يحاول في باديء الامر ان يستعمل صلاحيته الرسمية . جاء الى البدو من الباب الواسع ، فكان ينزل في بيت شيخ العشيرة وبطبيعة الحال يقدم له الهدايا التي يكون جلبها في سيارته من قهوة او ارز وسكر او نقود او ملابس . ويجتمع رجال العشيرة في المساء في بيت الشعر عند الضيف فيشاركهم الحديث ويتذوق اخبارهم ويسأل عن كل ما يثير اهتمامهم ، ويحدثهم بدوره عن بدو العراق وعن شمر والقبائل السعودية المجاورة للعراق ، ثم يقول لهم انه جاء لمساعدتهم ، وان استمرار الغزو سيؤدي بهم الى الدمار . ويبسطون له شكواهم ، واهمال الحكومات لهم ، فيعدهم بالعون المادي وبالحماية من الغزوات الخارجية ، ويقول لهم انه على استعداد لتسليح عدد من رجالهم اذا قبلوا الانتظام في سلك الجندية تحت قيادته .

ووصف جلوب في كتابه طرفاً من حياته آنذاك فقال « كنت اجلس في بيت الشعر ، واقضي طرفا كبيراً من الليل وانا اتحدث معهم ، حتى اذا انتصف الليل ، غادرت الخيمة ولففت نفسي بالفراء ولجأت الى منخفض بين الرمال كي انام في العراء »

وحدثني كثيرون ممن اختلطوا به في تلك الفترة فقالوا انه كان يقول للبدو انه بدوي مثلهم ، بل كان يمضي في تقايدهم الى ابعد الحدود ، حتى ليأخذ احيانا في البحث عن القمل بين ملابسه كي يرمي به في النار على مرأى من الجميع.

ولكن الحويطات كانوا يعتقدون ان الانجليز وابن السعود يريدون تحطيمهم بسبب معاونتهم الفعالة لجيش فيصل ، وكانت ثقتهم معدومة كلياً بوعود الانجليز وكل من يتحدث باسم الانجليز . ورفضوا ان ينخرطوا في سلك الجندية مع « ابو حنيك » (١) واستعان لفترة من الزمن بقوة حدود شرق الاردن التي يقودها ضباط بريطانيون وتخضع لاوامر المندوب السامي على فلسطين . كما استعان بالطائرات البريطانية على ملاحقة بعض الافراد في جبال الطبيق لارهاب بقية القبائل .

واول من انخرط مع جلوب في سلك الجندية عبد زنجي من بادية السعود ، ثم انضم اليه اثنان من بدو العراق كانا قد خدما معه في العراق ولحقا به الى الاردن ، اما الرابع فرجل من قبيلة شمر ، ثم التحق به ثلاثة من اواسط صحراء العرب .

وتراخت مقاومة الحويطات واخذت شكوكهم تتبدد تارة بالاغراء وتارة بالارهاب ، فلم يطل به الامر واخذ بعض افرادهم ينخرطون في سلك قوة البادية .

وقضى ستة اشهر في منطقة الحويطات حتى استتبت له السيطرة وتوقفت الغزوات ، ثم تحول الى الازرق وقام باخضاع البدو النازلين على اطراف جبل الدروز وهم المعروفون بأهل الجبل .

وتباهى جلوب بما حقق في اطراف الصحراء من سيطرة حكومية لم يستطع الاتراك ان يحققوا شيئاً منها خلال حكمهم الطويل ، بل ان الاتراك كانوا يدفعون الاتاوات الى زعماء العشائر كي يسمحوا لقوافل الحجاج بالمرور دون ان يعتدوا عليها .

وحق لجلوب ان يتباهى بانه تنازل عن عجرفته وعن « مدنيته » وعاشر البدو معاشرة تامة يأكل من طعامهم مهما كان قذراً فلا يتأفف او يتذمر بل يشاركهم اعجابهم بلذة طعمه . وكانوا احياناً يعجنون الدقيق ويشوونه على نار القش فيمتزج بالرماد (والبدو يسمونها عربود او قراصة) فيأكل معهم من هذا ثم يلف نفسه بفروته وينام الى جانبهم . وهكذا حاز على ثقتهم . وعندما بدأوا يفتحون طريقاً للسيارات في المناطق الصخرية بالجبل ، بدا هو ينقل الحجارة فاقتدى به جنود البدو . ولو اصدر لهم اوامر بنقل الحجارة

---

(١) اصيب جلوب بطلق ناري في جانب وجهه فتشوه حنكه . ومن هنا اطلق عليه البدو لقب « ابو حنيك » .

ووقف يتفرج عليهم لما اطاعوه لان البدو كانوا يومذاك يحتقرون الاعمال اليدوية ويستنكفون عن القيام بها لئلا يهبطوا الى مستوى « الفلاحين » .

ان الامبراطورية البريطانية بنيت على كواهل رجال من هذا الطراز .

ولكن العبرة بالنتائج . فان مصالح بريطانيا كانت تقتضي استتباب الامن في الصحراء تمهيداً لمشاريعها . ولم يكتم جلوب شيئاً من هذا فقال : «ولقد كانت جهودنا في هذه المنطقة ذات فائدة كبرى ، اذ سرعان ما بدأت شركة بترول العراق تمد خط الانابيب بين حيفا وكركوك . وامتد الخط على طول الصحراء دون ان يحدث حادث واحد من رجال القبائل ، وكانت الغزوة الاخيرة في الاردن قد وقعت في تموز ١٩٣٢ بين قبائل اردنية وسعودية .

وفي ١٩٣٢ غدا مساعداً لقائد قوة الجيش العربي ، ثم غدا قائداً للجيش في ادار ١٩٣٩ فحل محل الكولونيل بيك الذي احيل على المعاش .

وعندما اعلنت الحرب العالمية الثانية بدأ جلوب ينفذ مرحلة اخرى خدمة لمصالح البريطانية بطبيعة الحال . ففي المرحلة الاولى عمل على استتباب الهدوء في البلاد رغم الغليان الثوري الشديد الذي كان مستمراً في فلسطين ، وعندما تسللت مفرزة من الثوار عام ١٩٣٩ الى جبل عجلون ووادي اليرموك قامت قوات الجيش العربي بمقاومة الثوار حتى تم رحيلهم عن الاردن ، وقتل في تلك المصادمات الضابط الانجليزي (مكادم) الذي كان يعمل مساعداً لجلوب .

اما المرحلة الثانية فقد كانت اكثر ايجابية بالنسبة لمصالح بريطانيا ، فلم يعد يكفي الاردن ان يبقى هادئاً ساكناً ينفذ اوامر الاستعمار بكل دقة وامانة بارخص الاسعار ... بل يجب ان يعمل الاردن خارج حدوده في تنفيذ هذه الاوامر .

واعلن الامير عبدالله ان الاردن يضع جميع امكاناته تحت تصرف بريطانيا واكد مراراً وتكراراً ان العرب لا يتخلون عن اصدقائهم في اوقات الشدة .

ويجب ان نعترف ان موقف الامير عبد الله يومذاك لم يكن موقف خيانة ، بل انه كان يعتقد اعتقاداً جازماً ان بريطانيا ستخرج ظافرة من الحرب وان مصلحة العرب تقتضي منهم الوقوف الى جانبها لعلهم يستطيعون الاستفادة من ثبات اخلاصهم ووفائهم لاصدقائهم .

وعرض الاردن خدماته فقالت بريطانيا ان الحرب لن تتعدى ميدان اوروبا. ولكن انهيار فرنسا وقيام حكومة فيشي نقل الحرب فجأة الى الشرق ، اذ جاءت طلائع الالمان الى سوريا ولبنان . وبدأ الانجليز يستعدون لمجابهة الاحتمالات . وفي ١٩٤١ حدث الانقلاب الوطني في العراق فحاول الانجليز انزال قوات عسكرية في البصره تزيد عن القوات التي تسمح بها المعاهدة لكي تسحق قادة الانقلاب الوطنيين ، فاضطر هؤلاء الى مقاومة هذه المحاولة وحاصروا قاعدة الحبانية قريباً من بغداد . وصممت الحكومة البريطانية على تأليف حملة مستعجلة لفك الحصار واخضاع العراق ، فطلب قائد الحملة الى جلوب ان يرافق الحملة بصفته « ضابطاً سياسياً » . ولكن جلوب اصطحب معه كتيبة المدرعات في الجيش العربي .

وتحدث المتحدثون عن انه جمع الجنود العرب في المحطة الرابعة (H 4) وقال لهم ما خلاصته : يا ابنائي واخواني . ان صديقتنا بريطانيا التي تمدنا بالسلاح والمال، تريدأن تعاون الوصي على عرش العراق في العودة الى قاعدة ملكه الشرعي ، تلك القاعدة التي حال الغاصبون دون بقائه فيها كي يجعلوا من العراق مستعمرة المانية . أن بريطانيا امدتنا بالمال والسلاح وهي التي تنفق على جيشنا . وهي صديقتنا الوفية فهل يقبل العرب الاشاوس ان يتخلوا عن اصدقائهم ؟ »

وروى بعض من حضر ان جلوب بكى عند ذاك بدموع التماسيح ، لاستثارة

عطف البدو ، فتحمس هؤلاء واعلنوا انهم سيتبعونه حيثما اتجه .وأباح لهم جلوب – على سبيل التشجيع – ان ينهبوا محلات سبني، وهو المتعهد البريطاني في شركة بترول العراق ، فنهبها جنود البدو ، وعوض جلوب الخسارة مضاعفة لاصحابها . الا تبرر الغاية الوسيلة ؟

وفي تلك الفترة حدث حادث فذ له دلائل انسانية وقومية عميقة . فان بريطانيا كانت قد انشأت قوة عسكرية باسم قوة حدود شرق الاردن يقودها ضباط بريطان . وساق البريطانيون هذه القوة نحو العراق للقتال فيها .ولكن قسماً كبيراً من افرادها وضباطها تمردوا على الأمر الصادر ورفضوا مقاتلة اخوانهم في العراق وعادوا فعلا الى مركز القوة في الزرقاء فسرحتهم قيادتهم ، وسرت روح التمرد في جميع افراد القوة فرفضوا المقاتلة في العراق او ضد اية قوة عربية اخرى .

لعل سائلا يود معرفة السبب الذي حدا بافراد « الجيش العربي » الى المضي قدماً لمقاتلة اخوانهم، وبافراد « قوة الحدود البريطانية » الى التمرد على هذه الاوامر ! والسبب واضح جداً وهو ان افراد القوة التي يقودها جلوب كانت من البدو ابناء القبائل الصحراوية الذين ما يزالون يعمهون في تقاليد الجاهلية الضيقة ولا يعرفون شيئاً عن القومية والوطنية والاستقلال ولايهمهم الا الكسب الشخصي ، ولاسباب اخرى سأشرحها فيما بعد . اما افراد قوة الحدود فهم من ابناء المدن والقرى العربية الذين نالوا شيئاً من التعليم والثقافة والذين كانوا يعون – الى حد ما – آمال امتهم العربية وآلامها .

واستدعي جلوب لمقابلة الجنرال ولسون في القدس ، فسأله هذا عما اذا كان الجيش العربي مستعداً للاشتراك في معركة العراق . فاجابه جلوب قائلا : ان الجيش العربي مستعد لمقاتلة اي انسان .

وهكذا سارت القوة العربية تحت قيادة جلوب في طليعة الحملة البريطانية التي زحفت من فلسطين . وقدمت هذه القوة الصغيرة خدمات عظيمة للحملة التي احتلت بغداد وقضت على ثورة العراق التحررية . واعترف الجنرال كلارك بتلك الخدمات في رسالة منه للأمير عبد الله . وقال جلوب في كتابه ان القائد العام البريطاني الجنرال ولسون صرح فيما بعد بانه لولا وجود الكتيبة العربية لما استطاعت الحملة الزاحفة ان تحتل بغداد .

وبعد الانتهاء من حملة العراق اشترك الجيش العربي في العمليات العسكرية

للاستيلاء على سوريا . واعترفت القيادة البريطانية بالمشاركة الفعالة التي قدمها ضد قوات فيشي الضالعة مع المحور . وقال جلوب ان اوامر الحكومة البريطانية صدرت اليه والى المعتمد البريطاني كركبرايد كي يقوما بالاتصالات اللازمة مع بعض سكان سوريا تمهيداً لقدوم الحملة البريطانية الزاحفة . فعهد الى كركبرايد ان يتصل بالدروز . بينما عهد الى جلوب بالاتصال برجال القبائل الضاربة شرقي خط دمشق حمص حماه .

ان جلوب لم يكن يتصرف كجندي في خدمة حكومة عربية ، بل كان ينفذ تعليمات حكومة بريطانيا ويشارك في ادارة حركة الاستخبارات . وحجته بطبيعة الحال ان مصلحة العرب والانجليز تلتقي . ولكن هل يمكن لأي امرئ ان يخدم سيدين او ان يعبد الهين في آن واحد ؟

ودهشت القيادة البريطانية للمهارة والبسالة التي ابداها الجنود العرب ، فاقترحت على الامير عبد الله ان يسعى لزيادة عدد قواته ، فرحب الامير بالاقتراح وسرعان ما بدأ التجنيد والتدريب ، وكان معظم الجنود من افراد البدو ، بل ان الكتائب الآلية كانت لا تضم الا البدو . وكانت الخطة للمستقبل انه اذا هاجم الالمان تركيا ، اعد الحلفاء لمقابلتهم جيشاً في العراق وآخر في سوريا . فاذا اضطر الجيشان للتراجع قام الجيش العربي الاردني بحماية جناحيهما في صحراء سوريا ، ومناوشة جناحي العدو وتخريب خطوط مواصلاته .

وعندما تقدم رومل الى العلمين ، تحرك الجيش العربي الى سيناء ، وتحركت قوة طلائعية الى الصحراء الغربية واشتركت في المناوشات وراء خطوط الالمان .

وعندما غزا الحلفاء اوربا ، اعد الجيش العربي نفسه للاشتراك في المعارك وطار جلوب الى القاهرة لاستصدار الاوامر هذه الغاية . ولكن قيل له هناك :

— ان القسم الاعظم من مساعدات الاعارة والتأجير الى روسيا لا تزال تمر على طرق البلاد العربية ، وطرق المواصلات مع الهند لا تزال تمر من تلك البلاد ، وانابيب البترول الحيوية تمر من هناك . انه من الضروري الاحتفاظ بقوات كافية في الشرق الاوسط . واذا توجه الجيش العربي الى اوروبا فمن الضروري ان تحل محله قوات بريطانية مماثلة . اليس من الافضل ان تبقى القوات الاوروبية في اوروبا والقوات العربية في بلاد العرب ؟

وفعلا توزعت سرايا الجيش العربي وكتائبه لحراسة المعسكرات الهامة في جميع بلدان الشرق الاوسط : في فلسطين وايران والعراق . وكان اولئك الجنود يقومون على حراسة انابيب البترول في الصحراء والموانىء على السواحل ويحرسون القطارات العسكرية بين القاهرة ودمشق . فادوا للانجليز خدمات لا تقدر .

انتهت الحرب العالمية الثانية ووافقت بريطانيا على « استقلال » شرق الاردن مكافأة له على بلائه وولائه . ومنذ عام ١٩٤٥ قدرت بريطانيا لجلوب ان يقوم في هذه المرحلة الثالثة بدور اكثر خطورة وفعالية من الادوار التي قام بتنفيذها قبلا .

لقد خرج الجيش العربي من الحرب وهو قوة محاربة ممتازة ، وكان جلوب واعوانه من الضباط البريطانيين يقومون بقيادة هذا الجيش والتصرف بمقدراته . ويجب ان لا يغيب عن بالنا ان ميزانية الجيش العربي والتي كانت تزيد دائماً عن ميزانية الحكومة الاردنية — كانت دائماً وابداً تحت تصرف الانجليز ولم تكن الحكومة الاردنية تعرف شيئاً عن كيفية انفاق تلك الملايين .

الجيش عربي ولكنه لا يخدم اغراض العرب . فالاموال انجليزية والمسؤولون انجليز وهم يتصرفون كما يحلو لهم ، فالرتب العالية لمن يتقون بهم ويركنون اليهم ، وويل لمن عصى امراً او خالف رغبة ، فاما الطرد من الخدمة واما الاهمال المطلق .

وجاءت حرب فلسطين ، وظهر الانجليز على حقيقتهم اذ اشترك بعض الضباط الانجليز ممن كانوا يخدمون سابقاً في الجيش العربي — في المعركة الى جانب اليهود . ولن انسى طيلة عمري ان قوات الجيش العربي التي بدأت زحفها نحو فلسطين في منتصف ليلة الخامس عشر من ايار ١٩٤٨ — م تصل الى القدس الا في اليوم الثامن عشر من ايار . ثلاثة ايام كاملة قضاها الجيش على طريق معبده خالية من اليهود لكي يقطع مسافة تقطعها السيارات في ساعتين او ثلاث وهو الجيش نفسه الذي تفاخر جلوب بانه قطع المسافة من الاردن حتى بغداد عبر الصحراء في ١٨ ساعة فقط . ولكن شتان بين مشرق ومغرب . لقد كان الاعداء في ١٩٤١ هم الاحرار العرب . اما في ١٩٤٨ فهم اليهود . ولا احسبني اغالي اذا قلت ان الجيش العربي كان بمقدوره بلوغ القدس في صباح ١٥ ايار نفسه ، وانه كان بمقدوره احتلال القدس كلها في الثلاثة الايام التالية . لان قوة المناضلين العرب في القدس كانت ما تزال حسنة بل جيدة . ولكن جلوب تصرف يومئذ كما تصرف الروس على ابواب وارسو ، عندما سمحوا للالمان بتحطيم الثورة البولندية في داخلها وهم لا يحيرون ساكناً على ابوابها .

وطلب الى الملك عبدالله تغيير قيادة جيشه فيما بعد ، ولكنه اجاب : ان الفارس لا يستطيع ان يغير فرسه خلال المعركة .

وسلمت الرملة واللد الى اليهود دون قتال . ثم تسلموا ايلات على خليج العقبة كما يتسلم المرء كأس مرطبات . وكذلك تسلموا المثلث العربي بعد نزوح الجيش العراقي عن فلسطين .

لنأخذ مثلا واحداً عن تصرفات جلوب . لقد اخلى اليهود في ١٥ ايار مستعمرة (كاليه) على البحر الميت قرب اريحا ، وكانوا ينتجون فيها البوتاس . وفي كاليه هذه كانت تقوم آلات ضخمة حديثة لاستخراج البوتاس واعداده . فماذا حدث ؟ لقد نهبت المستعمرة ونقلت الآلات فبيعت في اربد وعمان ، وقيل ان الذين اشرفوا على النهب والبيع هم من ضباط الجيش في ذلك العهد . ولا يمكن قطعاً ان يتم عمل كهذا الا باطلاع جلوب وتشجيعه ، في الوقت الذي كانت حماية هذه المستعمرة لا تحتاج الا لبضعة جنود او حراس . ولو بقيت الآلات على حالها لاستطاع الاردن انتاج البوتاس منذ ١٩٤٨ ، ولاستطاع الافادة من ذلك عدة ملايين من الدنانير .

ومضى ابو حنيك في تنفيذ السياسة التي رسمت له في لندن . وكانت هذه السياسة ذات ثلاثة وجوه :

الاول – ان تكون الاردن حصناً بريطانياً مطلياً من الخارج بطلاء عربي للتمويه . وان يستعمل هذا الحصن لتمزيق وحدة العرب وتهديد كيانهم ودولهم وشعوبهم في بقية الاقطار العربية الاخرى . وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً باهراً حتى اليوم الذي طرد فيه جلوب . اذ كان الاردن فعلا هو البعبع الذي تخيف به بريطانيا بقية الدول العربية وعلى الاخص سوريا الشقيقة – الأم .

الثاني – ان تحفظ سياسة التوازن بين الدول العربية واسرائيل . فاذا هاجمت اسرائيل احدى الدول العربية الاخرى بقي جيش الاردن ساكناً . واذا فكرت الدول العربية الاخرى بمهاجمة اسرائيل لم تستطع الاعتماد على جيش الاردن . واذا هاج الرأي العام في الاردن على هذا الموقف المائع قامت اسرائيل بهجمات موضعية – كما حدث في قبيه ونحالين – كي تغتنم بريطانيا الفرصة وتعلن عن تمسكها بالمعاهدة الاردنية وعزمها على حماية الاردن من العدوان الخارجي ولتنذر اسرائيل بعدم تكرار امثال هذه الهجمات . وذلك لكي تدعم رصيد دعايتها لدى العرب ولكي تشعر الاردنيين انهم تحت رحمتها ، وان مصيرهم مرتبط بالمعاهدة بينهم وبين بريطانيا .

لقد دافع جلوب في كتابه عن وجهة النظر العربية في فلسطين دفاعاً جيداً ، وقال ان بريطانيا لم تتخل عن ديموقراطيتها الا في مواجهة هذه المسألة . ولكن جلوب لا يستطيع ان يخدعنا بوجهة نظر على صفحات الورق في الوقت الذي نراه يعمل فيه جاهداً على تنفيذ سياسة دولته بكل امانة واخلاص ، رغم انها سياسة ممالئة كلياً لما تقتضيه مصالح الغزاة اليهود .

الثالث – ان يجعل الاردن في حالة قبول دائم لكل الفروض التي تفرضها المصلحة الانجليزية . فهو يسيطر على الجيش سيطرة فعلية تامة . وهو يتدخل في الصغيرة والكبيرة من شؤون البلد . وهو يلعب بالحكومات الاردنية كما يلعب الطفل بالدمى . وقد وجدت بين اوراقه – بعد رحيله – قائمة كبيرة باسماء الاشخاص الذين كان يشتري ولاءهم لانجلترا بالنقود ، النقود التي كان مفروضاً فيه ان ينفقها على تسليح الجيش العربي .

ان الطريقة التي كان يتبعها في اخضاع الاردن لم تكن سراً مغلقاً على احد . حتى ولا على الملك عبدالله نفسه . ولكن الملك عبدالله كان يعتقد مخلصاً ان مصلحة الاردن هي في التمسك ببريطانيا . فكان يتظاهر بالرضى عن كل شيء . وكانت تمر به فترات لا يتمالك فيها غضبه وغيظه . فقد روي ان بدوياً اعترض مرة طريق سيارته – وهو امير – واخذ يلوح بردائه ليستوقف السيارة ، فامر الامير سائق السيارة ان يقف بها . وسأل البدوي عما يريد ، فقال البدوي : الا تستطيع يا شيخ ان تدلني على بيت الصاحب ؟ (الصاحب لقب آخر كان يطلقه البدو على جلوب) فغضب الامير غضباً شديداً وشتم الرجل وجلوب وقال : ابلغ الأمر حتى اخذ البدو يسألونني في بلادي عن بيت هذا الاجنبي ؟

كان جلوب المسؤول الوحيد المباشر عن منطقة البادية كلها ، وهي المنطقة الممتدة الى الشرق من خط يبدأ من الرمثا فالمفرق فالزرقاء فمادبا فالكرك فالطفيله فمعان فالعقبه ، وهي تزيد في مساحتها عن نصف مساحة الاردن كله . وكان يحكم هذه المنطقة حكماً مباشراً بواسطة قوة البادية وافرادها من البدو انفسهم . فهو الذي يوزع الاموال ويجند الجنود ويفصل في القضايا ويوزع الاراضي ، وهو الحكم الاخير في كل مشكلة تعرض . وهو الدولة كلها بالنسبة لسكان هذه المنطقة الواسعة لا يدينون بالولاء لشخص سواه .

وكان جلوب يلحق بقيادته جميع قوى الدرك والشرطة في الاردن ، خلافاً لما جرت به العادة في البلدان الاخرى من الحاق هذه القوى بوزارة الداخلية . وكلنا يعرف ان من يسيطر على جهاز الشرطة يسيطر على كل صغيرة وكبيرة في البلاد . لقد كانت الشرطة في عهده اشبه بالجستابو النازية وهدفها ارهاب المواطنين لا حمايتهم .

اما اعتماد جلوب على البدو فقد كان عظيماً ، فالكتائب الآلية مؤلفة منهم لا يسمح للمجندين من اهل القرى والمدن ان ينضموا الى تلك الكتائب . وكان يشعر البدو دائماً انهم اقرب من سواهم ، ويشاركهم مقتهم الغريزي للحضر ،

مؤكداً لهم انهم هم العرب الخلص الذين لم تفسدهم شرور المدينة كما افسدت سواهم . وقد سمعت جندياً من البدو خلال مظاهرات حلف بغداد يقول مخاطباً أهل البلده .. «والله ان الجهاد فيكم حلال . » لان جلوب كان دائماً وابداً يسمم افكارهم من هذه الناحية بمختلف الوسائل والاساليب . وقدحدث في الانتخابات الصورية التي جرت في ١٦ تشرين ثاني ١٩٥٤ ان تمركزت في عمان كتيبة من الحضر كي تسيطر على الحالة وتمهد السبيل امام مرشحي جلوب . وثارت ثائرة الشعب ومشت المظاهرات الصاخبة ، ولكن الكتيبة لم تطلق النار كما صدرت اليها الاوامر ، فسحبت في الحال وجيء بكتيبة من كتائب البادية بدلا منها وسرعان ما اخذت ساحات عمان تصطبغ بالدماء . وتساقط في ذلك اليوم عشرات الشهداء . ونجح المرشحون المرغوب فيهم من جلوب . اما قائد الكتيبة (محمود موسى) فقد نقل من ملاك الجيش الى ملاك الحرس الوطني وهو عقاب بسيط بالنسبة لما نزل بغيره ممن كانوا يرفضون اطاعة الاوامر القاضية بتقتيل اخوانهم .

اما اسباب اطاعة البدو العمياء فكثيرة . واهمها انه كان ، بصفته المسؤول عن شؤون البادية ، يعمل دائماً على كسب ولاء البدو لشخصه لا للحكومة الاردنية . والسبب الاقتصادي هام وحاسم فالبدوي الفقير الجاهل الذي لا ينعم بالكفاية من الغذاء والكساء – يجد نفسه فجأة جندياً يتقاضى راتباً مضموناً بالاضافة الى الكساء التام والطعام المنتظم الجيد . فيعتاد رويداً رويداً على هذا الرخاء النسبي ويضطر لاطاعة ولي الامر كي يحتفظ بهذا المستوى المعيشي المرتفع الذي اعتاد عليه ، والذي لا يمكن ان يجد بديلا له اذا انفصل عن الجيش الا فيما ندر من الاحوال . اما ابن القرية فلم يكن مضطراً الى هذا الحد بسبب اعتياده على العمل في حقوله وما شابه ذلك من الاعمال العادية والحرف المهنية . وبسبب حياة اهله القائمة على اسس اقتصادية اكثر ثباتاً واستقراراً . ولا يجب ان يتبادر الى الذهن ان جنود البادية هم من بدو شرق الاردن فقط . فان الكثيرين منهم كانوا ياتون من اطراف اليمن والصحراء العربية والعراق للانخراط في سلك الجيش سعياً وراء الكسب . وهؤلاء لا يهمهم بطبيعة الحال سوى اطاعة الاوامر اطاعة عمياء . فكانوا في حالهم تلك اشبه بالجنود المرتزقة .

واذكر انني عندما كنت في المعتقل (٢٤ شباط ١٩٥٦) ان الميجر سوتر قال لي بالحرف الواحد :

– ان خطأ هزاع المجالي هو انه رفض اصدار الامر للجيش لاحلال الهدوء. ولو تسلح بقدر اكبر من الجرأة واعلن الاحكام العرفية ، لاستطاع الجيش اخماد الاضطراب في يوم واحد ، ولاستطاعت الحكومة توقيع حلف بغداد في هدوء شامل . وان التضحية ببضعة قتلى لابد منها في هذه الاحوال .

وقال بصدد (جرأة) حكومة سمير الرفاعي في اعلان الاحكام العرفية :

– لو استمر الاضطراب يومين آخرين لانقسم الجيش العربي على نفسه ، ووقف قسم منه الى جانب الحكومة ، والقسم الآخر الى جانب الغوغاء (the Mob)

ومن هنا كان حرص المسؤولين عند اعفاء جلوب من منصبه ان لا يسمحوا له بالاتصال باحد ، خشية ان يلعب بعقول بعض قطعات الجيش ويثير في البلد فتنة دامية .

وهذه سياسة فرّق تسد في اجلى مظاهرها وابشع صورها .

ومما اقنع المسؤولون بخطر جلوب انه صرح في اجتماع عقد على مستوى عال لبحث الموقف العسكري بانه لابد للجيش العربي من ان ينسحب من الضفة الغربية دون قتال اذا عزم اليهود على شن هجوم شامل على الاردن .

ومن اعماله انه كان دائماً وابداً يصور الحركة الوطنية في الاردن بانها حركة شيوعية هدامة تشويهاً لها في الداخل والخارج . وكان سيف هذه التهمة مصلتاً دائماً على رؤوس الاحرار ، بالرغم من ان اكثريتهم الساحقة لم تكن شيوعية ولا ترغب في الشيوعية .

ونحن نجد في كتابه دليلا جديداً على الروح الاستعمارية التي تسيطر عليه اذ يقول :

– تزوجت في ١٩٣٨ وفي خريف ١٩٣٩ ولد لنا صبي في القدس . ونصحنا البعض ان نسميه دافيد لانه ولد في مدينة الملك داود . ولكننا عزمنا على ان نسميه جود فري ، على اسم جود فري دي بوالون ، اول ملك صليبي للقدس . ولكن عندما عدنا به الى عمان ، اعلن صاحب السمو (الامير عبد الله) انه يجب ان يحمل اسماً عربياً وسماه فارس . وهو اسم يتفق تماماً مع اسم جود فري . ومنذ ذلك الحين صرت ادعى « ابو فارس »

وهذه نبذة اخرى من كتابه . رجاء ان تزيد من عزم الداعين الى الوحدة العربية :

– وكما ان الصهيونيين في فلسطين يعتبرون الجامعة العربية خطراً يهدد استمرار كيانهم ، كذلك كان الصليبيون في القرن الثاني عشر يرون في اتحاد سوريا ومصر كابوساً مخيفاً . ولقد استطاعت المملكة اللاتينية في القدس ان تعيش خلال الفترة التي كانت فيها مصر غير متحدة او متصلة مع سوريا . وقد انشأ الصليبيون ولاية الاردن الشرقية وعاصمتها الكرك كي يحولوا دون اتحاد القطرين .

وهذه النبذة الاخرى :

– ان اسم « عربي » يطلق اليوم بدون تفريق على المثقف اللبناني كما يطلق على راكب البعير في الصحراء. وهناك قليل من العطف المتبادل بين الطرفين؛ فان الواحد منهما لم يدرك بعد القوة التي يمكن ان تنشأ عن اتحادهما : تجميع ذكاء سكان الساحل بما فيه من دماثة ودهاء مع فروسية البادية المتاججة .واذا قدر لهاتين القوتين ان تتحدا ، فمن المحتمل ان تتجدد على ايديهما امجاد العرب الاولى .

لقد مر عام واحد على رحيل جلوب عن الاردن ، وفي هذا العام استطعنا ان نستنشق نسائم الحرية في سماء بلادنا ، واستطعنا ان نخطو خطوات جبارة لتحقيق اهداف العروبة .

ان حلف بغداد هو الذي عجل بهذه النهاية الحتمية . ويجدر بالجنرال جلوب ان يلوم اولئك الذين قاموا بتخطيط حلف بغداد قبل ان يلوم الشعب الاردني . ونحن لا نستطيع ان ننكر على جلوب دهاءه وصبره وشجاعته ، ولكن شعبنا الطامح للسيادة في بلاده لا يستطيع بعد اليوم ان يرى سيداً اجنبياً يتحكم في مقدراته .

لقد ذكرت الصحف ان جلوب ذرف دمعة في قبرص بعد رحيله عن الاردن . وقد تكون هذه الدمعة تعبيراً عن ندمه على الاساءات التي الحقها بهذا الشعب الصغير الشجاع .

الاردن **س . م .**

أسوار المدينة..

أسطورة رمزية بقلم عبد الغفار مكاوي

أنا رجل ضائع في المدينة .

شهادة ميلادي تؤكد أنني موجود . وأنني واحد من بين آلاف عديدة تزدحم بهم الطرقات. ثيابي رثة. طعامي قليل . شعر رأسي أشعث . وحذائي متمزق من قديم .

أما مدينتنا فهي مدينة عظيمة ، واسعة الأرجاء . يحدها من الشمال جبل هائل مرتفع . ومن الشرق صحراء تمتد إلى غير نهاية . ويجري في وسطها نهر لطيف محبوب ، بين صفين من أشجار النخيل. وما أكثر ما تراءت مدينتنا لعيني تنيناً ضخماً ، ينفث الدخان من فمه ، وعلى رأسه تطوف سحابات شتاء قاتمة . ربما يرجع هذا إلى أن عيني يأكلها الرمد من زمن بعيد ، فلا تميزان الرؤى والمشاهد . كل ما أستطيع أن اؤكده أنني كلما سرت في شوارع مدينتنا استطالت أمامي أجسام الناس ، وتضخمت أبعادها ، واختلطت علي حدودها ، فلا أكاد أعرف إن كانوا بشراً ، وتكاد عيناي تدمعان .

مدينتنا مدينة عظيمة كما أسلفت. أعظم ما فيها هذا السور الهائل المنيع الذي لا يذكر إسمها إلا مقترناً به . يحدها من الشمال ومن الجنوب ، من الشرق والغرب . تاريخ مدينتنا مذكور في الكتب ، مدون في الأسفار الكبيرة ، محفور في الآثار والصخور ، وفي رؤوس حكمائنا الشيوخ . لئن نسينا أن مدينتنا قد زحمتها جيوش أعداء كثيرين ، على مر الدهور ، فلنا العذر في ذلك، فذاكرة أمثالي من رجال أمتنا ضعيفة . وكيف تعلق بأذهاننا تفاصيل لاحصر لهــا ؟ .

كان من أعدائنا من يلبسون العمائم الكبيرة البيضاء ، ويحملون السيوف في أيديهم . ويقاتلون أجدادنا كالوحوش ، ويعدونهم بجنات السماء . وكان منهم من يلبسون القبعات فوق رؤوسهم ، ويتطاير الشرر من عيونهم الخضراء ، ويرطنون بلسان غريب على أفهامنا ، ولكنه رقيق . لن نستطيع أن نذكر جميع أعدائنا . كل ما نذكره أنهم قد بنوا هذا السور الهائل المنيع حول مدينتنا . تقول عجائزنا المخرفات إنهم قد بنوه منذ مئات السنين . ويقول حكماؤنا ذوو اللحى الطويلة ، والرؤوس الصلعاء من أثر الحكمة . إنه موجود على حاله منذ الأزل . ونحن منها حائرون : فتحنا أعيننا فرأينا هذا السور الهائل المنيع يطوق مدينتنا ، من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب ، ويكاد يخنق أنفاسها . ويكاد الحزن يغلبنا فنعتقد أننا سنموت ونتركه وراءنا .

حكاية هذا السور العظيم لا تبرح رؤوسنا ولا شفاهنا . في كل بيت . في كل منتدى . في كل شارع . في كل حي – نجد من يذكر السور وهو خائف ، وأطرافه ترتعد . جدتي قالت لي – أيام أن كانت تروي لي حكاية السندباد في ليالي الشتاء – إن هذا السور قد بناه حاكم عظيم ، كأنه مارد من الجان ، بساعديه الغليظين. وأمي حذرتني – وهي على فراش الموت – من أن أقربه . لكنني مع ذلك بقيت حائراً ، والشك يطل من عيني . حرصت على أن أجمع كل خبر . وأن ألتقي بكل من أتوسم فيه المعرفة بنبأ السور العظيم . وكان أن جمعت أنباء طيبة ، وإن كنت أتعجب من اضطرابها ، ومن تناقضها في أكثر الأحيان . فحراسنا الأشداء يقولون إنه يحمي مدينتنا من غارة الأعداء – وهم كثيرون – والفلاحون الأتقياء يؤكدون في لهجة صادقة أنه يصد عنا رياح الشمال المسممة التي كانت تهلك فيما مضى محاصيلنا ، وتؤذي الزرع والنبات .

أما الحكماء فهم يقولون – وعيونهم لا تفتأ تتأمل الكتب القديمة الصفراء ، وأصابعهم تتخلل لحاهم البيضاء – إن هذا السور يعصمنا من الجهل الذي عم البلاد ، ومن وباء استشرى في سائر الأمم ، وأننا لذلك سنبقى حكماء عاقلين ما بقي لنا هذا البناء العظيم .

هذا السور قد صحب أعمارنا ، وحفظ ذكرياتنا . فنحن نخشى عليه من أن يهدم منه حجر ، أو تفتح فيه ثغرة . أجدادنا من المهندسين قد صبوا فيه عصارة أفكارهم ، وسهروا الليالي الطويلة وهم يعدون رسومه ، ويبدعون تصميمه ، ويقيمون أعمدته وأبهاءه . وشبابنا من البنائين والصناع والعمال قد وضعوا فيه جهد أعمارهم ، وأعصابهم ، ودماءهم . لبثوا عشرات السنين يحفرون ، ويردمون ، ويحملون الطوب والحجارة فوق أكتافهم ، ويتحملون لفحات شمسنا المشبوبة الخالدة . ومات منهم كثيرون ، واختلطت عظامهم بالرماد والجير والأسمنت . أما أطفالنا فقد لعبوا حوله ، ولمسوا أحجاره ، وحملوا في رؤوسهم الصغيرة أعز الذكريات . والعشاق لم ينسوا أن يصحبوا معشوقاتهم إلى جانب السور العظيم ، فاستندوا معهن على جدرانه ، وغازلوهن واعتصروا أجسادهن من الحب ، ورقصوا ، ورجعوا في آخر الليل وقد أضناهم العناق والضم والتقبيل . أما عجائزنا من الشيوخ والنساء فقد كان لهم في جوار السور أولياء صالحون ، وقديسون طيبون ، يزورونهم بين حين وحين ، ويؤدون فروض العبادة في أضرحتهم ، ويلثمون أطراف أكفانهم . ويرجعون الى بيوتهم راضين مستبشرين .

ولكن حدث منذ عهد قريب ما جعلنا نشفق على سورنا العظيم من أن يصيبه أذى . فقد أسفر صباح يوم سار فيه المنادي – وهو رجل أعمى يقوده صبي رث الثياب – في شوارع المدينة وهو يلقي بالنبأ العظيم : « لقد وجدت أمس في جدار السور ثغرة كبيرة . الحراس يبحثون عن اللصوص » . سرى النبأ في المدينة سري الرعب . من هم هؤلاء اللصوص ؟ من أين جاءوا ؟ كيف واتتهم الجرأة على أن يتسللوا إلى مدينتنا أو يهربوا منها ؟ وسرعان ما تم التدبير . واحتاط حراسنا الأشداء لكل الظروف . ووضع على مسافات متقاربة من السور رجال من الشرطة ، مدججون بالسلاح ، عيونهم ساهرة بالليل والنهار . ولم يمض قليل حتى ضبط اللصوص المعتدون . وأمر الحاكم العظيم بأن ينزل بهم أشد العقاب . فسار بهم رجال الشرطة في شوارع المدينة بعد أن حلقت رؤوسهم ، ومزقت ثيابهم ، حفاة عراة إلا من خرقة تسترهم ، أنا قد رأيتهم بعيني . فانا واحد من شعب هذه المدينة . ومن حقي أن أقف على جانب الشارع لأتفرج على الموكب وهو يمر من أمامي . وشد ما كانت دهشتي إذ عرفت اللصوص الثلاثة . لا ريب أنهم من أهل مدينتنا . يخيل إلي أنني

رأيتهم ، وعاملتهم ، وإن كنت لا أذكر تماماً أين كان ذلك . ولقد بلغت بي الشفقة عليهم حداً كبيراً ، فاستغفرت لذنوبهم ، وطلبت في قلبي الرحمة من الله ، ومن الحاكم . كان موكبهم شيئاً يبعث على الألم حقاً . لابد أن حراساً الأشداء قد ضربوهم على ظهورهم بالسياط حتى سالت منها الدماء في خيوط متعرجة ، حفرت عليها آثاراً عميقة كامدة .

ولقد بلغني بعد رؤية هذا المشهد بيومين ، أن الحاكم الكبير لم يكتف بهذا الجزاء . طلب أن يوضع اللصوص الثلاثة في السجن . ولما لم تكن في مدينتنا سجون ، فقد أمر فبنيت لهم على عجل زنزانة ضيقة ، منعزلة في قلب الجبل – قيل لي إنها قد كلفت ميزانية الحاكم أموالاً طائلة – فلما قيل له إنه لابد للمسجونين من حارس ، صار يدمدم يومين كاملين . فالنفقات لم تكن تخطر على باله . ولقد سمعنا ونحن في المدينة – فقد صار نبأ هؤلاء المساجين أهم ما يشغلنا ويجذب انتباهنا – أن اللصوص الثلاثة قد صافحوا حارسهم في حرارة وهم يدخلون الزنزانة . وأن واحداً منهم راح يؤكد حين أغلقت عليهم الزنزانة أنه هو الذي صنع البوابة الحديدية والقفل الكبير بيديه ، مما سر الحارس وجعله يغرق في الضحك . وكان زميلاه في السجن كذلك في غاية من الانشراح . أما أحدهما فهو فلاح بسيط كان يعيش على قطعة صغيرة من الأرض يزرعها بقليل من القمح والخضروات ويعيش سعيداً مع أبويه العجوزين وأولاده الأربعة . وأما الآخر فكان شاباً صغيراً يشع من عينيه الذكاء والقلق . لم يكد الحارس يغلق عليه باب الزنزانة حتى طلب أوراقاً وقلماً .

هكذا سارت الأمور على خير ما يرام . فالسجناء الثلاثة فرحون مستبشرون لسبب لا ندريه . بل لقد زادت شهيتهم للطعام (حتى طلب أحدهم أن يؤتى له بفخذ خروف محمر ، وثلاثة أرطال من اللحم المشوي ، واقتين من التفاح والكمثرى !) وهم لا يكفون عن الضحك والتهليل حتى كأنهم قد دخلوا حانة أو مشرباً ! ثم إنهم ينامون نوماً هادئاً ، وعلى الاخص ذلك الحداد الذي لا يكاد يصحو من نومه حتى يطلب الطعام من حارسه ثم يعود إلى النوم في هدوء . .

ولقد سارت أمور المسجونين الثلاثة على النحو التالي : كانوا يزدادون سمنة يوماً بعد يوم . وزادت نتيجة لذلك نفقات إيوائهم على الحاكم – حتى كان يوم استشاط فيه غضباً وأرسل إلى مدير ديوانه ليقول له وعيناه ترسلان الشرر :

– لابد من الخلاص من هؤلاء الملاعين . .

– وكيف يا مولاي ؟

– إقطعوا رقابهم !

– لا نستطيع يا مولاي .

– وماذا يمنعكم ؟

– نخاف على سور المدينة .

– وما شأن السور في هذا ؟

– ستزداد فيه الثغرات . وسيهجم تعبك الأمين عليه فيهدم أحجاره .

– إذن فافتحوا أبواب السجن .

– ومتى كانت السجون مفتوحة الأبواب ؟!

– إفعلوا أي شيء . فقد ضاقت نفسي بهذه التكاليف .

وأذعن مدير الديوان لهذا الأمر . فأمر حارس الزنزانة أن يترك بابها مفتوحاً . ولكن هذه الوسيلة لم تجد إزاء عنادهم . فقد كانوا يخرجون للطعام أو للنزهة ثم يعودون إلى السجن فيغلقونه عليهم في إحكام . وسارت الأمور على هذا النحو اياماً . المساجين ينفذون العقوبة المفروضة عليهم بأمانة وإخلاص ، والحارس يستولي عليه الملل ويغط في نوم لا يفيق منه .

وبلغت أنباء الثلاثة أسماع أهل المدينة . إنهم يستطيعون – بمجرد فتح ثغرة في السور العظيم – أن ينعموا بسجن هادئ مريح ، وأن يناموا ملء جفونهم ، ويستسلموا لأحلام صافية . وكان أن تسلل الكثيرون إلى السور في ظلمة الليل – وكل من فتح ثغرة أو نقل حجراً عن موضعه أسرع إليه الحارس فقبض عليه وأسلمه لرجال الأمن . وتعددت هذه الحوادث حتى ألفت آذاننا صوت المنادي العجوز وهو يطوف بالطرقات ليعلن نبأ القبض على اللصوص. ووجد العاطلون من أهل المدينة عملا مربحاً في بناء السجون الجديدة المحكمة . وأطمعت هذه الثروة المفاجئة الكثيرين فتركوا أعمالهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وشاركوا في البناء الجديد في همة ونشاط . ولكن الأمر الذي لم يكن يتوقعه ، أحدأن عدداً من الصبية والنساء قد تسللوا ذات ليلة إلى السور العظيم – في غفلة من الحراس النائمين – فقلبوا أحجاراً كثيرة عن مواضعها ، وفتحوا فيه ثغرات لا يقوى عليها إلا الرجال . وكان أهل المدينة كراماً مع هؤلاء المذنبين . أثارتهم المروءة والوفاء ، وهزهم الشحوب البادي على وجوههم ، فدلوا رجال الأمن عليهم .

لم يكن بد إزاء هذه الأحداث من أن تؤلف المحاكم ، وأن يجعل لها قضاة مهيبو الطلعة ، طوال اللحى ، يتلفعون في مسوح سوداء فضفاضة كمسوح الرهبان . وكثر عدد هذه المحاكم فيما بعد حتى دخلت كل حي ، ومن لا يُحاكم يتفرج . وتوافد الفلاحون الأتقياء من القرى البعيدة ليشهدوها ، ويروا المدينة التي تقيدها سلاسل من الحجارة . أما الحاكم فلم يكن يفهم مما يدور حوله شيئاً . كان يعجب لأهل المدينة الذين يسيرون إلى السجون بمحض اختيارهم . وكان أكثر ما يزيده غيظاً أن يسمع أناشيدهم حين تسوقهم الشرطة

إليها . وكان أشد ما عجب له أن الحراس الذين وضعهم على مسافات متقاربة من السور العظيم قد تفشى بينهم مرض النوم (لقد رآهم بنفسه يتثاءبون .) وراع الحاكم ما سمع وما رأى ، فأسرع يستدعي كبير قضاته . وحين مثل هذا بين يديه ، وانحنى أمامه حتى كادت جبهته أن تلمس الأرض صاح فيه : أرأيت ؟! أرأيت ؟!

– أنا أيضاً لا أكاد أصدق يا مولاي .

– وماذا يريدون ؟

– السجن .

– أيعاقبون أنفسهم بأنفسهم ؟

– ويطلبون المزيد من العقاب !

– المدينة امتلأت بالسجون . ليس بوسعي أن أفعل أكثر من هذا .

– نحن أيضاً قد يئسنا يا مولاي فقد تعطلت وظيفتنا . ولم يعد لأمثالنا من القضاة ضرورة . إن الجميع يتمنون العقاب الذي نفرضه عليهم .

– احكموا عليهم بعقاب أشد !

– الحكم في يدك يا مولاي .

– في يدي ؟!

– نعم .. هناك حكم واحد يريحنا من هذا العذاب .

– تكلم ! تكلم ! هل نسجنهم إلى الأبد !

– لقد جربنا هذا .

– إذن نقطع رقابهم !

– ولا هذا .

– ويحك ! بماذا أحكم إذن ؟

– أحكم عليهم .. بالحرية !

– الحرية ؟! وكيف ؟

– إهدم السور العظيم .

قال كبير القضاة ذلك واحمر وجهه كفتاة عذراء . ثم انحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض . وخرج وهو يتعثر في أطراف ثوبه الفضفاض .

وعاد القاضي من فوره إلى المحكمة . وسارت الأمور سيرها الطبيعي . النساء يلدن . والصغار يكبرون . والعجائز يموتون . والثيران تدور في الطواحين . وأمواج الفلاحين الأتقياء تترى على مدينتنا من القرى البعيدة . كل شيء يجري على ما يرام .

كان ذلك منذ زمان قديم، سحيق في القدم. ولم تزل أسوار المدينة كما هي ، عاتية ، مرتفعة ، تحجب عنا رياح الشمال ، وتكاد أن تحجب النور .

وما برح أهل مدينتنا يتسللون إليها في ظلمات الليل ؛ يغافلون حراسها ، ويفتحون فيها ثغرة جديدة .

أدرك أهل المدينة أن مدينتهم قد باتت وهي سجن كبير . ولم يكن الحاكم يدري أن السجن الصغير يمكن أن يتسع ويتسع حتى يضم كل هذا العدد من الناس .

أما أنا – وإن كنت رجلا مسكيناً من أهل هذه المدينة ، ثيابي رثة ، وقدمي حافية ، وطعامي قليل – فقد فهمت ما يريدون . لمعت هذه الفكرة في رأسي فجأة وعلى غير انتظار : سوف لا يهدأ لهم بال حتى يهدموا السور العظيم ، وينقضوه حجراً بعد حجر .

أنا قد لمحت هذا في عيونهم .

القاهرة **عبد الغفار مكاوي**

شاعر في المعركة

بقلم غالب هلسا

دخلت الاردن منذ نهاية الحرب العالمية الاولى تحت لواء الاحتلال البريطاني، وقد قامت السلطة المحتلة باجراء تعديلات كبيرة في الوضع الداخلي لضمان سيطرتها الدائمة . فقامت بعقد اتفاقات مع بدو الجزء الشمالي من الجزيرة العربية، والبدو القاطنين على الحدود الاردنية العراقية، يحظر بموجبها الغزو بين هؤلاء وبين القبائل الاردنية القاطنة في المنطقة الجنوبية من الاردن كقبائل الحويطات ، وبني عطية ، والشرارات ، وبعض اقسام بني حميده وبني صخر . وقد تم ذلك بجهد ضابط بريطاني مغامر يدعى (جون باجوت جلوب) .

كما اقامت سلطة الاحتلال جهازاً حكومياً كبيراً يدير شؤونها في الداخل ، جعلت السلطة العليا فيه لبعض الموظفين البريطانيين وبعض ابناء الاقطار العربية المجاورة الذين حصلوا على ثقتها ، كما فتحت نظارة المعارف عدداً كبيراً من المدارس في المدن الرئيسية وبعض القرى لتخريج كتبة وموظفين .

الا ان سلطات الاحتلال لم تحاول ان توجد اي تغيير اساسي في الداخل يخدم مصلحة الاكثرية الساحقة ، فتركت الفلاحين تحت رحمة عدد قليل من الاقطاعيين بواسطة قوانين الاراضي ، وسوت نظام الاستيراد بشكل يتيح لعدد من الدخلاء ان يسيطروا على التجارة الداخلية ويحتكروها .

ولقد كان لهذا كله نتائج بالغة الخطورة . فالبدو الذين اضطرب ميزان حياتهم الاقتصادي بمنعهم من الغزو ، اصبحوا يعانون مجاعة شديدة . كما أن خريجي المدارس السلطانية ونظارة المعارف الجديدة وجدوا جميع فرص الارتقاء والتقدم قد سدت في وجوههم واصبحت مقصورة على الموظفين البريطانيين وعملائهم من ابناء الاقطار العربية المجاورة . اما الفلاحون الذين قد قاموا بثورات دامية لم يعرف لها تاريخ الاردن مثيلا في عهد الاحتلال العثماني ، كثورة الكرك ، وثورة الطفيله ، ضد الضرائب الباهظه ، وضد نظام التجنيد الاجباري ، فلقد ازدادت حالهم سوءاً ولم يشعروا بأي تغيير يذكر . وكذلك الامر بالنسبة للاقطاعيين الذين كانوا يتمتعون بامتيازات كبيرة في عهد الحكم التركي، فقد احسوا بأن نمو العلاقات الجديدة في المدن ، واضطراب الاحوال عامة في الاردن يجعلهم غير مطمئنين تمام الاطمئنان لمركزهم .

لهذا كله اصبحت الاردن تغلي بثورة داخلية عارمة اخذت تهدد سلطة الاحتلال البريطاني ، فقام البدو باضطرابات خطيرة في الجنوب واخذت تدور بينهم وبين الجيش العربي معارك خاطفة على امتداد منطقة واسعة جداً تمتد من حدود الجزيرة العربية حتى حدود منطقة الكرك . ومن اغانيهم المعروفة في هذه الفترة :

عسكر ابو حنيك مرطوبه(١) وانا بشيرك بذبحتها
زرق الحناتير(٢) معطوبه(٣) حتى البنادق(٤) بزهبتها (٥)

وفي عام ١٩٢٣ قامت قبائل البلقاء (بنو عدوان ، وبنو حميده ، والعجارمة والفنحات ، والعوازم الخ) بزحف على مدينة عمان عاصمة الامارة بقيادة ماجد بن عدوان ، فتصدت لهم المصفحات البريطانية ، وقامت طائرة بريطانية بقذف الثوار بالقنابل ، فتراجعوا منهزمين . وفي السنة نفسها قامت منطقة الكوره في شمال الاردن بثورة مماثلة الا انه قضي عليها بسرعة.

الا ان الدور الاكبر كان للمثقفين الموتورين ، فقد حاولوا ان يستفيدوا من هذه الثورة ، اذ رأوا فيها بصيصاً من الامل في تحقيق آمالهم ، ولكن عندما فشلت، صدر الامر من رئيس النظار حسن باشا خالد في عام ١٩٢٣ « بتسفير مصطفى وهبي التل وشمس الدين سامي الى معان باسرع ما يمكن » ونفي معهما كذلك عوده باشا القسوس وصالح النجداوي وبقيا لمدة ثمانية شهور في سجن جده .

وشيئاً فشيئاً اخذت هذه الفئة تتبلور وتزداد قوة وتماسكاً ، فتألفت حركة سرية تنتظم بعض افرادها ، وكانت اهدافها تتلخص في شعارها الذي كانت ترفعه « الاردن للاردنيين » اي ان تقتصر الوظائف الكبرى على الاردنيين ، كما ان السوق الداخلية يجب ان تتحرر من سيطرة التجار غير الاردنيين ، كما كانت تطالب بانهاء سيطرة الاحتلال البريطاني واجراء انتخابات حرة . ونستطيع ان نجد جميع هذه المطالب متجسدة في اشعار مصطفى وهبي التل ، فهو يقول في احدى قصائده ، ان اهالي سوريا ولبنان الذين بيننا قد استولوا على مقدراتنا . ويقول في قصيدته « والعلم في عمان ازياء » مخاطباً الشيخ عبود النجار :

وان آذان نواب البلاد سوى عن الذي يقتضيه العلج صماء
لو أن برنيطة كانت عمامتكم لوظفوها ولم يخطئك إثراء

ان طبقة جديدة قد ولدت ، لها اهدافها وشعاراتها واتجاهها، ولابد ان تأخذ مكاناً لها تحت الشمس ، فاخذت تقوم بمحاولات جادة للوصول الى مطاليبها . ولكن ما كاد عام ١٩٢٨ يقبل حتى تلقت هذه الفئة لطمة شديدة ، اذ عقدت المعاهدة الاردنية البريطانية فاعترفت بشرعية الاحتلال البريطاني على الرغم من تسميتها « اعلان استقلال امارة شرق الاردن » ووافق عليها المجلس التشريعي ساعة عرضها ، فثارت هذه الفئة واخذت تقوم بكفاح يائس لالغائها. وقد عبر عرار (**الاسم المستعار لمصطفى وهبي التل**) عن الصدمة التي نتجت عن توقيع هذه المعاهدة في قصيدته « استقلال ! ! » :

يا هبر لا بشرى ولا حواره يطربها عزفك بالقيثاره (١)
يا هبر حسب الامة الحاره حكومة براجة بصاره (٢)
(.) (.) (٣) فيها لواب الوزاره

---

(١) قد ابيدت (٢) السيارات (٣) محطمه . (٤) جمع بندقية (٥) الذخيرة

(١) الهبر رجل نوري كان صديقاً للشاعر ، وبشرى وحواره قريتان تقعان شرقي اربد

(٢) براجة بصاره – تعبير عامي بمعنى المشعوذه .

(٣) اسم شخصية اردنية .

يا هبر استقلالنا الكرتوني ! اخرجني كما ترى عن ديني !
فدرت بين الناس كالمجنون اسأَلهم عنه فما دلوني
إلا على قعوار والخماره !

ولم يذهب الشاعر ولا الآخرون الى الخماره حقيقة ، وانما انعقد بعد توقيع المعاهدة مؤتمر وطني كبير حضره عدد من الوطنيين واتخذت فيه قرارات هامة اخطرهاالغاء المعاهدة الاردنية البريطانية واجراء انتخابات حرة . وتظاهر الطلبة في جميع المدن الرئيسية ، وواجههم البوليس بالرصاص ، كما القيت عدة قنابل على بيوت عدد من المسئولين ، واعتدى شاب على احد اعضاء المجلس التشريعي لموافقة الاخير على المعاهدة .

لقد اخذ الاستعمار يشعر باشتداد المقاومة فعمد الى اجراءات سريعة وحاسمة : السجن والنفي والرشوة ، مع تلبية بعض المطاليب الجزئية . وانتهت المقاومة دون ان تحصل على اية مكاسب .

كان لهذا الفشل اسباب عديدة ، اهمها : ضيق افق الطبقة الموجهة للكفاح لاقتصارها على بعض المطاليب التي لا تستطيع ان تتبناها جماهير الفلاحين ، وميلها السريع للمساومة نظراً لعدم وجود مصالح كبيرة يهددها الاحتلال بوجوده ، وعدم نضوج الوضع للقيام بكفاح شعبي عام بامكانه ان يضع حداً للسيطرة الاستعمارية .

ان الباستيل لم يهاجم بعنف كاف ، والطبقه الثائرة لم يكن لها ظروف البورجوازية الفرنسية ولا إقدامها ، واما الاعداء فقد كانوا اكثر صلابة ووعياً من النبلاء الفرنسيين الحمقى .

واحدث فشل الطبقة الوسطى اثراً عميقاً بين صفوف الفلاحين والمثقفين الذين عقدوا الآمال العريضة على هذه الحركة . على ان هذه الحركة كانت ضرورية وحتمية ، فقد كان من المستحيل ان تتحرك الجماهير الواسعة وعلى رأسها مثل هذه الفئة التي ينتهي كفاحها عند بعض المطاليب الآنية . لقد كان الفشل مجرد تطهير واعداد للقوى التي ستتسلم القيادة الشعبية وتوجهها نحو اهداف اكثر وضوحاً وابعد مدى .

* * *

لقد كان الشاعر يعيش في داخل هذه الاحداث ، ويشارك فيها مشاركة فعالة ، كان يعيشها يوماً ، يوماً ، ويعكسها في شعره . فابان ثورة العشائر (١٩٢٣) والشاعر ما يزال في الرابعة والعشرين من عمره ، القي القبض عليه بناء على ارادة سامية ، بتهمة التحريض على الثورة ، وسيق الى سجن جده وبقي هنالك ثمانية شهور ، ثم افرج عنه بعفو خاص . وكان السجن مقسماً الى اقبية مظلمة حشر في احدها ، وحيداً ، وربطت قدماه الى فلقة خشبية . يصف هذه الحادثة في مذكراته فيقول :

« ان معاملتي هذه عدا انها كانت مخالفة للقانون والعدل والانصاف ، فانها كانت من قبيل البطر لا اقل ولا اكثر ، واظن ان الله لم يخلقني لأكون ملهاة لمتلهي من رجال حكومة شرق الاردن بحيث يسوغ لهم نفيي واعتقالي لمجرد رغبتهم في ذلك دون ان يستطيعوا الحصول على اي دليل مادي ضدي ، واظن ان في بقاء الانسان نيفاً وثمانية شهور قيد السجون المؤذية بكل ما في الاذى من معنى ، هو امر مؤثر معنوياً بحيث لا ينفع معه عفو يصدر . »

وفي عام ١٩٢٥ عين مصطفى حاكماً ادارياً في بلدة الشوبك ووادي موسى ، ثم كفت يده عن العمل بسبب اتهامه بتحريض الاهالي على الثورة ضد الحكومة ، واعتبر انه كان سبباً في الاضطرابات التي حدثت هنالك . فنقل بعدها الى عمان وعين مدرساً براتب ضئيل جداً . ويقول الشاعر في مذكراته ، ان ذلك كان من تدبير المعتمد البريطاني « لكي يحملني على الخضوع ويخرس لساني وقلمي الى الابد . » ثم اعتقل الشاعر بعد شهور قليلة من تعيينه بتهمة – كما يقول – « مؤلفة من ثلاثة اثافي ، وهي : ١ – رفع راية البلشفية . ٢ – السكر في حانة عامة . ٣ – نظم قصيدة تضمنت إطالة اللسان على سمو الامير ورئيس النظار وحكومته على ملأ من الناس . »

وبعد خروجه من السجن عين مديراً لمدرسة الحصن الابتدائية ، وبعد مضي تسعة شهور على تعيينه تسلم الكتاب التالي من نظارة المعارف : « لقد عزلتم اعتباراً من ١٥ نيسان ١٩٢٨ من وظيفتكم لاشتغالكم بالسياسة وعليه صار تبليغكم ذلك »

ويشرح الشاعر سبب العزل في مذكراته فيقول : « وكان ذلك بسبب حركات معارضة المعاهدة ، فقد اعتبرتني الحكومة أس هذه الحركات واتهمتني بتحريض اهالي عجلون على الاضراب احتجاجاً على المعاهدة ، وتحريض التلاميذ على المظاهرات ، وقيادتي للطلاب بعد ان اطلق المتصرف النار عليهم في اربد ، وقد اوفدت الحكومة لجنة للتحقيق ، ولكن اللجنة اعتقدت باجرامي قبل ان تصل اربد وقبل ان تعرف حقيقة ما حدث . . »

وتمضي مذكرات مصطفى :

« ٢٧ نيسان . الجمعة : كان اليوم موعداً للتظاهر في اربد . »

« ٢٨ نيسان . السبت : اشتغلت هذا النهار بالاستعداد لاصدار جريدة (الانباء) وكتبت مواد اغلب الصحيفة الاولى وقضيت النهار بالمطبعة . »

« ٢٩ نيسان . الاحد : جاءني سعيد اليوسف ضابط الشرطة واعلمني بأنه لا يسوغ لي اخراج عدد الجريدة من المطبعة ، وفي النهار مثلت حكومة شرق الاردن فصلها المضحك معي في اصدار قانون المطبوعات . . »

وفي ١٦ شباط ١٩٣١ اعتقل مصطفى من قبل متصرف اربد بسبب مقال نشرته جريدة الكرمل الفلسطينية وعزي اليه ، وحكم عليه بالنفي لمدة ستة شهور في بلدة العقبة .

* * *

في هذه الفترة وصلت الاردن الى وضع مستقر نسبياً ، فالبدو الذين اضطربت حياتهم بعد منع الغزو ، اوجدوا توازناً جديداً ، وذلك بأن تحول جزء كبير منهم الى الزراعة كما فتح الجيش ابوابه لهم فدخل منهم فيه اعداد كبيره . واطمأن الاقطاع كذلك الى امتيازاته بل انه وجد ان بقاء السلطة البريطانية في البلد يدعم نفوذه ويرعى مصالحه . وقويت كذلك شوكة السلطة ، فزادت عدد افراد الجيش زيادة كبيرة ، وجعلت الجيش الحربي من البدو الذين اصبحوا يعتمدون اعتماداً رئيسياً في معيشتهم على الرواتب التي يتقاضونها كما اقيمت التجارة في الداخل على اساس ان يحتكر استيراد المواد الضرورية عدد ضئيل من التجار يقومون هم في الوقت ذاته بدور الموزعين على صغار التجار في القرى . كما قاومت السلطة كل محاولة لانشاء صناعة وطنية .

لقد ادى هذا الى نشوء مجتمع بيروقراطي في الداخل ، تسيطر فيه على الوضع الاقتصادي فئة صغيرة من كبار المستوردين ، ويسيطر فيه على جهاز الحكم زمرة ضئيلة . وانصرف المجتمع باجمعه الى تكديس الثروة والتسابق على المناصب ، والبحث عن القرش باية وسيلة لمواجهة مطالب الحياة التي اخذت تبدو شديدة الصعوبة ، نظراً لارتفاع الاسعار وزيادة مستوى متطلبات وحاجيات الفرد . وهكذا اخذ المجتمع ينطبع شيئاً فشيئاً بطابع التجار والفئة الدنيا من الطبقة الوسطى .

* * *

في الوقت الذي كان يعتبر هذا التطور بالنسبة للطبقة الوسطى الناشئة ، حلا معقولا لمشكلاتها ، كان بالنسبة لمصطفى مأساة حقيقية . فقد كان نموذجا

ثورياً فريداً في ذلك العهد ، اذ كان ممثلا لجناح ثوري لم يولد بعد ، ولقد تأخر ميلاده بسبب الظروف التي اوجدها الاستعمار فمنع قيام صناعة وطنية . كان على هذا الجناح الثوري ان يتسلم القيادة من الطبقة الوسطى ويقود الثورة الى نهايتها المنطقية ، ولكن حظ مصطفى التعس انه جاء مبكراً فحمل هذه الامانة وحده ، وسار يتحسس طريقه .

كان يشعر في صفاء واحساس صادق بأن المهمة التاريخية ، مهمة القضاء على النفوذ البريطاني ، لا يمكن ان تتم على ايدي المثقفين والافندية . بل انه كان يشعر بالقرف والوحدة والضجر ، عندما يكون بينهم . لقد رأى ان المجتمع الجديد الذي خلقوه ، قد اطرح كل علاقة انسانية صادقة ، وتجمدت فيه جميع المشاعر الانسانية ، وكل دفء الاحاسيس الصادقة تحت جليد العلاقات التجارية الجديدة . ان علاقات البيع والشراء قد حلت محل المحبة الصادقة والكرم الذي عرف به الشعب الاردني ، والصراع على تكديس الثروة قد حول علاقات الصداقة والود الى علاقات ذئبية افتراسية جديدة .

ان (الافندية) اصبحوا موضع هزئه واحتقاره ، هؤلاء الذين اخذوا يميزون انفسهم على عامة الناس باللباس الاوروبي وبالراتب الثابت آخر الشهر :

لا تنخدع بالبنطلون ولا تثق بجمال زيه
ماكل زخرفة رواء وكل خطب عنجهيه
كم فارس هو في الحقيقة عند راتبه مطيه
ومدجج قاد السرية وهو قواد السرية

* * *

ترك التقى خير بعلم الله من نسك التقيه (١)

إن خلف العنجهية والغرور التي تتصف بها هذه الفئة فراغاً مقيتاً ، وكذباً ونفاقاً . إن قضيتهم ليست قضية الشعب العامل ، بل ان كل ما يتصفون به من ذكاء وألمعيه متجه الى انتهاز الفرص والوثوب للمناصب الكبرى :

لما رأيت الكذب سر تفوق الفئة السريه !
ورأيت كيف الصدق يذهب من يقول به ضحيه !
ونظرت احلام الوظائف سادة بين البريه ! !
ايقنت ان الالمعية في ازدراء الالمعيه !
وحللت عقلي من عقال الهاجسين بحسن نيه
وسبرت اغوار السراة وقستهم بالسرسريه (٢)
فوجدت رهط الهبر قد بز الاماثل اريحيه .

إن اهداف هذه الفئة تنتهي عند منصب معين تناله او لقب حقير ، وهم في ذلك يخالفون قواعد الشرف و « الحجا » :

فالناس إنسانان من همه   ان يرتوي ذلا وان يلعبا
وآخر تأبى عليه الحجا   الا بأن يشقى وأن يتعبا
ما قيمة • الالقاب منصوبة   والظهر بالخزي قد احدودبا ؟
كم مطلق العنان ألقابه   ما حققت سؤلا ولا مطلباً
يستنسب الري بصفع القفا   يا بئس ما اختار وما استنسبا
وراسف بالقيد ما ينثني   يدأب حتى يبلغ المأربـا

(١) التقية : مذهب معترف به عند بعض الفرق الاسلامية وهو أن يتظاهر الانسان بما يوافق الحكام اتقاء لشرهم ، ويقال انه مأخوذ من الآية الكريمة : « إلا ان تتقوا منهم تقاء »

(٢) السرسريه — كلمة تركية ، تستعمل في اللهجة العامية بمعنى اللص او المتعطل عن العمل .

ما قيمة الاوسمة بالنسبة للانسان الشريف ؟ .

وما تسميه يا مولاي اوسمة   علقتها لجهار الهبر نيشانا

ان المدينة التي خلقت هذه العلاقات والاخلاق كلها زيف وباطل :

دعي المدينة لا يخدعك باطلها   فزيفها بين من غير منظـار

وهو يمتلىء ثورة على حياة الوظيفة وما فيها من روتين قاتل وتظاهر سخيف ابله :

فبحسب قانون الجزاء وحسب احكام الخزينه
ما جشماني من افانين اللباقة والمرونه
بتو قري شأن القضاة ومشيتي بخطى رزينه
والخوض في فلك الرهون ومهجتي معكم رهينه

لقد كان هذا العالم يملأه بالسأم والضيق فتراوده رغبة في الهرب ، من هذه البلاد « حيث الخداع يعانق النكران والغدرا » ، الى مكان لم تلوثه هذه العلاقات الخالية من الانسانيه ، علاقات التنافس وما يتولد عنها من الحقد والغدر وخيانة الصديق وهي « شر ما امتحن القلب السليم به » :

موطني الاردن لكني بـه   « كلما داويت جرحاً سال جرح »
وبنفسي رحلة عن ارضه   عله يشفى من الارهاق نزح
كل ما ارجوه لو ان منى   عاثر الجد اذ يرجو نصح
ان ارى لي بيت شعر حوله   من شلايا قومك السرحان سرح (١)
في فلاة ليس للعلج بهـا   حية تسعى وثعبان يفح

ولكن سوء طالعه جعل هذه الحياة مفروضة عليه ، فلابد ان يرضى بهـا في سبيل « لقمة الخبز » :

يا لقمة الخبز التي   اشقت بحاجتها الأنام
وأذل مطلبها العزيز   وفت في عضد الهمام
تف على بشرية   القت لمثلك بالزمام
هانت فلم تحفظ لغير   صغائر الدنيا ذمام
أأذن موضوع الحياة   ونستحق الاحترام ؟!

إن شوقه الى عالم تخلص نهائياً من هذه العلاقات التجارية شوق لا يجاري :

يا اخت رم(٢) وكيف رم وكيف حال بني عطيه
هل ما تزال مضاربهم شماً وديرتهم عذيه
سقياً لعهدك والحياة كما نؤملها رضيه
وتلاع وادي التيم ضاحكة وتربته غنيه
وسفوح شيحان الاغن بكل يانعة سخيه (٣)
ايام لم يك للفرنجة في ربوعك أسبقيه
والعلج ما انتصبت له في كل موماة بنيه

ووجد مصطفى بعض ما يصبو اليه بين مضارب النور ، فهنا قد وجد مجتمعاً يرفض العلاقات الجديدة ، والتقسيم الطبقي الجديد :

الكل زط مساواة محققة   تنفي الفوارق بين الجار والجار
فلا يرى الهبر بأساً في منادمتي   وشرب كأس من الكونياك قعواري(٤)

هنا مصطفى وجد الحياة البسيطة ، حيث يعيش الناس باحتراف بعض الاعمال البسيطة كالحدادة ، وبيع الحلي الرخيصة وصناعة الغرابيل ، ولا

(١) شلايا — قطعان الغنم . السرحان — قبائل بدوية على الحدود الاردنية السوريه .

(٢) اسم جبل في الجنوب تقطن حوله قبائل بني عطيه .

(٣) شيحان — جبل يقع شمالي بلدة الكرك .

(٤) قعوار — بائع خمور

يملك فيهم الانسان سوى خيمته المصنوعة من الخيش (الخربوش) ، وحماره . وكان المصدر الرئيسي لعيشهم هو التكسب بالغناء والرقص . لقد سحرت مصطفى هذه الحياة البوهيمية المتحررة من كل قيد اجتماعي . يصفهم في احد رسائله فيقول : « هذا ما جعلني لا ارد مضارب النور كبحاثة منقب ، الا لاصدر عنها كشاعر متشبب ، ففي موسيقاهم روعة باكية ، ولأعين نسائهم ومضة ساحره ، وفي تثني قدود راقصاتهم ما يشيع في نفس المشاهد احاسيس متباينة ومشاعر تتأرجح بين الاعجاب والاشفاق واللذة والالم والبهجة والأسى » .

ولهذا فقد اصبح النور من المواضيع الرئيسية في شعره ، فلا تكاد تجد قصيدة (سوى ثلاث او اربع قصائد) لا يرد فيها ذكر النور . بل انه يروى ان عدداً كبيراً من الاغاني التي يغنيها النور من نظم مصطفى ، منها هذه الاغنية المعروفه :

يا يمه توبي ضيق … ضجن علي نهودي
وش لك بجب المبسم … دونك رأس الحدود
حصاد خلي المنجل … جتك الشمس والشوبه
شفا لك تشرين ظلال … بين النهد والثوب

الا انه لم يرد في ديوانه ما يؤكد هذه الرواية .

يصف الاستاذ محمود المطلق ، في البحث الذي قدم به ديوان عرار « ليالي النور » بقوله : « ... فهناك بين الخرابيش كان يجتمع السامرون ممن يعشقون غناء النور وفنهم وموسيقاهم ...

«وتقوم (سعاد) للرقص ويعب القوم كؤوس الرحيق عباً ، وتشخص عيونهم الى قوام النورية الحسناء وهو يتلوى تحت القبة الساكنة الهادئة ، وعلى الضوء الخافت ، او في ضياء القمر الهادئ ، وفي ذلك السكون المطلق ينساب صوت سعاد ثاقباً هذا الفضاء العريض ويداعب صوتها المرتعش اسماعهم التي اثقلها الشراب فيحسونه آتياً من اطراف الافق البعيد ..

«ويرتفع صوتها المتهدج بهذا اللحن العراقي الحزين ..

اسمر سمارك حلو
والعين عين الطير
وش بان مني خطايا الله
عجل ، وتعاشرون الغير
ويلي ويلي .. يا ويل قلبي

«.. ويصيح « الهبر » بصوته الاجش المدوي : على حياة ابو وصفي ، على حياة فلان .. واللي يحب النبي يقول يستاهل ...

«وتتناثر النقود على جسم الغانيه ، ويعلق القوم الاوراق المالية المختلفة على جسمها وتصيح هي بدورها « خلف الله عليك يا .. » وتعود الى الرقص والغناء .. » (١)

وكان حبه لبسطاء الناس جارفاً قوياً : لفقراء الفلاحين ، والصعاليك والمرسريه . كانت جذوره تمتد الى ابعد الجماهير واشدها بؤساً . ففي شعره نجد الريف كله متجسداً ، الفتيات الجميلات ، سواء أكن من شركسيات وادي السير ، او من صبايا بني عطيه البدويات ، او من مأدبا او عجرميات.. كما نجد قرى الاردن ووديانه وجباله تستأثر بالقسم الاكبر من شعره .

لقد رأى ان الجماهير البسيطة التي لا تملك سوى قيودها قد استطاعت ان تنتصر على جميع ما اوجده مجتمع الطبقة الوسطى من غرور

(١) مقدمة الديوان صفحة ١٩ — ٢١

وسخف وتجارية ، وان الروابط التي تربطها فيما بينهما تزال روابط انسانية اصيلة صادقة . وهي مع هذا دائبة على اثراء حضارتنا بفنها الشعبي على مختلف الوانه . في خلال تاريخها الطويل اكتشفت فنون الرقص التي تعبر بها عن علاقاتها الاجتماعية وعن تمردها على هذه العلاقات ، كرقصة الدبكة والسحجة ، وحبل مودع ، وانواع الاغاني الشعبية التي تحمل حبها الكبير للحياة واحتجاجها على مظالمها كالموال والهجيني والمهاهاه ، ودلعونه ، وغزيل ، واغاني الدراسين والحصادين الخ .. كما عبرت عن فسلفتها في الحياة بعدد ضخم من الامثال تتصف بالعمق والواقعية والصياغة اللفظية الجميلة .. وهي بالرغم من هذا كله تمضي مع الحياة بوداعة وطيبة ، لا تكلف نفسها بالتظاهر السخيف الاجوف .

بهذا الفهم الانساني ، البسيط والعميق معاً يتحدث مصطفى الى الشعب ، وهو يخاطبه بعطف وحنو وحب يكاد يرتفع الى مرتبة الصوفية . كان يدرك ان سذاجتهم هي مظهر لأجمل ما في الانسان ، وهم يمنحون هذا العالم من الجمال والسعادة مالا يستطيعه رضوان في جنته :

يقول عبود (١) جنات النعيم على … ابوابها حارس ندعوه رضوانا
من ماء راحوب (٢) لم يشرب وليس له … ربع بجلعاد (٣) او حي بشيخانا
ولا تفيأ في عجلون (٤) وارفة … ولا حدا بهضاب السلط (٥) قطعانا
ولا أصاخ الى اطيارنا سحراً … بالغور تملأه شدواً والحانا
ولا بوادي الشتا تامته (٦) جؤذرة … ولا رعى بسهول الحصن (٧) غزلانا
ولا تأردنه يوماً بمحتمل … ولا لتقديسه الاردن إمكانا
إن كان يا شيخ هذا شأن جنتكم … فابعد بها إنها ليست بمرمانا
وقل معي بلسان غير ذي عوج … لا كنت ياجنة الفردوس مأوانا

وعندما كان الشاعر مأموراً للاجراء في اربد كان يرفض تنفيذ قرارات رئاسة الاجراء بحبس المدنيين الفقراء ، وبرر موقفه هذا بقصيدة عنوانها « اخواني الصعاليك » يقول فيها :

قولوا لعبود على القول يشفيني … ان المرابين اخوان الشياطين .
وانهم لا اعز الله طغمتهم … قد اطلعوا رغم تنديدي بهم ديني

ثم يقول مخاطباً المرابين :

أأسجن الناس إرضاء لخاطركم … وخشية العزل من ذا المنصب الدون
أم رغبة بتقاضي راتب ضربوا … نقوده من دماء في شراييني
هذي الوظيفة إن كانت وجائبها … وقفاً عليكم فعنها الله يغنيني
إن الصعاليك إخواني وإن لهم … حقاً به لو شعرتم لم تلوموني
فالعزل والنفي حباً بالقيام به … اسمى بعيني من نصبي وتعييني
يا شر من ضيق هذي البلاد بهم … ايذاؤكم فقراء الناس يؤذيني
ان الصعاليك مثلي مفلسون وهم … لمثل هذا الزمان الزفت خبوني

وقصيدته (العبودية الكبرى) هي خير ما انتج — في رأيي — وفيها نجد تعبيراً عما يتصف به مصطفى من انسانية صادقة ، وحب للشعب الفقير . ومناسبة القصيدة ، ان الشاعر كان في عام ١٩٣٣ رئيساً للكتاب في اربد ، فجاءه صديقه الفجري « الهبر » زائراً في الدائرة ، ولكن اخطأ ودخل غرفة المدعي العام ، فغضب وطرده وأوصى الجندي الذي يقف ببابه ان يلقي به

(١) الشيخ عبود النجار كان قاضياً شرعياً وصديقاً للشاعر .
(٢) عين ماء تقع الى الشرق من مدينة اربد
(٣) منطقه الكرك .
(٤) اسم بلدة اردنيه وكذلك (٥) و (٧)
(٦) وادي يقع بالقرب من بلدة وادي السير .

خارج الدائرة ، فذهب « الهبر » وشكا امره لمصطفى ، فكتب هذه القصيدة يعاتب فيها المدعي العام .

تبدأ القصيدة بلوم المدعي العام لمعاملته المتحيزة للزائرين في الوقت الذي يقضي « العدل » (ان تعامل زائريك على السويه). ثم يروي مالاقاه «الهبر» « من شطط بدار العادلية » وتعليقه على ذلك بقوله – اي الهبر – :

ويقول إن زيارة الحكام – لا كانت – ليه

ثم ينصح المدعي العام إن يكفر « عن تلك الخطيه »

وادخله حالا للمقام وفز بطلعته البهيه
ودع المراسم والرسوم لمن عقولهم « شويه »
فالهبر مثلي ثم مثلك اردني التابعيه

ثم ينتقل الى المقارنة بين فقر الهبر المادي وفقر الفئة المثقفة « للأباء وللحميه » :

يا هبر بي فقر كفقرك للأباء وللحميه
او ما تراني قد شبعت على حساب الاكثريه
واكلت بسكوتاً وهذا الشعب لا يجد القليه
ولبست اذ قومي عراة غير ما نسجت يديه

وينتقل الى مخاطبة الشيخ عبود معتذراً عن شربه الخمر معزياً، ذلك « ان الذي تسبى مواطنه تحل له السبيه ! » ولكن اقباله على الخمر لا يعني«ان الله وقف على فئة الشيوخ الازهريه »

ثم يذكر ما يمتلىء به قلبه من حب وشوق :

ان القدود المأدبيه (١) والعيون العجرميه (٢)
اشواقها ستظل في قلبي وإن ارديت حيه
ولسوف تبقى للصبابة في ثرى رمسي بقيه
وهواي سوف يظل يهزأ بالقبور وبالمنيه

ويصف بعد هذا حال الاردن بعد ان دخلها « العلج » وكيف انها فقدت الاشراق والجمال والخصب . ثم ينتقل الى رسم صورة لأمسية في الصحراء ، اذ تقبل الابل فتستقبلها النساء مناديات بصوت رخيم « حي هلا ، حي هلا »، وتقبل قطعان الغنم فيسوقها العبيد الى مراحها وهم يدفعونها صائحين « هـ..–.. س ». ثم ينهي القصيدة بقوله ان « الكذب سر تفوق الفئة السريه » وان « رهط الهبر قد بزالاماثل اريحيه » ويحذر الغبر الا ينخدع بالبنطلون وإن الذين يرتدونه إن الا هم مطايا لرواتبهم .

وفي وصفه للريف نلمس تعلقه بالبلد التي عاش فيها ، وندرك مدى ارتباطه العميق بالارض واعتزازه بارد نيته :

يا بنت وادي الشتا هشت خمائله — اعارض هل من وسمي مبدار
وثغرة الزعتري افتر مبسمها — عن لون خدك اذتغزوه انظاري (٣)
وسهل اربد قد جاشت غواربه — بكل اخاذ من عشب ونوار
ان الشاليخ في حصن الصريح لقد — حالت الى عسل يا بنت فاشتاري
دعي المدينة لا يخدعك باطلها — فزيفها بين من غير منظار
ما بعد خبيز وادينا وخبزته — وبض عكوبنا ميرلمتار (٤)
وليس ثمة من فرق بشرعتنا — ما بين راعي سحاحير وسحار
خداك يا بنت من دحنون ديرتنا — سبحانه باريء الاردن من باري (٥)

* * *

ولكن الحياة اخذت تقسو على مصطفى ولم تدعه يحقق مناه :

لابد للحرمين يوم يقول به — شرتي وراتبكم والعزل اسواء (٦)
ها رفدكم فخذوا .. بعداً لنائلكم — فانه وصمة تالله شنعاء

فعاد الى الوظائف الحكومية واخذ يرتقي بسرعة ، كما اخذت علاقته بالقصر تتوطد فاصبح في عام ١٩٣٨ (اميناً ثانياً) للامير ، ثم اذ به يتوجه الى مصر ويقابل مصطفى النحاس ويبلغه رسالة شفويه تتعلق بامور ملكية خاصه –كما تقول مذكراته – كما يقابل اشخاصاً آخرين بارزين في المجال السياسي ، ويلقي محاضرة في الجامعة المصريه عن « وحدة الوجود » .ثم نقل الى وظيفة كبير مفتشين بوزارة المعارف . وفي عام ١٩٤٢ عين حاكماً ادارياً لمنطقة البلقاء ، واستمر في هذه الوظيفة عدة اشهر انتهت بعزله وسجنه في ٨ تشرين الاول ١٩٤٢ .

في هذه الفترة ابتعد مصطفى عن الشارع ، وعن الحياة التي كانت منبع شعره وفقد الاتصال الحي المباشر بالاحداث ، فلذا نرى شعره في هذه الفترة يعبر عن غربة وضياع ومرارة ، واصبحت موضوعات شعره الرئيسية تتصف بالخوف من الموت والحنين الى الماضي ، كما اخذ يشك في قيمة الكفاح والمبادئ بعد أن رأى الامور تجري على غير رغبته :

كفرت بكل عاطفة لها بمبادئي نسبه
ورحت اظن ان الجري في حلب الهوى سبه
وعشت لغير تطلاب العلا والمجد لا أأبه
ابايع من يساومني على الترفيه بالنكبه .

وفي قصيدته « تذكارات » يقف الشاعر على اطلال بني عطيه ، وقد انصرف فتيانهم الى الجيش ، واندثرت تقاليدهم القديمة : الكرم والعزة والإباء ، كما ان جبالهم قد فقدت خصبها وتراثها فاصبحت جرداء عارية ، خالية من بيوت الشعر التي تحتضنها :

كان الاله بعون قومك يا فتاة بني عطيه
المطعمين الناس والطاوين في السنة الرديه
إذرمهم هضبانه شم وديرتهم عذيه
وسفوح شيحان الاغن بكل مكرمة غنيه
ما للفرنجة او لصاحبهم بها من اسبقيه (٧)
فوقفت فيها اليوم ابذل طاقتي من شاعربه
واريق في عرصاتها من ادمعي هذي البقيه

وفي قصيدة « هدى الاربعين » يقول :

أهوى ولات اليوم حين تصابي — وجوى وقد عمز المشيب شبابي
والاربعون بعون بعضها وقضيضها — جثمت مزمجرة قبالة بابي
يامي اشطان الخيال أرثها — متح الوقائع من معين سرابي
وأزاهر الشوق الملح احالها — لفح السموم تغضناً بأهابي

كما ان شعره في هذه الفترة قد اخذ يفقد الكثير من ميزاته القديمة ، وما كان يتميز به من قوة انفعال ، ومن قدرة على نقل الاجواء الشعبيه ، واصبح

(١) نسبة الى بلدة مادبا

(٢) نسبة الى قبيلة العجارمه .

(٣) الزعتري – موقع بقرب مدينة الساطل

(٤) الخبيز والعكوب – نباتان .

(٥) دحنون – شقائق النعمان

(٦) الشرة –كلمه عاميه معناها الحذاء البالي .

(٧) صاحبهم : هو جون باجوتجلوب ، قائد الجيش العربي الاردني انذاك .

طابعه كلاسيكياً تكثر فيه الكلمات الغريبه والتشابيه والصور المستجدة من الشعر القديم .

وعندما غادر السجن ، بعد ان قضى فيه سنتين ، في نهاية عام ١٩٤٢ — عاد الى مزاولة المحاماة والى الاتصال من جديد بالحياة . ولكنه وجد أن كل شيء قد تغير ، فالنور الذين كانت لياليهم متعة فنية خالصة بالنسبة اليه قد تحولوا الى مهنة بيع الاجساد ، وانصرفوا عن الحياة القديمة ، فيقول في قصيدته « جحش الهبر » :

لا حبذا الكاس ومن انرعه   ومن سقانيه ومن شعشعه
اين ليالي لهوك الممتعه   يا هبر ايام الصبا والدعه
أيام لم يكن فيكم رائجاً   سوق اجتلاء النهد والقنزعه(١)
جحشك يا هبر كعهدي به   ما زال الكن بدلوا البردعه

*

يا هبر اقصر انها جورعه   مقصورة عالحب والامعه(٢)
وكل من مد ذراعاً الى   سنبلها فليفتقد اصبعه

وفي قصيدته « بقايا الحان واشجان » وهي آخر ما انتج الشاعر ، نلمس اساه البالغ بتغير الاحوال ولخيانة الاصدقاء ، وضيقه بهذه البلدة التي اصبحت سيطرة التجار والبريطانيين عليها مطلقه :

قد تنكر لي اهلي وانكرني   صحبي واقرب من ادنيت اقصاني
فها كي كيتامى المزط لا احد   يرثي لحالي ولا انسان يرعاني
ولا يراني اهل الخير يوايدي   امدها لهم اهلا لاحسان
اقول هذا صديق صادق فاذا   بعد التجارب بي امنى بخوان

إن عزاءه الوحيد هو ان الفلاحين ، وبسطاء الناس ما زالوا على حالهم ، يحملون في اعماقهم الطيبة والاخلاص ، ويتحملون « نعمة الذل » كما يتحملهاهو

يا بنت وادي الشتاصرت جناديه   ورجعت جلهتاه الغر الحاني
فلا عليك اذا اقريني لبناً   وقلت خبزتنا من قمح حوران
اما السكاكر فلينعم بمأكلها   «صبري» و«منكو» و«توفيق بن قطان(٣)
وليحيى « لدجر » و «الكوتا» وطغمتها في ظل دوح من اللذات فينان (٤)
اما انا والمناكيد الذين هم   قومي وصحبي وندماني وخلاني
فحسبنا نعمة الذل التي نخرت   عظامنا واعزت ربع ...

ثم يقول :

قالوا تدمشق قولوا ما يزال على   علاته اربدي اللون حوراني
اليك عني القاباً واوسمة   قد ارهفت بضروب الخزي عنواني
رأيي لربي لن أطأطئه   ولن اذلك يا نفسي لديان
شمس العدالة لم تشرق على نفر   مؤلف من مخاريق وخرسان

(١) خصلة الشعر التي تتدلى على الجبين وهي كلمة دارجه

(٢) جورعه : هي الحبة التي يمنحها صاحب الارض للاقطات والفقراء ، عندما ينتهي من حصاد اراضيه .

(٣) صبري ومنكو وتوفيق بن قطان من كبار التجار المتوردين في عمان .

(٤) لدجر — كان موظفاً في السفارة الانجليزية في عمان ثم ترك الوظيفة واشتغل بالتجارة وانشأ مع بعض تجار عمان شركة طيران ما زالت قائمة حتى الآن ، اما « الكوتا » فهي كلمة اجنبية شاعت منذ الحرب الاخيرة في الاوساط التجارية ومعناها الحصه المخصصه للاردن من النقد الاجنبي او البضائع الاجنبية ، وكانت الكوتا سبباً في ثراء الكثيرين من التجار واغنياء الحرب الذين يعرض بهم الشاعر في هذه المقطوعة . (محمود المطلق)

فليتق الله بي شعب محبته   كانت وما برحت ديني وديداني
وليتق الله بي شعب وفيت له   حق الوفاء وبالنكران كافاني
على مذابح قولي سوف اسعده   ضحيت عمري فلم يسعد واشقاني
قضى اساطين حزبي يا اخي ومضوا فاشحذ مداك فاني اليوم وحداني
نحن الألى قد وفينا في مودتنا   يوم الرفاق تنادوا يا لقحطان
وعلقوهم على الاعواد ما علموا   ان العزائم لا تثنى بعيدان

ويصف الاستاذ محمود المطلق هذه الفترة من حياة الشاعر في مقدمة الديوان فيقول : « وفي هذه الفتره التقيت بمصطفى كزميل له في المحاماة ، فقد كنت قد تركت التعليم ، بعد ان حصلت على اجازة المحاماة في عام ١٩٤٤ ، وكان مصطفى قد افتتح مكتباً للمحاماة في عمان في فندق متواضع للغايه يدعى « اوتيل السعاده » وبينما كنت في صيف ١٩٤٥ متعطلا اتسكع في اسواق عمان وفي ابهاء محكمتها بلا عمل يذكر ، التقيت بمصطفى فعرض علي ان اشتغل معه في المحاماة فقبلت على الفور ، واصبحت في اليوم الثاني في مكتبنا الجديد المتواضع في اوتيل السعاده .

« كنت اظن مصطفى كثير الاعمال في المحاماة وأنه يربح من عمله أرباحاً طائلة واني بفضل ذلك سأتخلص من حياة البؤس والتشرد التي كنت احياها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عرفت ان ما نربحه من عملنا لا يكفي لسداد مصروفاتنا اليومية الضرورية ، وكانت الاعمال تتناقص والايراد القليل ينخفض حتى عجزنا عن دفع اجرة المكتب ، وكان رحمه الله يأتي الى المكتب في الصباح ، واذ لا يكون لدينا عمل ما ، يأخذ في الشراب ويمضي في ذلك الى ما بعد الظهر ، ثم يذهب الى البيت فينام ويأتي في صباح اليوم التالي الى المكتب فيتكرر نفس الفصل ، وهكذا مضينا على هذا المنوال حوالي السبعة او الثمانية شهور .

« وصارت الحياة تبدو لي مملة بائسة كما كانت في السابق ففارقت (اوتيل السعاده) الى عجاون وارتحل مصطفى الى اربد ، واخذت المأساة تدنو من نهايتها . في تلك الايام التي قضيتها مع مصطفى لم يكن يعنى بنظم الشعر ولم ينشر أية قصيدة جديدة ، ولم يقم بأي نشاط ادبي ، وكادت تبدو عليه علائم الانحلال الجسدي والانهيار النفسي ويغمره شعور جارف باليأس والمرارة وكره الحياة ، وكان المرض واليأس والشراب تعمل كلها على تهديمه وتقصير اجله .

« واخيراً هده المرض والهزال فذوى عوده ولم يعد يقوى على الحركة والاضطراب فلزم الفراش ... وكان الاطباء ينصحونه بالانقطاع عن الشرب فلا يذعن لنصحهم ويصر على ان الشراب هو الذي يشفيه وليس الطب .» (١)

وفي ٢٥ ايار ١٩٤٩ « مضى وهبي لطيته » ودفن في سفح تل اربد حيث اوصى :

يا اردنيات إن اوديت مغترباً   فاسجنها اربد بآبي انتن اكفاني
وقلن للصحب واروا بعض اعظمه   في تل اربد او في سفح شيحان
قولوا قضى ومضى وهبي لطيته   تغمدت روحه رحمات رحمان
عسى وعل به يوماً مكحلة   تمر تتلو عليه حزب قرآن

* * *

عندما غادر ابناء الفلاحين الفقراء وصغار التجار اكواخهم المبنية من (الدبش) والطين ، يحملون اسمالهم ، متجهين الى المدارس التي اقامتها نظارة المعارف في عشر بنيات هذا القرن ، كان ينبعث في نفوسهم امل صغير : ان يجعلوا حياتهم خيراً مما هي عليه ... ومع بذرات المعرفه الاولى تفتحت في

(٥) مقدمة الديوان . صفحة ١٣

نفوسهم آمالا رائعة : بأن يمتلكوا يوماً ما المصير ويمسكوا شؤون حياتهم وبلدهم بايديهم .

كانت الرغبة كبيرة لها سعة الحياة كلها في حركتها نحو المستقبل ، فعانقت كل ما هو حي وشريف ، واندفعت للامام ساخرة بالسجون والشجون والرصاص واكعاب البنادق وسياط الجنود البدو .

كان هذا هو المضمون الذي تناوله مصطفى وحوله الى شعر حي متفاعل يعود به للمعركة فيجري – متفاعلا – مع اعمق تياراتها . ولكن المشكلة التي كانت تواجهه وما تزال تواجه الكثيرين هي ان المضمون الجديد اكبر واشد حيوية من ان يسعه الشكل القديم والصياغة القديمة . فالشعر العربي اعهد طويل جداً قد تقوقع وفقد صلته بالحياة العامة ففقد التوهج والصدق ، فقد القدرة على التعبير المباشر عن الاحداث ، واصبحت نقطة انطلاقه الفكرة او المعنى ، لا الواقع ؛ فغدا جامداً بليداً لا يزيد عن كونه افكاراً صبت في قوالب ميتة . فاصبحت الخصور محشورة في الخواتم ، والارداف بحجم حجر الطاحون ، والشمس تطلع فقط لتلقي تحية الصباح على المليفه ، وتختفي في المساء مكسوفة من نوره وبهائه . ولم تعد الصور تثير اي تعاطف حقيقي من جانب المتلقي .

لقد حاول الشاعر ان ينفض عنه غبار التركة القديمة المعطلة للحساسية والانطلاق فخرج بعدة حلول :

اولا : الاستعانة بالعامية لنقل الانفعال والاجواء الشعبية . ولكن ذلك لم يكن يتأتى له بيسر ، فكان ينجح في ذلك عندما يكون انفعاله بالحدث قوياً ، وعندما يصبح الشعب هو الموضوع الذي يتناوله بالقصيدة . تجد ذلك في قصائده الكبرى : « يا جيرة البان » و « اهكذا حتى ولا مرحبا ! » و« توبة عن التوبة » ورائعته الشهيرة « العبوديه الكبرى » و « بقايا الحان واشجان » الخ ..

ولكن عندما يصبح الموضوع رسمياً ، لا يثير انفعالا حقيقياً نرى مصطفى يعود للقوالب القديمة والصياغة القديمة . ففي قصيدته (الحسن لا وطن له) يرد بها على الملك عبد الله الذي بعث اليه بقصيدة يلومه فيها ويداعبه على تعلقه بفتاة شركسية (اعجمية) يقول فيها الملك :

ناديت من (برفين) غير سميعه ... فاصرخ وصح ما شئت يا برفين

* * *

هبلتك امك كيف تمدح دمية ... برطانة ضحكت عليها الصين ؟

فيرد مصطفى :

(برفين) يا مولاي لاعثرت بكم ... في حلبة النظر السديد عيون

رعبوبة ومن المحاسن حسبها ... أن الفؤاد بحسنها مفتون

لقد حاول مصطفى ان يستفيد من العامية قدر ما يستطيع ، فحاول مثلا نظم عدد من الامثال في شعر فنظم المثلين العاميين : « البراطيل خربت جرش » و « حاكمك لاسمك » بقوله :

إن البراطيل قدماً خربت جرشاً ... والحاكم الفذ لكام لشانيه

كما حاول ان يستفيد من الاغاني الشعبية فنسج على منوالها قصيدة عنوانها (هب الهوا) وهي من اغاني الدراسين على البيادر اذ يغنون مقطوعات تبتدئ عادة بقولهم (هب الهوا) يقول فيها :

هب الهوا وشجاك ان نسيمه ... في ضفة الاردن ريح سموم

وأنا وانت اذل من وقد ومن ... عير باسطبل الهوان مقيم

والشعب عندهم اضيع من سائل ... قذر يمد ذراعه للئيم

* * *

زيتون برما رغم انفك داشر ... ما زال وهو كذاك منذ قديم (١)

هب الهوا وانا وانت يهمنا ... قبض المعاش بيومه المعلوم

وحكومة السفهاء لم نعرف لها ... وجهاً لهذا الموطن المشؤوم

باعوا البلاد وحضرتي وجنابكم ... لكن بلا ثمن الى حايم

ثانياً : كما حاول في بعض الاحيان التخلص من الصياغة القديمة كما نجد في قصيدته (يا حلوة النظرة) :

يا حلوة النظره
يا حلوة التقطيب
اليس معنى النظرة العابسه
ترمقني شزرا
او ترمق المشيب
اذ لا تثريب
على الذي بالقامة المائسة
يستنفد العمرا
يستعذب التعذيب
يا حلوة التقطيب

ثالثاً : استعمال الصور بدلا من التقرير ، كما في قصيدة «متى» التي نظمها وهو في السجن ، وقد أقبل العيد :

لقد هلّ الهلال ابن اثنتين فمن رأى منكم طيفه !
قبيل تقدم السجان يوصد كوة الغرفه
أجاء العيد وابتهج الصغار وابهجوا قصفه
فهذا نافخ بوقاً ، وهذا ضارب دفه
إذن لعبوا ... إذن طربوا ...
إذن قفزوا ... إذن وثبوا ...
كما يثب الغزال الغر وهو يطارد الخشفه
وكم زحلوقة زلوا
لها العينان تنهل
يقوم حيالها طفل
ومنها حظه اللهفه

ثم يقول :

واني واثق من أنها في هذه الساعه
ومن خلف الزجاج بأعين وكفاء دماعه
الى الشعرى العبور ترقرق العينين في لهفه
عسى أن يلتقي طرفي هناك بطرفها صدفه

على أننا لا نستطيع القول إن مصطفى قد انتصر على جميع العقبات ، هذا إذا علمنا أن ثقافته كانت مقصورة على الأدب العربي القديم تقريباً ، وأن المهمة هي مهمة جيل بل أجيال .

غالب هلسا

---

(١) برما قرية في اللواء الشمالي اشتهرت بالزيتون ، والمقصود هنا هو المثل الشعبي (زيتون برما داشر وتعيشوا يا همل)

«شهرزاد» توفيق الحكيم

بقلم فاروق خورشيد

« شهريار – دائماً هذه الارض : لاشيء غير الارض : هذا السجن الذي يدور . انا لا نسير ، لا نتقدم ولا نتأخر ، لا نرتفع ولا ننخفض ، انما نحن ندور .كل شيء يدور ، تلك هي الابدية ..
يا لها من خدعة : نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران .

شهر زاد – نعم انت تدور . وأنت الآن في نهاية دورة .. »

بدأت الدورة حين كان شهريار غضاً ندياً يحب الجمال، عذباً سلساً يحب الصفاء، شاباً صغيراً يعشق الوفاء .. وعاش شهريار ملكاً أقام الملك بينه وبين الهموم ستاراً كثيفاً .. وتحرك الزمن فاذ بصخرة ضخمة تعترض الجدول الرقراق واذ بمائه السلسال ينساب متفرقاً متبدداً ، فالملك الشاب الغض ، يفجؤه الزمن بامرأته بين احضان عبد .. وتثور دماء الشباب وتفور غضبة الملك ، وتنبعث صيحة الكرامة في نفس الرجل الصغير فيطيح برأس العبد وبرأس الزوجة ويطيح معهما بهنائه وسعادته. ويبدأ شيء جديد في حياة الشاب ، كفر بالعواطف ، وكفر بالمعاني ، وكفر بالمثل ، وبين سطوة الملك وسيف الجلاد مرت عذارى المملكة الواسعة ؛ عذارى كثيرات يقدمن بأجسادهن وأحلامهن وصفائهن على مخدع قاس لا يعرف الا أن الحياة غدر ، وأن المرأة قوية بدهائها ومكرها ، وان الوفاء هباء وان الثقة عبث وضعف . وفي الصباح يتولى سيف الجلاد اطفاء الاجساد والاحلام والصفاء .. ويذهبن كما جئن وقد اخفقن في ادخال بصيص من النور في هذا القلب الذي تحجر وفي هذه النفس التي انغمست بكل قوة في حياة الجسد وكفرت بكل قوة بحياة المعنى .

ويتحرك الزمن مرة اخرى .. وكالطيف تدخل المعرفة حياة الرجل الذي انضجته الشهوات .. رفيقة هادئة ، تدخل حسه وعقله في يسر وفي بطء .. وطاف الرجل الدنيا بخياله وعقله ، وعرف ان الحياة شيء كبير غير العواطف الصافية وغير الشهوات العارمة .. شيء آخر اسمى من العواطف وأقوى من الشهوات ، وعرف ان العواطف كانت عبثاً أضاع جزءاً من حياته في الوهم ، وعرف ان الشهوة قيد يربطه بالجسد ، بالمادة ، بالارض ..

وكان الرجل يحب بكل قلبه امرأة كايزيس فتنة ورفعة وكبيد بانضجاً وفهماً ووعياً .. وكان الرجل يشتهي امرأة ملكت ناصية الجسد . تعرف ان لها جسداً لا ككل جسد وتعرف أن شهريار يحب هذا الجسد ويريد هذا الجسد. وأحس الرجل ان هناك رباطاً يربطه بالعاطفة هو قلبه وأحس الرجل ان هناك رباطاً يربطه بالشهوة هو جسده .. وأحس أن كلا الرباطين يعوق حركته نحو المعرفة ويقيده بقيود من فولاذ بالارض.. ويمنعه من التحرك نحو الهدف ... نحو القمة . . . ويقف ناظراً نحو القمة وهو لا يصل تصطرع في اعماقه العوامل الثلاثة اصطراعاً ضخماً .. مرة هي « شهريار– أنت جسد جميل .. »

.. ومرة اخرى يعود الى رباطه الاول

« شهريار – انت قلب كبير .. »

ولكن يحس في المرتين انه اخفق ، فليست هي القلب الكبير ولا الجسد الجميل فما هي ؟ .. ومن هي ؟ ..

« شهريار – انت عقل وتدبير .. »

وتجيبه شهرزاد بهدوء وثقة :

« شهرزاد – كلا .. »

والصراع بين هذه العوامل الثلاثة مجسد في قمر الوزير الشاب يعيش الدنيا بعواطفه ، يحب في شهر زاد المعنى السامي والخيال الرقيق ، يعيش الحياة بقلبه ويفهم الدنيا بعواطفه .. وحياته كلها امرأة جميلة تعيش في خياله كالهدف ، كالغاية ؛ ويتحطم الهدف وتتحطم الغاية حين يرى العبد يخرج من حجرة شهر زاد ، ويمسك بيده سيف الجلاد يطيح برأسه هو عن جسده .. حياة هي الحلم . وعندما يطلع النهار تذوب الاحلام

« شهريار – لم يعد قمر يستمد الحياة من الشمس .

شهر زاد – لأنه لم يعد يؤمن بها »

والعبد الذي اتى من بلاد بعيدة استجابة لنداء الجسد الخفي ، عبد من الطين لا من النار ، يعيش حياة الجسد ، يفهم الدنيا بقانون الرغبة وحياته كلها جسد جميل تفوح منه الشهوة ويثير فيه الرغبة ، وهو من أجل الجسد يتخطى العقبات ويغامر برأسه، ولكنه حين يعرف انه كان ضحية من ضحايا شهرزاد ويواجه شهرزاد تهمس في اذنه :

« شهرزاد – ما الذي يمنعك من قتله ؟ »

وتثور فيه كل رغبات الحياة ، وتفور في نفسه شهوة الانتقام ونشوة الحقد :

« العبد – ايتها الخائنة : وقتلك معي .. »

اما شهريار ، الرجل الذي احب بقلبه ثم مر بالتجربة ، والرجل الذي اراد بجسده ثم دخل الى التجربة الجديدة ، تجربة المعرفة ، فهو هارب من جسده ، ومن الرباط الذي يربطه بالأرض ، هارب من شهرزاد الى الهند مرة ، والى مصر مرة ، وقدمه تحمله الى كل مكان ، ولكنه يواجه الحقيقة في كل مكان ..

(يتجه كثيرون ممن اقنعوا أنفسهم انهم يمتون الى عالم الأدب بصلة الى الاكتفاء ببقايا الجالسين على المقاهي في حوارهم المحموم حول الأدب والادباء زاداً يتزودون به ليقيموا على اساسه أحكاماً في تحطيم جهاد الأدب العربي في مطلع هذا القرن .. وقفزت الى الألسنة شهادات براقة وكلمات خطابية تمحو بجرة قلم جهد الجاهدين وكفاح الطامحين ..

ولذا لزم أن يتجه بعض نقادنا في هذه الفترة البانية الى محاولة دراسة هذا الانتاج دراسة تكشف عما فيه من جهد وعما يحمل من اتجاهات بعضها جاء تلقائياً وبعضها جاء نتيجة لدراسة متعمقة ..

وانا واثق أن هذه الدراسات ستزود جيلنا الأدبي بتاريخ قريب قد يكون على صلة بتاريخه الأدبي البعيد وقد يكون مهاداً لمستقبل أدبي مبني على واقعنا الأدبي لا على دافع غريب منقول ..

وبعد ، فان هذه المحاولة في دراسة شهرزاد لتوفيق الحكيم جزء ضئيل من هذا الاتجاه .. حبذا لو عم ..)

ف . خ .

يواجهها في مصر امام تمثال ايزيس ، ويواجهها في الهند امام تمثال بيدبا ، ويعرف ان الهرب عبث :

« شهريار – رحلتنا ، صه أيها الابله ! انا ما تحركنا بعد .

قمر – (ينظر في خوف) – مولا ي !

شهريار – لا تخف يا قمر . اتحسبني مجنوناً ؟ كلا لست بمجنون (يشير الى ساقيه) كيف تقول انا سافرنا وهذه الاوتاد تربطنا بالارض ؟ »

أين يهرب من حقيقته وهو آدمي ربطه وجوده بالأرض، ويحاول أن يهرب من جديد في خان أبي ميسور حيث الأنفاس المتصاعدة ، تبعث الخدر في الأجساد فينتهي الإحساس بها، وحيث ينطلق الخيال من عقاله فينفصل الإنسان عن الوجود .. ولكنه يواجه الحقيقة هنا أيضاً، فعلى الجدار سيف الجلاد الذي رهنه صاحبه لدى ابي ميسور لقاء جلسة مع الخدر ..

وتنتهي الدورة حين يقف شهريار على القمة ، القمة الباردة ، عاد من رحلاته كلها ، رحلته مع عاطفته التي انتهى منها عند الخيانة ، ورحلته مع الجسد ورغبات الجسد التي انتهى منها عند شهرزاد ، ثم رحلته مع المعرفة التي بدأت باحاديث شهرزاد الف ليلة وليلة ، ثم استمرت في جولته الطويلة في مصر والهند وكل البلاد ، ثم مرت بابي ميسور وخان ابي ميسور وخدر ابي ميسور وانتهت مرة اخرى عند مخدع شهرزاد ، والعبد يخرج من وراء الستار – ويقول له :

« شهريار – اذهب

شهرزاد – الا تقتله وتقتلني ؟

شهريار – كلا

العبد – (يخرج فرحاً بالنجاة)

شهرزاد – شهريار !

شهريار – لم تنظرين الي هكذا ؟.

شهرزاد – انت رجل هالك !

شهريار – اماكنت تعرفين ذلك من قبل .. »

وهنا تنتهي الدورة ، دورة التجربة والمعرفة والحياة ..

« شهرزاد – (كالمخاطبة نفسها) دار وصار الى نهاية دورة .

العبد – (يتحرك فجأة) استطيع أنا ان اعيده اليك .

شهرزاد – خيال : شهريار آخر الذي يعود . يولد غضاً ندياً من جديد . أما هذا فشعرة بيضاء قد نزعت ..

وتنتهي المأساة هنا، تنتهي بهذه النهاية التي يرسمها توفيق الحكيم لشهريار، لقلقه الكبير ، لصراعه المر مع نفسه ، مع عاطفته ورغبته وعقله .. مع القوى الكامنة المركبة فيه ، القوى الانسانية المحدودة التي تربطه بالارض .

لتكن شهرزاد من تكون ، لتكن كما قال جورج ليكونت كاتب مقدمة الطبعة الفرنسية « وماذا يهم اسمها وملامحها ؟ ليكن لها وجه امرأة ، أو وجه الحظ ، أو وجه العلم أو وجه المجد ، فلن تكون شيئاً آخر غير القمة البراقة التي تتجه اليها وتتهالك عليها مطامع الانسان ، والواحة التي تلهب ظمأه دائماً ولا تطفئه أبداً . والموضوع الذي لاظل للرحمة فيه ، حيث يتلاقى امله الرغيب ووهمه المتبدد ، وكلاهما وفي للآخر ذلك الوفاء الفاجع المحزن »

لتكن شهرزاد كما ارادها جورج ليكونت ، لتكن مجرد محور ارتكاز تدور حوله حياة شهريار ، ونقطة البدء التي يبدأ منها ليعود اليها .. ولتكن شهرزاد هي الطبيعة كما يقول توفيق الحكيم.

« شهريار – قناعها منسوج من هذا الصفاء . السماء الصافية . الاعين الصافية الماء الصافي ، الهواء، الفضاء ، كل ما هو صاف : ما بعد الصفاء ؟ ان الحجب الكثيفة لأشف من الصفاء. لتكن هي القمة ولتكن هي الطبيعة، ولكنها على أي حال القيد الذي يربط شهريار بالارض ، بالناس ، بالحياة . هي الخيط الذي يشده الى العاطفة والى الحب والى كل معاني الحياة الجميلة ، فهي الحب وهي القلب الكبير . هي الخيط الذي يربطه بالرغبة » هي البكر تعرف الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال ، هي الجسد الجميل ، وهي الرباط الذي يصله بالمعرفة ، بالعرفان ، هي السجينة في خدرها طول حياتها تعلم بكل ما في الارض كأنها الأرض » « أهي امرأتك تلك التي تعلم ما في الطبيعة كأنها الطبيعة ؟ »

هي جماع هذا كله : القلب والجسد والعقل، هي محور الارتكاز في صراع شهريار من أجل التحرر من قيوده ..

وحين يتحرر شهريار من الحب فيهرب الى الهند والى مصر ، وحين يتحرر شهريار من الجسد فينسى النمرة ويترك العبد حراً بعد ان يلقاه في خدر شهرزاد ، وحين يتحرر شهريار من البحث عن المعرفة اذ يدرك سر الطبيعة « كلما يكبر ترجع الى الصغر ، كل غاية تعقبها بداية ».. حينئذ يتحرر شهريار..

اجل يخرج شهريار من هذا الاسر الكبير ، من هذا السجن الضخم ، سجن الجسد والروح والعقل وعندئذ تقول له شهريار :

« شهرزاد – انت رجل هالك.

شهريار – اماكنت تعرفين ذلك من قبل ؟ .. »

* * *

بهذا تتفتح جوانب المأساة في شهرزاد توفيق الحكيم « الانسان بارادته المطلقة الكاملة وجهاً لوجه امام طبيعته التي تخضعه لغرائز وعواطف وافكار.. وهو يدور ، يدور حول نفسه ، حين يحسب انه تحرر من اسار ، يكتشف انه وقع في اسار جديد ، حين يظن انه حطم قيداً ، يعرف انه وضع نفسه مختاراً في قيد جديد ..

لقد قال جورج ليكونت في مقدمته انها مأساة المعرفة ، مأساة القلق الانساني الناجم عن البحث عن المعرفة .. وقد يكون في هذا تفسير للصراع ، ولكن صراع شهريار مع المعرفة نفسها ، مع حكايات شهرزاد ، مع رحلاته الطويلة ، مع جلسات الخدر ، مع شعوذات الساحر تظل بلا تفسير ، وهي تجد التفسير الكامل اذا دخلت المعرفة ضمن عناصر الصراع .. وتصبح المأساة هنا هي مأساة القلق الانساني مع قواه المحدودة ، مع هذه الحدود التي رسمت له ان ينفعل ويحب او ان يرغب ويريد أو ان يعرف ويدري .. هذه الحدود التي يدور فيها الانسان خالقاً لنفسه اهدافاً تتمشى مع مراحل صراعه ولكنها لا تحقق له ما يريد من حرية .. وهي مأساة الصراع مع الطبيعة ، صراعه هو الذي يتوهمه ويعيش فيه.

« شهرزاد – لا أظن انها تقارعك او تتكلفك. اما انت الا شعرة في رأس الطبيعة.

شهريار – كلما ابيضت نزعتها .. »

وشهريار في نهاية المأساة قد أبيض وشف ، قد احب ورغب وعرف ثم ابتعد بنفسه عن كل شيء : عن الحب والغريزة وادرك سر الطبيعة :

شهريار – انها تقارعني بسلاح العجز : السجن داخل حلقة تدور »

فحق للطبيعة ان تزعم وان تنحيه فقد خرج عن سلطانها ، عن قيودها ، عن اسارها.

« شهريار – لا أريد العودة الى الارض

شهرزاد – لقد قلتها يا شهرزاد – لا شيء غير الأرض.

شهريار – (يتحرك) وداعاً اذن يا شهرزاد

ويذهب ... يذهب شيئاً آخر ، شيئاً معلقاً بين السماء والارض .

يذهب وقد سكنت نفسه بلا صراع وبلا أهداف صغيرة ، وبلا تخبط



القلم والبندقية

أخي س .

أكتب إليك الآن ، والساعة تقارب السابعة مساء . وأنا أشعر براحة نفسية ، أود لو أستطيع تثبيتها وتحويلها إلى حالة دائمة .

عدت منذ ساعة تقريباً من ميدان الرماية ، حيث قمنا بآخر أعمال التدريب ، وحيث أظهر أفراد المقاومة الشعبية من المهارة ما ليس غريباً على جيل عربي مناضل ، يريد أن يكون أمتن الأجيال صلة بالأجداد المغاوير ، وهم من أشهر المحاربين في العالم .

ولا أكتمك أنني كنت ، وأنا أحتضن بندقيتي ، وأرسل رصاصاتي إلى قلب الدريئة (١) ، أفكر في شيء آخر ، قد لا يجد غيري صلة بينه وبين البندقية .

كنت أفكر في قلمي ، أفكر في هذه الآلة التي أعبر بها عن فكري ، وبالتالي عن شخصيتي ، عن وجودي .

القلم والبندقية : آلة الفكر ، وآلة الحرب ، آلة البناء ، وآلة الهدم . آلة الحياة والخلود ، وآلة الموت والفناء . ما هي الصلة بينهما ؟ ما وجه القرابة بين هذه الآلة الكبيرة الخطرة ، وتلك الهنة الصغيرة المبدعة ؟

(١) الدريئة : الاسم المستعمل للهدف عند العسكريين . وهي عندالعرب حلقة يتعلم عليها الطعن. وهو استعمالصحيح موفق .

أنا أكتب ، فأنا مفكر . وأنا مفكر ، فأنا موجود . عمل القلم يؤدي بنا إلى إثبات وجودنا على الطريقة التقليديةالمعروفة.

فهل نستطيع أن نثبت وجودنا بالبندقية أيضاً ؟ هل يمكننا القول : أنا مسلح فأنا أقاتل ، وأنا أقاتل فأنا موجود ؟ هل في مقدورنا أن نثبت وجودنا بمقدرتنا على إزالة غيرنا من الوجود ؟ هل يكون من أسرار الحياة العميقة ، أسرارها الكبرى ، أن إثباتها في كائن من الكائنات قد يكون بحذفها من الوجود في كائن آخر ؟

ولم لا يكون الأمر كذلك ؟ تفكيرنا ذاته إنما يدل على وجودنا لأننا — بواسطته — نقضي على فكرة العدم ، لأننا نخلق دليلا حياً ، دليلا ناطقاً ، على حقيقتنا المنتصبة في المكان والزمان تتحدّى العدم المنهزم ، العدم الصريع .

أنا المؤمن بالقلم والفكر ، وقوة القلم والفكر ، وعظمتهما ومقدرتهما الخارقة ، وقيمتهما الكبرى ، في نطاق المطلق ، لا بالنسبة إلى أي شيء آخر ، لم أجد غضاضة في أن أحمل البندقية وانتظم في الصفوف ، وأتدرّب على القتال ، وأعدّ نفسي للصمود في وجه أي عدو يفكر في اجتياح بلادي والقضاء على قوميتي . ماذا أقول ؟ لم أجد غضاضة ؟.. بل وجدت من باب الشرف والفخر أن أصبح جندياً من جنود المقاومة الشعبية ، وألاّ أتقيد بشرط السن فأرى أن سن الأربعين التي نص عليها القانون يجب أن ترفع إلى الستين . أنا في الخامسة والأربعين وأشعر بأنني شاب في ربيع العمر . ومتى كان الشباب يقاس بعدد السنين ؟ إنه روح وحيوية ، ومقدرة على النضال وبذل المجهود ، وإتيان أعمال متنوعة لا تصدر عادة الا عن الشباب .

أول وجه من وجود القرابة — اذن — بين القلم والبندقية هو إثبات الوجود ، إثبات الشخصية ، التعبير عن إرادة الحياة ذاتها .

فأنا — كمواطن — أحتل مكاناً في بلادي ، أكوّن لبنة في بناء قوميتي ، لبنة قادرة على التفكير ، قادرة على المقاومة . تكسب حق وجودها بطريقة ايجابية عندما تنتج فكراً ، أو أدباً ، أو فناً ، أو عملا بانياً ، عندما تخترع ، أو تبتكر ، أو تقتبس ، أي عندما تؤدي دورها الخاص بها في دعم هذا البناء وتقويته والزيادة في ارتفاعه ، ومتانته ، وجماله ، وشهرته ،

بين قيوده الانسانية التي وضعتها حوله الحياة .. يذهب وكل ما يتركه وراءه هو المرارة .. هو الضيق .. وهو اليأس ..

أكان توفيق الحكيم يريد ان يقول هذا حقاً .. أكان يريد أن يرسم بهذه الخطوط العريضة حيرة هذا الانسان العاجز وتخبطه ويأسه .. اكان يريد ان يقول ان الحب هباء والجسد هباء والمعرفة هباء .. وان الانسان عاجز امام هذه القوى وحسب .. ! لا أظن هذا .. بل أحسب ان توفيقاً أراد ان يرسم ما وراء هذا الصراع ما يلي انتصار الانسان على طبيعته .. فراغ ، قمة زائفة لا تستقر على الارض ولا تصعد الى السماء . وأحسب انه اراد ان يعبر عن حيرتي وحيرتك وقلقي وقلقك وتخبطي وتخبطك نحن ابناء البشر عبيد هذا الجسد بكل مافيه من عواطف ونوازع وقوى . ثم اراد ان يعبر عن هذا الزوال الذي يلقي على صراعنا المعنى الوحيد .. العجز .. عبث ان نتخلى عن طبيعتنا ، عن تركيبنا ، عن معنى وجودنا .. عبث لا شيء وراءه .

شهرزاد — خيال .. شهريار آخر الذي يعود .. يولد غضاً ندياً من جديد.. اما هذا فشعرة بيضاء قد نزعت .. »

القاهرة **فاروق خورشيد**

ورسالته الحضارية الخاصة به دون سواه . وتكسب حق وجودها بطريقة سلبية عندما تقاوم الغزو . والاجتياح ، والطغيان ، والاستعباد، والاستغلال غير المشروع ، عندما تقاوم الفناء وتساهم في حفظ بقاء الأمة ، وسلامة الوطن .

آلتها في الحالة الأولى القلم ، أو الريشة ، أو الإزميل ، أو الآلة باوسع معانيها ، الآلة –الاداة ، الآلة– الوسيلة .

وآلتها في الحالة الثانية البندقية ، أو المدفع ، أو القنبلة ، أو أي سلاح من الاسلحة المعروفة .

والوجه الثاني من أوجه القرابة بين الآلتين ، هو الإيمان بقوة الإنسان وعظمته –كانسان .

فأنا لولا إيماني بأن لدي رسالة أؤديها ، فكرة مفيدة أنشرها في الناس ، لوحة جميلة ترتفع بالناظر إلى أجواء علوية من المتعة والبهجة وفرح النفس ، لما أمسكت بقلمي ، ولما وضعت سواداً على بياض .

وأنا لولا اعتقادي بأنني قادر على حماية وطني والمحافظة على قوميتي ، وجدوى نضالي الخاص المنسجم مع نضال سائر المواطنين ، لما حملت بندقية ولا استعملت سلاحاً .

والوجه الثالث من أوجه القرابة ، هو وجه خاص ، يتعلق بمهمتي التي طبعت كل كياني بطابعها المتميز من غيره .

فأنا كمحام دائماً ، وكصحفي من وقت لآخر ، أرى في القلم –قبل كل شيء– آلة للدفاع عن الحق ومحاربة الباطل ، للدفاع عن حقوق الفرد وحقوق الجماعة ، ومقاومة طغيان الأفراد وطغيان الجماعات .

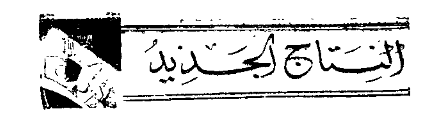
ولذلك كانت الحياة ، بالنسبة إلي ، تتلخص في معركة دائمة بين الحق والباطل ، بين الهجوم والدفاع ، بين العدالة والظلم ، وأنا أخوض هذه المعركة بكل ما أوتيت من قوة . حتى ليخيل إلي أن اكبر لذه يمكن الوصول إليها هي الاستشهاد في هذه المعركة .

وليس الفارق بكبير بين الدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات داخل الوطن الواحد ، والدفاع عن حقوق مجموعة المواطنين ، ضد أي اعتداء يقع عليهم من الخارج .

لذلك كانت البندقية في يدي كالقلم سواء بسواء . ولذلك رأيتني في ميدان الرماية احتضن بندقيتي بمثل القوة والمحبة واللذة التي أمسك بها قلمي ، ولذلك آمنت بان مقارعة الاعداء سلاحاً بسلاح ، تشبه إلى حد بعيد مقارعة الخصوم حجة بحجة ، وما دام ليس هنالك من محكمة دولية يترافع أمامها وتوصل كل شعب إلى حقه المشروع دونما تفضيل أو محاباة بين شعب وآخر ، فان البندقية ستبقى ضرورية للاقناع – للدفاع عن الحقوق قبل انتزاعها ولاستعادتها إذا كانت قد انتزعت .

وبعد فأرجو أن نلتقي في ساحة المعركة الفاصلة بين العروبة واعدائها ، واسلم – لأخيك

سعيد أبو الحسن المحامي



« الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة »

بقلم الدكتور محمد محمد حسين



هذا عنوان كتاب نشرته مؤسسة فرانكلين الأمريكية في العام الماضي . وهو يشتمل على مجموعة بحوث ألقيت في مؤتمر عقد بأمريكا في صيف سنة ١٩٥٣ ، واشتركت في الدعوة إليه جامعة برنستون ومكتبة الكونغرس . وقد شهده عدد من المسلمين من شتى بقاع العالم الإسلامي بين أندونيسيا والهند والباكستان وإيران والعراق وسوريا ولبنان ومصر . وكل هؤلاء قد اختارتهم أمريكا ووجهت إليهم دعوة خاصة للاشتراك في المؤتمر ببحوث إسلامية . وكان بإزاء هذا العدد من المسلمين عدد مساو له من الأمريكيين المشتغلين بالدراسات الإسلامية . ثم إن المؤتمر قد رأى من بعد ذلك أن ينشر عدداً مختاراً من هذه البحوث في كتاب ، فعهد بالإشراف على إخراجها وترجمة ما كتب منها بالإنجليزية إلى أحد اعضائه وهو الاستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . وقد قامت مؤسسة فرانكلين بطبع الكتاب ونشره .

والناظر في أسماء المشتركين في هذا المؤتمر ممن اختيرت بحوثهم للنشر ، يجد أن بعض هؤلاء المشتركين في المؤتمر من الأمريكان قسس يحترفون التبشير ، مثل الدكتور ميلر بروز أستاذ الفقه الديني الانجيلي في جامعة ييل . وقد كان اتجاهه التبشيري الهدام واضحاً كل الوضوح في دعاواه التي ساقها في مقاله للتشكيك في أسس العقيدة الإسلامية ، كالإيمان بالوحي ، والإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بصدق القرآن الذي أنزل عليه . ومن هؤلاء المبشرين كذلك الدكتور هارولد سمث أستاذ ونائب قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو . وقد كان هذا القسيس رئيساً لقسم الفلسفة والأخلاق بالجامعة الأمريكية في القاهرة — وهذا يكشف لنا عن ماهية الدراسات الفلسفية والأخلاقية التي يلقنها أبناؤنا في الجامعات الأمريكية . وبعض هؤلاء الأعضاء الأمريكان ، الذين نشرت بحوثهم في الكتاب ، من مستشاري وزارة الخارجية الأمريكية ، الذين يخضعون لتوجيهاتها السياسية ، مثل الدكتور روفائيل باتاي الذي كان مستشاراً في شئون الشرق الأوسط بقسم الشئون الاجتماعية بهيئة الأمم المتحدة ، ومثل الدكتور جون كرسويل الذي كان ملحقاً للعلاقات الثقافية ببيروت ، والدكتور هارولد ألن مدير قسم التربية بمؤسسة الشرق الأدنى ، الذي شغل مناصب عدة ذات صبغة سياسية في منطقة الشرق الأوسط ، فكان عضواً بإدارة التعليم بمنطقة القوقاز في مؤسسة إعانات الشرق الأدنى ، وكان بالمركز الرئيسي لتلك المؤسسة في اليونان ، وكان عضواً في بعثة منرو للتربية في إيران ، ومستشاراً فنياً ببعثة تموين الشرق الأوسط ، ورئيساً لبعثة اليونسكو في الدول العربية . ومن هؤلاء السياسيين الأمريكيين الذين شاركوا ببحوثهم في هذا المؤتمر الإسلامي كذلك الدكتور نبيه فارس ، الذي كان رئيساً للقسم العربي بإدارة المخابرات الحربية بمدينة يورك (وقد كان رئيساً لقسم التاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت) ، والدكتور تشارلز ماثيوز عضو قسم البحوث بشركة البترول العربية الأمريكية بالظهران ، الذي كان ملحقاً للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية الأمريكية في القاهرة .

على أن نظرة سريعة الى أسماء الباحثين الذين صدر بهم الكتاب ، تكفي لملاحظة أن الأمريكيين منهم قد اختيروا ممن قضوا وقتاً في الشرق الإسلامي ، وبينهم عدد كبير ممن تولى التدريس في الجامعة الأمريكية في بيروت أو في القاهرة . أما المسلمون فكثير منهم أمريكيو الثقافة ممن تلقوا دراستهم في فرعي الجامعة الأمريكية السابقين ، أو ممن أتموا دراستهم الجامعية في الولايات المتحدة نفسها . وبعضهم قد اختير لما يتوسم فيه من القدرة على توجيه التفكير في بلده ، كأن يكون أستاذاً في احدى جامعات البلاد الإسلامية ، أو وزيراً للمعارف في إحدى هذه البلاد ، أو رئيساً لتحرير إحدى الصحف بها . أما النزر القليل من الباحثين المسلمين الذين تبدو النزاهة فيما ألقوا من بحوث ، فقد استجلبوا لستر أهداف المؤتمر ، ليكونوا كنماذج البائع الغشاش التي يغطي بها بضاعته الفاسدة ، ليوهم المشتري أن كل بضاعته من ذاك النوع الجيد ، وليكونوا هم العسل الذي يستعان به على إخفاء مرارة الأباطيل ، والدسم الذي يخفي ما حشي به المؤتمر من سموم . على أن هؤلاء الأبرياء ممن تتصف بحوثهم بالنزاهة لم تخل كلماتهم من بعض الانحراف . فالأستاذ مصطفى الزرقا — وهو أحد القلائل الذين يتوسم القارئ خلال بحثهم الإخلاص — قد شغل نفسه بتبرير الأساليب العصرية السائدة ، مما يخالف الشريعة الإسلامية مخالفة صريحة . فأخذ ينتحل لها الأعذار ، ويخترع الحيل لتخريجها (مثل ما نجده في ص ١٥٦ — ١٥٩ في كلامه عن الحدود وعن الربا) . والواقع أن الناظر في بحث الأستاذ الزرقا يحس من خلاله روحه الإسلامية المخلصة ، التي تحاول أن تبرز مزايا الشريعة الإسلامية ، وتحببها إلى قلوب النافرين منها . ولكنه وقع فيما لابد أن يقع فيه عندما يلقى بحثه في مؤتمر غربي يتهم الشريعة الإسلامية بالجمود . فهو يحاول — عن حسن قصد — أن يشرح مزايا الشريعة الإسلامية ، ويوضح لهم ما تنطوي عليه من إمكانيات . وطبيعي في مثل هذه الحالة أن يشرحها من الزوايا التي تلائم العقل الغربي المعاصر — أو أهواء الغربي المعاصر — وأن يميل بقيمها إلى أقصى ما تحتمله النصوص نحو القيم الغربية . وبذلك يقع في الأحبولة التي دبرها له ولأمثاله الغربيون . فهو — في سبيل دفع تهمة الجمود التي يلصقها الغربيون بالشريعة — ينحرف إلى أقصى الطرف المناقض ، في بيان ما تنطوي عليه الشريعة من مرونة التطبيق ، حتى يبلغ بهذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات ، التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلا لأي نظام وتبعاً للأهواء . وبذلك ينتهي إلى إلغاء وظيفة الدين ، لأنه بدلا من أن يقوم عوج الحياة بنصوص الشريعة ، يحتال على نصوص الشريعة حتى يبرر بها عوج الحياة المعاصرة . وذلك واضح فيما ساقه في ختام بحثه (ص ١٦٠) عن لجنة القانون المدني المصري الجديد ، وعن تخريج الأوضاع الاقتصادية السائدة ، على أسس الفقه الإسلامي .

ومن الطبيعي أن يرد على الذهن في صدد هذه البحوث الأمريكية – كثير من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة تشفي قلق النفوس ، من العالمين ببواطن الأمور . فالمسلمون من أعضاء المؤتمر يشغلون مناصب خطيرة . فيهم الوزير ، وفيهم الأستاذ الجامعي . وقد سافر بعض هؤلاء من أقصى المشرق (في أندونيسيا مثلا) إلى أقصى المغرب (في أمريكا) . وأقام هؤلاء في أمريكا بضعة شهور ، يتنقلون بين ربوع الولايات المتحدة . ولاشك أن هذه الأسفار – لمن هم في مثل مستوى الأعضاء المدعوين – قد تكلفت نفقات طائلة ، يضاف إليها نفقات الإقامة الباهظة ، والحفلات والولائم التي لابد أن تكون قد أقيمت في كثير من المناسبات ، والهدايا والأجور السخية التي لابد أن تكون قد دفعت لكثير منهم عن الأحاديث والمحاضرات التي ألقوها خلال إقامتهم وتطوافهم ، وما أنفق على ترجمة هذه البحوث ، وما أنفق بعد ذلك على طبعها في ذلك الورق الفاخر الصقيل. إذا تأمل القارئ في كل هذا ، أليس من الطبيعي أن يسأل : لأي هدف تنفق كل هذه الأموال ؟ وإذا لاحظ القارئ أن كل هذه البحوث تعالج مسائل إسلامية لا تعني الا المسلمين – وإن آخر ما يرد على البال أن يكون المقصود بهذه الجهود الأمريكية هو فحص الإسلام ، تمهيداً للنظر في اختياره ديناً رسمياً للولايات المتحدة – أليس من الطبيعي أن يسأل : ما دخل القسس الأمريكيين والدبلوماسيين الأمريكيين في مشاكل الإسلام ؟

وإلى أن يقدم لنا العليمون ببواطن الأمور إجابة شافية عن هذين السؤالين ، لا بأس من أن نحاول تلمس الإجابة من بين سطور الكتاب .

من الأهداف الواضحة في هذا المؤتمر العمل على إيجاد ألوان من الروابط والعلائق ، باسم الصداقة والتعاون ، تحمي المصالح الأمريكية في البلاد الإسلامية من ناحية ، وتستغل في تأليب شعوبها على روسيا من ناحية أخرى. يجد القارئ هذه الظاهرة شائعة في الكتاب كله من أوله إلى آخره . يجدها في التمهيد الذي كتبه الدكتور بايارد دودج مدير الجامعة الأمريكية السابق في بيروت ، حين يشير إلى أن العلاقة بين المسيحية والإسلام كانت علاقة عداء ، وأن عليهما الآن أن يتحدا ليواجها المادية التي تحاول هدم الاعتقاد في القيم الروحية (ص ١٦) . ويجده في كلمة الدكتور ميلر بروز حين يتكلم عن القيم الروحية المهددة بالمادية والدنيوية (ص ٥٣) . ويجده في كلمة الدكتور هارولد سمث عند كلامه عن التفكير الإسلامي الذي (لا يمكن إطلاقاً أن يتفق والجبرية الاقتصادية أو التفسير المادي للتاريخ ، اللذين يعتبران أساسين في المذهب الماركسي – ص ٧٥) . ويجده في كلام الدكتور جون كرزويل عن اتفاق المدنية الإسلامية والمدنية الغربية في المثل الأخلاقية وفي الطبيعة الأساسية للأشكال الحضارية التي تتخذانها (ص ٢٠٥ – ٢٠٦) . ويجده في كلمة الدكتور كنيث كراج ، التي تدور حول إبراز عناصر الإلحاد في الفلسفة الشيوعية ، ولفت النظر إلى خطرها وإلى مطامعها التوسعية ، والتقريب في الوقت نفسه بين الإسلام والمسيحية ، وإبراز نقط الاتفاق في تعاليم الديانتين وروحيهما ، والتدرج من ذلك كله إلى اقتراح تعاون الإسلام والمسيحية في درء خطر الشيوعية (ص ٢٣٠ ، ٢٣١) .

ولكن الدعوة إلى هذه الصداقة تتخذ شكلا خطيراً تخطئه اللباقة في إخفاء المطامع الجشعة ، في كلمة الدكتور جون كرزويل الملحق الثقافي السابق في بيروت . فهو يعترف بأخطاء أمريكا وبأخطاء الاستعمار الغربي في العالم الإسلامي ، محاولا أن يبعث الطمأنينة بهذا الاعتراف في نفوس المسلمين . وبعد أن يشير إلى ما تستطيع أمريكا أن تقدمه من مساعدات اقتصادية ، وبعد أن يشير إلى ما يربط الإسلام والغرب من أواصر ، وما تلتقي عنده مثلها من نقاط ، بعد ذلك كله يتجه إلى هدفه ، وهو التنبيه إلى خطر المطامع الروسية ، واقتراح تنظيم هيئة مشتركة للدفاع عن هذه المنطقة ، مع ما يستلزمه ذلك من (البحث الجاد في العدد والإمكانيات العسكرية لكل دولة من الدول المتعاقدة . وإذا كانت هذه غير كافية في الحروب الحديثة ، وجب أن تكون هناك مساعدة وتوجيه من جانب الغرب في قيادة الجيوش وتدريبها وإعدادها . ص ٢٠٨ – ٢١٣) . ومثل هذه المطامع الجشعة واضحة أيضاً في كلمة الدكتور تشارلز ماثيور عضو قسم البحوث بشركة البترول في الظهران ، الذي كان قبل ذلك ملحقاً للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية الأمريكية في القاهرة – واعجب معي للصدف الغريبة التي ساقت أحد رجال وزارة الخارجية الأمريكية للعمل في قسم البحوث بشركة للبترول في قلب الصحراء . وقسم البحوث هذا شيء مريب تثير أعماله الشكوك وتدعو إلى التساؤل . فهذه الشركة – والمفروض أنها شركة للبترول فحسب – تقوم – حسب ما قرره هذا الموظف المسئول في كلمته – ببحوث تاريخية وجغرافية واقتصادية وجيولوجية وطوبوغرافية وطبيعية وقانونية ودينية في جزيرة العرب (ص . ٤٦) . ويرسم قسم البحوث الخرط لمختلف المواقع ، ويتصل بالناس من مختلف البيئات ، ويمارس هذه الجاسوسية التي تخفي نشاطاً حربياً مريباً تحت ستار البحوث العلمية (ص ٤٦٢) . وينقبون في كل مكان من شرق الجزيرة العربية والربع الخالي ، ثم يزعمون أنهم يفعلون ذلك بقصد كتابة تاريخ لشرق بلاد العرب من اقدم العصور ، وأن دراستهم قد كشفت عن تشعب البحث ، مما يستغرق وقتاً طويلا (ص ٤٧٧) . ألا يذكرنا كل ذلك بالخرائط والبحوث التي كان يقوم بها الجاسوس الإنجليزي المشهور لورانس ، والتي استغلت في الحرب العالمية الأولى ؟ ومع ذلك كله تنتحل الشركة لنفسها صفة غريبة ، حين تزعم أنها مسئولة عن أن تصور للغرب ماذا كان العرب في التاريخ ، ومن هم اليوم ، ومدى أهمية صداقتهم للعالم الغربي « الديمقراطي » (ص ٤٨٠) .

هذا هو بعض ما نقرأه في سطور الكتاب مما ألقي في المؤتمر . وقد لا يكون فيه خطر كبير ما دمنا يقظين ، وما دمنا نستطيع الاحتفاظ باستقلالنا الذي يمنعنا أن نكون ذيلا للشرق أو للغرب . فهو دعاية كالدعايات التي تبذلها كل الدول ، محاولة كسب الرأي العام في مختلف الدول إلى جانبها . أما الجانب الخطر من أهداف هذا المؤتمر فهو في الجهود المبذولة لهدم الإسلام أو تطويره وجعله آلة من آلات الدعاية الأمريكية والغربية . فهذه الصداقة التي تريد أمريكا أن تقيمها لتحل محل الصداقات الانجليزية والفرنسية ، التي تقلص ظلها عن هذه المنطقة ، إنما يقصد بها أن تكون هي الحارس الذي يقوم على حماية مصالحها المتعددة في الشرق ، بما تتضمنه من مواد أولية ومن أسواق . هذه الصداقة المنشودة تريد أمريكا أن تملأ بها الفراغ الذي أكثرت من الحديث عنه في هذه الأيام . والمقصود بهذا الفراغ هو الصداقة التي أقامتها الدولتان الاستعماريتان المحتضرتان – فرنسا وإنجلترا – ، والتي لا يزال سماسرتها أحياء يتلمسون الوسائل إلى الارتزاق على مائدة أمريكا ، بعد أن طويت مائدة انجلترا ومائدة فرنسا . هذه الصداقة المنشودة لا تقوم – إن قامت – إلا على اساس من المشاكلة والتفاهم المتبادل ، الذي تلتقي عنده وجهات النظر ، وتتقارب فيه الطباع والأمزجة . وهذه المشاكلة لاتقوم إلا بتقارب القيم الأخلاقية والاجتماعية . وهذه القيم لا تتقارب ما دامت الشعوب الإسلامية تعيش على قيم ثابتة تخالف قيم الغرب ، وهي قيم الإسلام . فلا بد إذن من أحد حلين : إما أن يمحى هذا الإسلام بتشكيك الناس فيه وفي الأسس التي يستند اليها ، ويحاصر بحيث لا يتجاوز نفوذه المسجد ، وبحيث يفقد سيطرته على مسلك الأفراد في حياتهم الاجتماعية ، وذلك عن طريق اقناع الناس بأن الدين شيء ومشاكل الحياة شيء آخر ؛ وإما أن يخضع هذا الإسلام

الإسلام للتطور ، بحيث يصبح أداة لتبرير القيم الغربية ، وتقريب ما بين الشعوب الإسلامية وبين الغرب . وهذا الطريق الأخير يكشف عن قوة هائلة لا يغني غناءها شيء ، إذا أمكن استخدامها كأداة لتحقيق الأهداف الأمريكية في اقامة علاقة ثابتة من الود والتفاهم * . على أن الأسلوب الأول بشقيه — هدم العقيدة من ناحية ، ومحاصرتها من ناحية أخرى — هي أصلح تمهيد لإقناع المسلمين بتطوير قيم الإسلام . فهذا التطوير لابد — لكي يثمر ثمرته المرجوة — أن يحدث بأيدي المسلمين أنفسهم . وهم لا يفعلونه إلا إذا ضعف يقينهم بالإسلام ، فاعتقدوا أنه يتعارض مع حاجات الحياة من ناحية ، أو تعودوا إهماله وعدم التقيد بالتزام قواعده في شئون الحياة من ناحية أخرى ، اقتناعاً منهم بأن دائرته لا تتجاوز شئون العبادات ، ولا تتعداها إلى المعاملات.

ونحن نجد صوراً من كل هذه الأساليب الهدامة في مقالات الذين شاركوا في هذا المؤتمر .

أما الدعاوى الهدامة التي يقصد بها إضعاف الثقة في الإسلام ، تمهيداً للقول بضرورة إعادة النظر فيه وتطويره ، فأنت تجدها في مثل مقالة الدكتور ميلر بروز ، حين يطالب بوضع (تجربة الدين) و (تجربة النبوة) والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث ، وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديثة ، التي تقوم على الحدس ، والتي تخضع هي نفسها للتغيير والتبديل . وهو بذلك يجعل التدين مسألة ذوقية وهمية ، ليس لها وجود حقيقي في خارج نفس صاحبها الذي يتذوقها (ص ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩) . بل هو يتطاول إلى أبعد من هذا فيتحدث عن أسلوب الله سبحانه وتعالى في العمل ، يريد أن يجعله موضع البحث والنظر (ص ٤٩) . وتجد هذه الدعاوى الهدامة كذلك فيما يسوقه هذا القسيس من مزاعم لا ترقى لأكثر من منزلة ما يسمونه الفروض العامية ، يسوقها على أنها حقائق ثابتة قد فرغ من صحتها وسلامتها ، ويقارن بينها وبين بعض الآيات القرآنية ، ليوهم بأن ما جاء به مخالف للواقع ، ويرقى من ذلك إلى القول بان الوحي ينزل بما يلائم الزمان والمكان ، ولهذا فهو في حاجة إلى المراجعة والتصحيح الدائمين (ص ٤٦ — ٤٧) . وتجدها كذلك في مثل ما يزعمه القسيس هارولد سمث من أن جميع الصياغات اللفظية نسبية . ومن ثم فهي غير معصومة ، ويجب تعديلها بين حين وآخر (ص٧٤) .

أما محاصرة الدين لتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شئون العبادات ، وإلغائها في المعاملات التي يقوم عليها تنظيم المجتمع ، فأنت واجدها في مثل عرض القسيس هارولد سمث الجذاب الخادع لما يسميه « نظرية ضياكول الب في فصل الدين عن الدولة » . وضياكوك الب هذا — كما يقول القسيس الأمريكي — هو (واضع الأسس النظرية للدولة التركية الحديثة . ص ٧٠ — ٧٣) . وتجدها في مثل قوله في نهاية بحثه : (إنه لو أمكن الإبقاء على الصلة بين الدين والدولة ، دون أن يؤدي ذلك إلى محافظة متعصبة تجرح وتبطل أي فكرة أو نظرية جديدة ، على أساس أنها معارضة للمبادئ الدينية المصطلح عليها او العرف الديني المألوف . ولو أمكن كذلك أن تخلص الصلة بين الدين والدولة من العصبية ومن السياسة الاجتماعية الرجعية . لو أمكن هذا كله ، لكانت هذه الصلة قوة حقيقية في المجتمع ... وفي رأيي أن على المخلصين والوطنيين من قادة المسلمين أن يزنوا أدق الوزن ما لهذا الموضوع وما عليه ، قبل أن يبرموا قرارهم في شكل متحجر يصبح من العسير نقضه — ص ٧٧)

أما الجهود المبذولة لتطوير الشريعة الإسلامية بحيث تصبح أداة لتبرير القيم الغربية وتقريب ما بين الشعوب الإسلامية والغرب ، فهي الغاية الأخيرة والهدف المقصود الذي يسعى اليه أصحاب المؤتمر ، وهي الدافع الأول لانفاق ما ينفقون من جهود ومن أموال ، وهي اللب والصميم من هذه الخطة ومن تلك التدابير . والأمثلة عليها كثيرة متراكمة تملأ صفحات الكتاب من أوله إلى آخره ، ولكنها متباينة تلبس أشكالا مختلفة . فهي تجيء تارة في صورة اقتراح موضوعات وطرائق للبحث ، على مثال ما نجده في مقال القسيس هارولد سمث حيث يقول : (إن وجهتي في هذا المقال هو أن استعرض بعض الاتجاهات الحديثة ، وأن أقترح طرقاً لدراسة النظرية الإنسانية المهمة في الانسان ... ولاشك أن القيام بهذه الدراسة على وجهها الكامل أمر متروك للعلماء المسلمين أنفسهم) . فمن الواضح أنه إذا سمح لقسيس أمريكي — وقد سمح له فعلا — بأن يقترح مواضيع البحث الاسلامي وطرائقه ، فمعنى ذلك أن توجيه الفكر الإسلامي قد أصبح في يد الأمريكيين ، بل في يد قسسهم . ومما يدخل في هذا النوع كلام الأمريكيين ومن جاراهم من المسلمين عن معضلة القضاء والقدر ، التي لا ينتهي البحث فيها إلى ثمرة أو نتيجة يقينية ، ولا ينتج إلا الخلاف والا صرف المسلمين عن الأخطار الحقيقية التي تهدد كيانهم ، إلى المناقشات البيزنطية والى القتال في غير ميدان . وكأن المسلمين قد تخلفوا واستعبدوا لأنهم قد جهلوا الحل الصحيح لمشكلة القضاء والقدر . وكأن حلها هو العلاج الحاسم لما يعانونه من آفات ، ولما يخضعون له من ضروب الاستعباد والاستغلال (تراجع لذلك أمثلة في صفحات ٤٨ — ٤٩ ، ٨٤ — ٩١) .

ومن أساليبهم في هذا التطوير أيضاً أن يستدرجوا المسلمين للكلام في نقاط معينة من نظم الشريعة التي تخالف ما استقر عليه عرف الناس فيما يجري باسم المدنية ، وذلك لكي يلجئوهم إلى تحريف نصوص القرآن والحديث ، والميل بها إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة . وأكثر ما نجد هذا التحريف في المرأة وما يتصل بشئونها ، مثل ما نجده في مقال الدكتور منير القاضي عميد كلية الحقوق ببغداد ، الذي يزعم أن الإسلام قد (أسس للمرأة حقوقاً في الحكم ، فلم يفرق بين الرجل والمرأة في سائر الأحكام ، ومنح النساء حق المبايعة لرئيس الدولة كالرجال) . ويستشهد لذلك بآية من آيات القرآن الكريم ، يوردها مبتورة على هذا النحو : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك فبايعهن)—ص١٢٩ . وتمام الآية الشريفة هو (يا أيها النبيُّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله . إن الله غفور رحيم — الممتحنة ١٢) . وواضح من الآية أن البيعة هنا هي عهد من النساء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتزام طريق الله المستقيم . ولا يمكن أن يستنتج منها أن الإسلام قد منح النساء حق المشاركة في انتخاب رئيس الدولة ، على ما يريده الباحث ، ليوافق به أهواء الأوربيين . وفساد قوله واضح كل الوضوح ، لأن رياسة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن قائمة على هذه البيعة ولا هي مستندة إلى انتخاب البشر ، ولكنها مستمدة من اختيار الله سبحانه وتعالى له ، واصطفائه من بين سائر خلقه . وشبيه بهذا المذهب في التحريف ما نجده في كلمة عقيلة الدكتور أحمد حسين سفير مصر في أمريكا عن (التطور الاجتماعي للمرأة في مصر) ، عند كلامها عن الحجاب والنقاب وتعدد الزوجات . فكلامها كله لا يقوم إلا على المجازفة وسوء الفهم والاستنتاج ، والاعتماد على ما كتبه الأوربيون من المزاعم التي لا تستند إلى دليل (٥١٧ — ٥١٩) .

ومن أساليبهم في التطوير كذلك — وهو أسلوب خبيث يخفى على أكثر الناس — بعث التاريخ السابق على الإسلام في كل بلد من البلاد الإسلامية .

---

* راجع كلام جوستاف فون جروينباوم ص ١٩٢ — ١٩٣

والكتاب الذي نعالجه يحتوي على مثالين لهذا الأسلوب في مقالي الدكتور كارلتون س . كون والدكتور جون .أ. ولسون (٣٨٩ – ٣٠١ ، ٣٣١ – ٣٤٢) . ستجد في المقال الأول صورة من اهتمام أمريكا بتوجيه المسلمين للعناية بالتاريخ القديم ، حيث يقول الدكتور كون (ومنذ الآن يجب أن يبذل علماء الآثار الغربيون جهداً مشتركاً لتدريب علماء الآثار المسلمين ، حتى يستطيعوا القيام بالعمل الذي يقومون به ... ويجب أن يبذل كل جهد ممكن للتأكد من أن هذه الأبنية والأهرام والتماثيل والنقوش سيحافظ عليها – ص ٢٩٧) . وستجد في المقال الثاني صورة مما بذله الغربيون من جهود في تأسيس علم الآثار وانشاء إدارات ومتاحف وطنية له في كل مكان (ص ٣٣٢ – ٣٣٣).والأمريكيون يهدفون بذلك الى تلوين الحياة المحلية في كل بلد من البلاد الإسلامية بلون خاص يستند في مقوماته إلى أصوله الجاهلية الأولى . وبذلك تعود الحياة الاجتماعية التي وحد الإسلام مظاهرها إلى الفرقة والانشعاب ، برجوعها إلى أصولها القديمة السابقة على الإسلام . فيستريح المستغلون من احتمال تكتل المستعبدين، ثم تكون هذه المدنيات الحديثة أكثر قبولا لأصول المدنية الغربية، ويكون كل شعب من هذه الشعوب أطوع لما يراد حمله عليه من الصداقات ، بعد أن تتفكك عرى الأخوة الإسلامية . وذلك هو ما لا يكاد يخفى في قول الدكتور ولسون (إن في بلا د الشرقين الأدنى والأوسط في هذه الأيام نهضة حضارية ، هي – من ناحية – جديدة . ولكنها – من ناحية أخرى – بعث للقديم . ومن المأمول والمتوقع أن النهضة العربية الإسلامية ستكون تأكيداً للقيم القديمة ، في نطاق الأحوال الشخصية – ص ٣٣٨) . وهو واضح أيضاً في كلامه عن (نهضة الغرب المسيحي) وحركة (إحياء المعارف) ، التي (قامت عمليات التفكير والجدل فيها على الأعمال الكلاسكية الوثنية) ، حيث قال بعد ذلك : (ونستطيع أن نعبر عن هذا بعبارة أخرى فنقول : لقد كان الغرب من الثقة بقوته الفكرية وبإيمانه الديني بحيث اتخذ اساساً لهمواد تنتمي إلى عصر سابق على المسيحية . وقد تمكن بالاعتماد على هذا الأساس القديم من أن يدرس نفسه ، ويختط سبيله للمستقبل . فهل يصدق هذا القياس على الإسلام ؟ ص ٣٣٨) . ومما يؤكد ذلك الهدف دعوة هذا الباحث إلى إلحاق إدارات الآثار بوزارات المعارف ، وتنبيهه إلى خطأ إلحاقها بمصالح السياحة ، وتعليله ذلك بأن (هناك حاجة ماسة إلى توثيق الروابط بين ميدان العمل الأثري وبين البحث والدرس في الجامعات – ص ٣٣٩ ، ٣٤٠) . ومن الواضح أن هدفه من ذلك هو تنشئة الأجيال القادمة على قيم تستند إلى أساليب الحياة والفكر في هذه الجاهليات التي عفى الإسلام على آثارها، وقام على أطلالها .

وإن شئت المزيد من الأدلة على أن هذا هو الهدف الحقيقي من التنقيب على الآثار القديمة ، فاقرأ قول المستشرق الإنجليزي ا.ر.غب في كتاب (Whither Islam) ص ٣٤٢ : « وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن . فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي أندونيسيا وفي العراق وفي ايران . وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا . ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية الشعوبية وتدعيم مقوماتها . »

هذا الاهتمام الشديد بالآثار يذكرنا بالنشاط المفاجىء لبعوث الآثار الأجنبية عقب الحرب العالمية الأولى ، وما صحب هذا النشاط من عرض روكفلر المغري المريب . فقد أعلن هذا الثري الأمريكي وقتذاك تبرعه بعشرة ملايين دولار لإنشاء متحف للآثار الفرعونية ، يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن . ويذكرنا هذا الاهتمام الأمريكي الجديد أيضاً بالمادة ٢١ من صك انتداب بريطانيا على فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو الصك الذي اصدرته العصابة التي كانت تسمى وقتذاك بعصبة الأمم . فقد بلغ اهتمام الغرب الشديد بالآثار وقتذاك إلى درجة إثباته في صلب صك الانتداب ، الذي تنص المادة الحادية والعشرون منه على (أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعادات).

وهذا هو الدكتور اشتياق حسين قريشي وزير معارف الباكستان – وقد كان أستاذاً للتاريخ في جامعة دلهي وعميداً لكلية الآداب بها – تقرأ بحثه في هذا المؤتمر ، فتجد فيه كلاماً عن حركة الإحياء الهندي في القرن الماضي ، وهي الحركة التي حولت العقل الهندي إلى مجد الهند القديم السابق على الإسلام في شتى نواحي الحياة ، من عمارة ، وتصوير ، وغناء ، ولغة ، وأدب . والدكتور قريشي ينسب نشأة التفكير في الباكستان إلى هذه الحركة التي ردت الهندي إلى قديمه الجاهلي ، وتركت المسلم يحس بالغربة ، التي لا مفر منها إلا بالفناء والذوبان في هذه الحركة الجديدة ، التي كانت تنظر إلى الفتح العربي على أنه قصة الإذلال القومي ، بينما كان يعتبره المسلم أوج مجد أجداده (ص ٤٣٦ – ٤٣٨) . ووصف هذا العالم الباكستاني المسئول لحركة الإحياء الهندي يكاد يكون صورة مطابقة لما كان يحدث في مصر وفي غيرها من بلاد العالم العربي والعالم الاسلامي . وهذا التشابه وحده لا يمكن أن نسوق إليه الصدفة . وهو دليل على أن هناك خطة مدبرة وراء هذا التوافق في الأسلوب وفي الزمن .

والواقع أن جهود الأمريكيين في تطوير الشريعة الإسلامية واتخاذ هذا التطوير وسيلة لتطوير المسلمين أنفسهم ، هذه الجهود على اختلاف صورها وأساليبها ، ليست إلا امتداداً لجهود الدول الأوروبية الاستعمارية ، وعلى رأسها إنجلترا ، فيما يسميه باحثوهم وساستهم بالتغريب (Westernization) ونستطيع أن نقدم صورة من هذه الخطة بلسان أحد ساسة الإنجليز المسئولين ، وهو اللورد لويد ، الذي كان مندوباً سامياً في مصر ، حيث يقول في كتابه الذي ظهر سنة ١٩٣٣ (Egypt Since Cromer ص ١٥٨ – ١٥٩)إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة – حسب تعبيره – تقف حاجزاً في طريق اي اصلاح تعليمي . وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني – والعبارة كلها هي عبارة اللورد لويد – ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلا جداً من مرونة التفكير والتقدير . فلو أمكن تطوير الأزهر – عن طريق حركة تنبعث من داخله هو – لكانت هذه خطوة جليلة الخطر . فليس من اليسير أن نتصور أي تقدم ، طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة . ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني (العلماني) ، الذي ينافس الأزهر ، حتى يتاح له الانتشار والنجاح . وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفي .)

وقد أثمرت هذه الجهود التي بذلها المستعمرون في العالم الإسلامي خلال قرن أو أكثر . وكان ثمرتها مجموعة من علماء المسلمين المتفرنجين الذين شاركوا في هذا المؤتمر ، من أمثال الدكتور فضل الرحمن الهندي ، الذي قسم الإسلام في بحثه إلى (إسلام كلاسيكي) و (إسلام حديث) « ص ٧٨ » ، ثم جعل في أقسام هذا الاسلام الحديث إسلاماً هندياً نسبة إلى السيد أحمد خان (أو السير أحمد خان) ، مؤسس جامعة عليكرة ، التي أنشئت – باعترافه – لنشر الإسلام الحديث المتأثر بالمذاهب الغربية (ص ٨١ – ٨٢) . وهي

الجامعة التي أنشئت في أول الأمر باسم « الكلية المحمدية الأنكليزية » (ص ٣٩٥) . وفضل الرحمن هذا ينادي بأن كل تغيير جديد في رأي الإنسان عن العالم ، يستلزم ترجمة جديدة وإعادة تقرير للحقائق الأساسية للعقيدة (ص ٩١) . ومن أمثلة هذه النماذج لثمار الجهود الاستعمارية أيضاً الدكتور آصف علي فيظي سفير الهند السابق في مصر . فهو يطالب بمناقشة (المعتقد اللاهوتي الذي يقول ان الله هو واضع القانون) ، ويقترح طريقة لنقد حديث للشريعة (ص ٣٨١) ، ويقرر أن قوانين الشريعة يجب أن تندثر أو تخضع لأساليب التقنين الغربي الحديث (ص ٤٠٧) ، ويقول ان التطور الأساسي للاسلام (لا تمكن المحافظة عليه سليماً إلا باعادة تفسيره وإعادة تقريره في كل عصر وفي كل مرحلة من المدينة) ، ويقسم تعاليم الإسلام إلى (عناصر دائمة) و (عناصر قابلة للتغيير) ، ويذهب إلى أن الإصلاح الحديث لما يسميه (اللاهوت الإسلامي) يجب أن تستفيد من الدراسات الحديثة في الفلسفة وفي علم النفس ، ومن الفكر الأوروبي والتفكير البروتستنتي والتفكير المدرسي المسيحي والتفكير اليهودي (ص ٤١١) .

وقل أن تجد بين المشاركين في المؤتمر من لم يضرب في هذا الميدان بسهم . فالدكتور منير القاضي عميد كلية الحقوق ببغداد يحرف الكلم عن مواضعه في القرآن ليميل بالقيم الإسلامية نحو القيم الغربية (ص ١٢٦ ، ١٢٧) . والدكتور صبحي محمصاني المحامي اللبناني يدور كل بحثه حول الدعوة لتطوير الشريعة الإسلامية ، والسير في قطار الحياة العصرية وتجنب المزج بين الدين ومعايش الدنيا ، ويسلك لذلك سبلا ملتوية . فهو تارة يشكك في أهمية الحديث الشريف ، وتارة أخرى يحقر التراث الفقهي ، وطوراً آخر يسفه المحافظين ويتهمهم بالجهل وبأنهم يقفون في وجه الاتحاد والأخوة الإنسانية . أما الدكتور نبيه فارس رئيس قسم التاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت ، فهو ينادي بأن الدراسات الإسلامية يجب أن تسير على نمط دراسات المستشرقين فيما يسميه (المنهج العلمي) ، لتميز بين الحقيقة والأساطير (ص ٣٠٤) . والدكتور محمد كفراوي ، السكرتير العام لوزارة الشئون الدينية في أندونيسيا ، يقرر أن وزارة الشئون الدينية إنما هي وضع استحدثته اندونيسيا ليكون وسطاً بين فكرتين متعارضتين ، هما النظام الإسلامي والنظام العلماني ، كما يصرح بأن الحكومة تعين المساجد والكنائس على قدم المساواة ، وتحمي النشاط التبشيري ، الأجنبي منه والأندونيسي (ص ٣٧٩) .

* * *

وبعد فهذه نماذج من الكتاب الذي نشرته مؤسسة فرانكلين وكتبت على غلافه (بحوث ودراسات إسلامية) . فهل يرى القارئ أن هذا الذي يحتويه الكتاب يصح أن يوصف بأنه بحوث إسلامية ؟

وهل أدرك القارئ من أسماء المشتركين في المؤتمر ، إن أمريكا جادة في أمركة الإسلام نفسه ، عن طريق الذين يحتلون مراكز القيادة والتوجيه في العالم الإسلامي ، وأساتذة الجامعات منهم خاصة ، وأساتذة الكليات التي تخرج المشتغلين بصناعة الكلام كالمعلمين والمحامين على الأخص ؟

محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث

بجامعة الاسكندرية



اغاني المعركة

مجموعة شعرية لابراهيم شعراوي

منشورات دار الثقافة العربية بالقاهرة

أنا لا أحاول هنا أن أتناول « إبراهيم شعراوي » الكائن اليومي الذي هو في الصيرورة والإمكان .. وانما الكائن المتحقق في انتاجه ، أعني الانسان الذي قيل عنه في مجموعته الشعرية : « أغاني المعركة » انه : « عرف القوانين العلمية لظروفه » ، فسار في قافلة الأدب الموجه ، وعد من بين أنصار « الواقعية » ، والتحرر ، والسلام العالمي .. والذي « يثق » — في الشعر خاصة — بأن القصيد : « لا يمكنه أن يضحي في زحفه الجديد بالكلمات المنغومة » مما « لا يجعله أبداً يبتعد داخل القوالب الجاهزة التي أعدت مقدماً كقضبان السكك الحديدية ليسير عليها .. » ؛ وفي كلمات مختصرة : الانسان الذي « يعرف بالضبط .. واجبه ومسؤوليته ، وطريقه » .

... وإذن فالسيد « شعراوي » من ذوي المبادئ بلا جدال .. فإلى أي مدى أصاب في التوفيق بين المبدأ وممارسة الابداع .. أو بتعبير آخر بين النظرية والتطبيق : في عالم الشعر بالطبع ؟! ..

الذي يغلب على ظني أن هذه « المجموعة الشعرية » التي نحاول تقييمها الآن تتيح لنا فرصة سعيدة لنعيد النظر مجدداً في كثير من قضايانا ومفاهيمنا .. :

فهل مجرد القول بأننا نؤمن بهذه القيم أو تلك كاف لأن يجعلنا حقاً من حملة القيم ؟.. أم أن المسألة لا يكفي فيها مجرد الايمان بالقول .. لأنها تتطلب الانتقال المتأني الضروري إلى مرحلة الايمان بالفعل حيث تتضح المفاهيم ، ويتاح لها أن تتعرض لمحك النقد الجدلي البناء ، لتكشف عن صمودها الحقيقي ، وفعاليتها الباقية ، أولا تكشف !..

« تعال بنا » إذن : نتفحص « أغاني المعركة » الاثنتي عشرة :

« الكنز » .. يقول لنا السيد شعراوي انه حلم وأطال الحلم « بكنز .. ورثناه عن الأجداد في ماضي الدهور » .. كنز قال عنه « جده » يوماً ما :

« إن هذا الكنز
مسحور مطلسم
سيفك السحر مصري بقلب يتألم
وحديد يتكلم .. بحروف من جهنم !.. »

وكان الناظم وقت ذاك يستنكر هذه « النبوءة » الغائمة ، فيقول :

« ويلك أمي .. إن هذا الجد يهذي ..
أحديد يتكلم ؟ .. »

... وتمضي أيام الجد .. أيام يقول عنها « الحفيد » الغر انها :

« مثل حلم مترف بالنور صخاب النشيد »

.. فإذا الحال غير الحال ، وإذا الأمس غير اليوم : :

« ورأيت السوط في ظهر ابن عمي
ورأيت الجند في بيت فتاتي
وحياتي نبتت كالشوك في عمق الصحارى
و « عيالي » (؟!..) عرفوا جوع الليالي .. والتشرد »

.. وهناك « عجوز » لعينة :

« .. لم تزل تنفث في عقدتها
وبعينيها دهاء »

.. فهي عجوز مطلسمة الشخصية ، غير محددة في الزمان والمكان ، أسطورية المعالم « كنبوءة » الجد المعقدة سواء بسواء !..

فاذا كان الشاعر يرمز بها إلى الاستعمار عامة أو البريطاني خاصة ، حيث أنها كما يقول :

« .. تتأبى ..
كيسها أتخم من تبر بلادي
من دمي ، من عرقي ، من خير زادي »

.. واذا كانت من المكر والعدوانية بحيث تنظر إلى « السد ! » (ولعل الشاعر يقصد سد أسوان ..) في حقد قديم وتقول :

« نحن نعطي بثمن .. والثمن :
عزة الشعب ، وتاريخ الوطن »

فكيف يكون رده عليها مجرد تكراره « لمقولة » جده الخالدة .. :

(« يا عجوز ..
إن خلف السد كنزاً قد ورثناه
عن الاجداد .. في ماضي الدهور
روحنا تحنو عليه وترفرف
قال جدي : « إن هذا الكنز
مسحور مطلسم
سيفك السحر مصري بقلب يتألم
وحديد يتكلم .. بحروف من جهنم ») ؟!..

إن المضمون الذي يمدنا به هذا القصيد لا يخدم المعركة بل يعوقها : فالشاعر يتمثل « تراث الأجداد » أي تاريخنا .. وإنساننا .. وأرضنا : كنزاً سحرياً

كقمقم سليمان !.. تتصرف فيه « عجوز شمطاء » مشعوذة .. ويرى أن كفاح الملايين المستميت لاسترداده مجرد تحقق « انبوءة » جده العجوز !.. فهو يهددها بهذه النبوءة في انفعال ساذج ، وينوه بمفعولها الترهي ، ومزاياها المدهشة حقاً في دفع الجموع إلى الظفر :

« جاء هذا اليوم يا شمطاء
قد جاء إلينا
فإذا الشعب تجمع
حانياً يرنو الينا

واذا المنطق أسطول ومدفع (؟!..) ؛ (كيف ذلك ؟.. إن المنطق هو حقوقنا المشروعة السليبة ، التي ندافع عنها « مضطرين » بالاسطول والمدفع .. وليس منطقنا هذان الأخيران بالذات !..)

.. وإذا كنزي القديم
وإذا الميناء والسد وأرضي والقنـــاه
كلها عادت إلى شعبي الكبير » !..

أيكون السيد شعراوي هنا من أنصار « النفاثين » في العقد من حيث لا يعلم ؟!.. : الذي أعلمه أن الاستعمار أجهزة اقتصادية واجتماعية مبنية على أسس صياغية علمية ، وليس هو مجرد عجوز هرمة تنفث في العقد .. وان القوانين التي تسير الشعوب في نضالها لا تستمد زادها من الأوهام والخرافات . وليس هذه القوانين علاقة ، أدنى علاقة ، بنبوءة جد السيد شعراوي التي لا وجود لها إلا في مخيلته .. وإن عالمنا وتراثنا أبعد ما يكون عن تصوراته العجائبية !..

أما « ثمن الحرية » فهو قصيد تقليدي الشكل والمضمون يمتاز بالأسلوب الخطابي العتيق .. ليس فيه من جديد على الاطلاق ؛ يبدأ بالحماس العنتري هكذا :

« اضربوا يا رفاق قد طفح الكيل بلا رجفة بغير تردد »
« واطلقوا ناركم عليهم ، على كل دخيل مدنس مستعبد » الخ ..

ويحاول الشاعر أن يتحلى بالحكمة الحصيفة فيقول :

... « والغزاة الألى أرادوا فنائي ، وأرادوا التراث أن يتبدد »
«كم لديهم من الأكاذيب ما يملأ هذي البحار ! والحق أخلد !!»

وإذا كنا نوافق على حكمة : « الحق أخلد » .. فكيف نصنع مع هذا البيت المهترئ :

« يا بلادي اتهنايي نحن قلب نابض بالهوى وعين مسهد » ؟!..

إنه اضطر لمسايرة القافية .. وإلا فكيف نطمئن إلى « عين مسهدة » تحرس بلادنا من الأعادي وهي نشوانة بدوار الأرق .. أحرص ما يكون على النوم الطويل في مجال يتطلب الصحو واليقظة ؟!..

هناك ملحوظة مهمة : ان اختيار عناوين القصائد « فن ». واختيار هذا العنوان : « ثمن الحرية » لقصيد لا يتجاوز الثلاثة عشر بيتاً اختيار غير موفق ، لأنه لا يتماشى مع روح القصيدة ، ومضمونها العام من ناحية .. كما يبدو من ناحية ثانية انه حميم العلاقة بالقصص والمسرحيات ، وليس بالقصائد الشعرية إجمالا ..

.. وفي قصيد « سأقاتل » .. نغض الطرف على تصريح شعراوي :

« إن تاريخي تاريخ (عرابي) » ...

لأن له مطلق الحرية في أن يحصر نفسه داخل محدودية هذا التاريخ ، ولا يقر بأن تاريخه هو تاريخ البشرية جمعاء !.. لنغرق في الدهش من مضمون هذه القصيدة ، فالشاعر يعزم على القتال ، ويحدد سقي المعركة : المعركة بالقلم .. والمعركة « بالبندقية » .. ثم يقول :

« وتحسست سبيلي للقلم
كان قد أغرق في بحر الظلم
كنت أدري أنني لم أتعلم (؟!..)
غير أن أبكي .. إذا الخطب دهاني
واحتواني
قبل هذا اليوم لم أحمل بكفي بندقية (؟!..)
غير أني سأقاتل . (!!)
علموني يا رفاقي » (؟..)

فاذا كان الشاعر يدري « انه لم يتعلم غير أن يبكي » فكيف يستطيع أن يكون من حملة الأقلام الكاتبين ؟!..

واذا كان لم يحمل السلاح قبل هذا اليوم .. (والذي نعلمه جميعاً أنه لم يحمله حتى اليوم !..) فكيف سيقاتل ؟.. إنه يستصرخ رفاقه كي يعلموه .. والمؤكد أنهم مشغولون عنه بتأدية واجباتهم الثقيلة .. فهل فكر الشاعر بدل أن يصرخ : « علموني يا رفاقي ! » في أن يعتمد على نفسه ، وينتقل من الصراخ إلى العمل ؟.. إن السيد شعراوي لا يزال مصراً على رأيه :

« قبل هذا اليوم لم أحمل بكفي بندقية
غير أني سأقاتل ..
كل ما أعلم أني سأقاتل (!؟..)
وسنقوى من خلال المعركه
فاذا مت بأرض التضحيه
فستحيا من ورائي أغنيه
وسيحيا وطني للأبد .. »

أما أنه سيقوى من خلال المعركة .. بغير دربة سابقة فهي معجزة حقاً ..
وأما أن « يموت بأرض التضحية » ، فلا إخاله يذهب ، والحال هذه ، إلا ضحية نفسه !..

ثم ننتقل بسرعة لنعلق دفعة واحدة على قصائد ست :

« الأمل » : إن التجربة الشعورية هنا تكاد تكون متكاملة لولا مقدمة القصيدة التي يستمرئ فيها الشاعر تمجيد « أناه » من خلال التنويه بأنغامه الشيقة ، و « علمه ! » على لسان أمه .. :

« إن أمي لم نزل تسأل أنغامي وعلمي (؟..)
إن أمي لم تزل تسألني (في) كل يوم :
كم سمعنا يا صغيري
أن في شعرك سلسالا وكوثر
انه أندى من الزهر وأعطر
وهو في الروعة كوثر (؟!..)
وهو أزهى من تصاويري وأنضر .. »

إلى آخر هذا الإطراء الذي نطالب ازاءه بمزيد من التواضع ، حتى يتخلص الشعر من الادعاء ، وينهنه الشاعر من كبريائه ..

..أعتقد أن الصيغة التقريرية التي ارتكن اليها الشعراوي في « تعريف الدستور » لأمه ، لا تضر بجمالية التساوق الشعري ، وان كنت أختلف معه في « مفهومه » للدستور ؛ وأنا أكتفي هنا بالإشارة إلى هذا الاختلاف «المفاهيمي» وأتركه معلقاً حتى تتاح لنا ظروف أكثر انعتاقاً ، نبلور فيها الاشكال .. أما قوله إن الدستور :

« سحر (؟!..) يحرس البيت اذا جن الظلام » ..

فهو لعمري تأكيد على تعلقه بدنيا المجامر والبخور ! ..

و « كفاح كينيا » : مقاطع مفككة تجتمع فيها المفارقات بلا مبرر ولا مناسبة .. وتقيم الدليل على أن صديقي شعراوي لم يدرك بعد وحدة المضمون ، ولم يتمثل إلى الآن كفاح شعب « كينيا » ، ومثل البطل الأفريقي « جوموكينياتا ».. أما قوله :

« أين جومو اشكو اليه عذابي ، أين جومو لأذكر الآلاما »

« أتراه يعود كالأمس فينا ، أم تراه بين الكؤوس استناما » (؟!..)

فهو من قبيل « التعديد » في نواح الضعاف الثكالى ، نرجو أن يشفى منه .. و « يا أخي في البعيد » .. الرنين الرتيب ، والأسلوب الخطابي ، ومامن جدة أو أصالة :

« إيه « وارسو » إليك يخفق قلبي يا بلاداً تنغم الخفقانا ! »

« قد رسمت السلام فجراً جديداً فتباركت ريشة ودهانا ! .. »

« قد رسمت السلام فجراً جديداً ذهبي الألوان حراً مصاناً » .

إن جانب « البروباغاندا » أو الدعاية واضح .. ولعل القصيد من « شعر المناسبات » الذي يحلو للمرحوم « علي الجارم » أن يكون من ذوي الباع فيه !..

أما « الصورة » .. : فهي مناجاة متشنجة لرسم فتاة يحلم الشاعر بأن ينالها ، والظاهر أنها من غير طبقته ، وليست من مستواه الاجتماعي :

« اتراك قد أدركت خلف إطارك الفضي

أني في عذابي .. سأعيش في الذكرى الحبيبه

وأظل أحلم بالغد البسام بالتبر النضير

بكنوز هذي الأرض من ماس إلى حجر كريم

من كل ما بهر العيون

لأسوقه لأبيك في خجل شديد

أترى يرق لسطوة الذهب العنيد ؟ »

لنسجل على الزميل شعراوي الذي « عرف القوانين العلمية لظروفه » أنه : أريستوقراطي الغرام ! .. »

أما « أغنية انتصار » : فلم أدر بعد أي انتصار حققه الشاعر فيها ؟.. وعلى « من » انتصر أو يريد الانتصار ؟.. ان العنوان : الذي هو بمثابة الإطلالة البؤرية على مضمون القصيدة ، غير متناغم مع القصيدة .. وليس في القصيد من تجربة شعورية معاناة من الداخل .. إنها مجرد تساوق لفظي مسطح وتلاعب بالتعابير المنسقة تنسيق المسطرة العروضية المتعثرة ..

فمن هذه التي يستجديها الشاعر أن تثأر له ؟.. ومن هو هذا المعتدي الذي « أفعم أزهار » سيارته : « بروث قذر » (؟!..) :

« لتثأري ..

من الذي يسكت قيثاري

ويصمي وتري

كلفحة من سقر

لتثأري من الذي يفعم

ازهاري

بروث قذر » (! !)

إن التجربة الشعورية المعاناة « في » الخارج مطلوبة عندما تكون طبيعة الموضوع وصفية أو قصصية .. وطبيعة : « أغنية انتصار » كما يبدو : طلب تواجد ، واستدعاء للمشاركة في قضية ثأر .. فالشاعر يدعو « فتاته » (كما يبدو من السياق) غير المتعينة المعالم إلى مناصرته في خصومة جد شخصية !.. فهناك « من » اعتدى على أشيائه الصغيرة .. (واسنا ندري من هو على وجه الدقة ! ..) فلم يكلف نفسه مؤونه الدفاع عن أشيائه بنفسه .. وإنما أخذ يصرخ كالأطفال المقعدين ، ويمني نفسه بالأماني البعيدة المدى :

بروث قذر ..

لتثأري من الذي يفعم ازهاري

وفجري حقدك فيه مثل

نصل الخنجر (! !)

لنلتقي سويقة في المنحنى المخضوضر

لنعصر الضياء من كروم القمر » الخ ...

وبينما الشاعر مستغرق في هيامه المديد مع « ثوب (فتاته) المشجر » و « التقاء الشفاه عند الشاطىء المنحدر ») ولا يفوتنا أن نلاحظ أن شاطئه كان « منحدراً » تماشياً مع المسطرة العروضية :

« وتخطرين كالشذى بثوبك المشجر

وتلتقي الشفاه عند الشاطىء المنحدر »)

بينما هو كذلك .. إذا به يذكر « النص المقدس ، المحفوظ عن ظهر قلب » فيحس أنه لا يكون « واقعياً » إلا اذا جعل « شعره ذا مضمون مستقبلي هادف ! » فيقطع تساوق هيامه بلفتة مستوردة من « الحافظة الواعية » :

« لتثأري من الذي يفرش لي

درب الهوى بالإبر

ويسكب السم بقلب الكوثر

ومن يطل في الدجى كالقدر

لكن خلف خطوة المدمر

كتائباً تسير للتحرر

يا غنوة ذابت بأشجى وتر » الخ ...

ويعود يواصل « انتصاراته » الخالدة منادياً :

« يا خالد توقيعي على قيثاري المزدهر »

بعد أن أبرأ « ذمته » .. وأدى واجب النص الهادف :

« لكن خلف خطوة المدمر

كتائباً تسير للتحرر »

وتصفق الجماهير « للتوقيع الخالد » أولا تصفق سيان ! ..

ولما يزل الشاعر المفتون .. – بعد هذا كله – مفتوناً « بنشيده » .. مفتوناً « بنصوصه » .. وإنه لينقلها هنا بحذق الممتلىء الوطاب بالإعلان ! .. :

« نشيد ثوب الغد المقبل أوشيك بالأمل الأنبل ! ..

وأجمع فيك رحيق الوجود من الأرض لا من خيال الخلي

من الزارعين من الصانعين من الراكعين لدى المغزل

من الحاصدين رقاب الطحالب بين الأزاهر والمنجل » (؟!.)

أنا أفهم أن يتباهى « شيلر » و « طاغور » و « الشابي » وغيرهم من الأصلاء ، بأناشيدهم ، لأنهم حفروا في أغوار الأعماق البشرية أبعاداً .. ورسخوا آفاقاً وظلالاً .. لا يخطىء « السبر » آثارها في نتاج الوجدانات المبدعة .. ومع حقهم في المباهاة لا نراهم يلجأون إليها ، لأن « أناهم » المتواضعة ، ليست بالأنا المتضخمة أو الوارمة ! .. أما أن يقوم بهذه العملية « ناظم » لم يستبن طريقه بعد .. فهو لعمر الحق ، ضرب من الإشادة « بأمجاد مهزومة » – كما يقول بودلير – يراد بها الإكثار من الغثاء ، في عالم يزحم مسالكه الغثاء ! ..

في قصيد « موطني » : يحاول السيد شعراوي أن يقدم لنا أغرب مفهوم عن محبة الوطن : فهو يجعل هواه لوطنه في تقابل حاسم مع « هوى العاشقين » ، ويريد أن يتسامى « بوطنيته » عن عواطفهم التي لا تقاس – في رأيه – بآماد

عواطفه الذاتية إزاء وطنه .. إنه يجعل « هوى العشاق » مناقضاً « لهوى الوطن » مناقضة لا يرجى رأب لصدعها !.. وإني لأسأله : لماذا يحب الانسان موطنه ؟ أليس لأن فيه رغباته البسيطة المشروعة ، وفيه الإنسانة التي يحبها ، والقيم التي يناضل من أجلها ، والتاريخ والتراث الذي يربطه به في « حميمية » كيانية ؟. أليس « هوى العاشقين » من ضمن الروابط الكثيرة التي تشد الإنسان إلى أرضه ومجتمعه ؟.. وماذا عساه يكون موطن لا ينعم فيه القلب بدفء الهوى ، ولذاذة التواجد بين الجنسين ؟!.. :

« أيا وطني أحبك لا كهوى العاشقين
فهم يعشقون الظلام
في حظه همسات القبل
ويصفو الأمل
ولكن حبك إشراقة
وصفو لروحي ، وترنيمة
وأغنية برة خالده
فأنت المنى ، وأنت الهوى »

أي عيب في « همسات القبل » و « صفو الأمل » يا شاعري ؟! ثم من قال أن كل « العاشقين » : « يعشقون الظلام » ، وأن هواهم جميعاً : « يأتي عليه الخريف فتذوي زهوره » ؟ .. أو هو : « كرحيق الكروم يدير الرؤوس » لأنه « الخدر الحالم » ؟!.. إن هذه ضروب من الإطلاقات ، وسلسلة من الحتميات المفتعلة .. فليس ضرورياً أن يتخلى الانسان عن جوعه الجسد ، وتوق الجنس ليكون من « رهبان » الوطنية !..

إن هذا النوع من محبة الوطن طوباوي .. لا يتسق مع مفهوم واقعي منضبط « للوطن ذاته » .. وإن الفنانين الذين عرفوا متع الحب ، ومسرات الهوى الصحي .. المشبع بالصحة ، هم الذين خلفوا لمجد الإنسان والوطن أعذب الألحان ، وانبل الصور .. ونحن نسوق لك في عدادهم : أراغون والز اتريبولية وبول إيلوار وإيودي تريفونوف .

* * *

عجيب أن يبدأ الشاعر مجموعته الشعرية بأسطورة ، ليختمها بأسطورة .. وإنه في هذه المرة يقولها عارية في « أغنية عيد الميلاد » :

« عالمي أسطورة رائعة
تتراءى من وراء الغيم » (؟!..)
« عالمي لم يعرف الخوف ولا
مزجت تربته بالكدر » (؟!)

إن عالمنا يا سيدي مليء بالأشلاء والنجيع .. عالم يسيطر فيه الحمقى على الطاقة النووية المدمرة ، ويهددون الكرة الأرضية بطوفان انهدام ذري شامل ، لا تشرق فيه الشمس على غير اليباب .. وأخيراً عالم يصرخ فيه : «كونستنتان جيورجيو » بالضمير العالمي قائلا :

(« إن الآدميين الذين لا يزالون على إنسانيتهم مرغمون على الاختفاء »)

اذكر يا سيدي : « هيروشيما » ، « نغزاكي » ، « بور سعيد » ، « الجزائر » وحاول أن تدلنا على عالمك الأسطوري الذي « لم يعرف الخوف .. ولا مزجت تربته بالكدر » ؟!..

.. غير أن هناك قصيداً واحداً في هذه المجموعة الشعرية ، تركته عمداً إلى النهاية . استطاع بعمق دلالاته ، وبساطة شفافيته ، وانطلاقه الوجداني المتوفز ، ان يرد إلي بعض العزاء في امكانيات أخي شعراوي الإبداعية .. إنه قصيد : « عصفورة » !.. دعونا نعب من ينبوعه العبقري :

« تخطري عصفورة الصباح
في نافذتي وسقسقي
وغردي بلحنك المنمق ، وصفقي ..
وذكريني كل صبح أن خلف الأفق
وخلف ليلي المطبق
كتائباً تسير للصباح في ترفق
وتنشر الضياء في رماد الغسق
وتبعث السلام في اللهيب المحرق
وفي القلوب عزمة تهدر في التدفق
وترتقي ..
جنادلا مخضوبة الناب بلون الشفق
عصفورتي !.. خوضي بأمواج
الفضاء الأزرق
وهومي ، وانطلقي
فثوبك الوردي لما يخلق ..
وحول جيدك الوضيء باقة من زنبق
وفي جناحيك بقايا نزق
فمثل ثوبك الأنيق في غد سأنتقي
لطفلتي ثوباً صباحي السنا والألق
وفي غد سيملأ النشيد كل الطرق
ولن نذوب من أسى أو فرق
عصفورتي ! هذا قطيع هائم ملفع
في خرق ..
في صدره المختنق . .
حشرجة من حنق ..
عصفورتي !.. يا طفلتي ! في المنحنى
سنلتقي !..
ليطلب الأطفال منك أن تسقسقي
وتخفق القلوب مثلما لم تخفق
على الأسى المنسحق !.. »

حقاً إن هذه الأغنية « إشراقة » نورانية بعد إعتام صفيق .. إنها في سذاجتها البريئة ، وصدقها الشعوري الضارب في جذور الأصالة .. تؤكد أن لا يأس من الإنسان .. متى حاول أن يدع المسطرة والفرجار جانباً .. وكذلك النصوص المحفوظة عن ظهر قلب بغير تمثل استقلالي .. ليتدفق من أعماقه الحقيقية .. نعم ! إن أطفال الغد سيرددون سقسقات « عصفورة » الزميل شعراوي .. وسوف يطيلون الترديد بمراح طافر !..

الآن وقد استكملنا جانب العرض والتحليل لكل قصيدة على حدة ، تتبدى لنا **بعض الأعتبارات والدلالات « النفسية — المنهجية »** (**Psycho - systématipues**) نظنها ذات قيمة في تتمة سداة هذه الدراسة .. فالحقيقة أن السيد شعراوي قد تسرع في إخراج هذه المجموعة الشعرية التي يبدو أن معظم حمولتها الشعورية قد ولد ميتاً .. وطبيعي أن لا نرجو من مثل هذا الإجهاض المعدم زاداً للمعركة ، أو إمكانية فعالة تساعف انتفاضات الملايين .. وإن المتصفح لمقدمة السيد « محمد مكي » يدرك بغير عناء أن جانب المسؤولية في مثل هذه المقدمة قد تخطى إلى نوع من المديح المنمنم ، والاطراء الطافح ، مما يجعلنا نتساءل عما إذا كان المقصود بهذا : خداع الجماهير ؟!.. ثم اننا لمسنا أثناء مناقشتنا لهذه المجموعة الشعرية برابطة الأدب الحديث ظاهرة متممة لمنحى

هذه المقدمة في النقد، فالظاهر أن هناك عصبة من « المتثيقفين » تفهم العملية النقدية على أنها نوع من التطبيل الإرهابي .. الذي يقرع صمام الآذان ولا يصنع من وراء ذلك شيئاً غير أن يملأ الفراغ !.. ونحن نعتبر أن هذه الظاهرة خطرة وإرهابية حقاً ، لأن ممثليها كثيرون .. والراجح عندي انهم من اولئك « المتمركسين » الذين يكتفون في حل المشاكل ببعض عبارات السباب والقذف .. فقد أصبح شائعاً بينهم أن يصفوا مخالفيهم في الاتجاه ، أو معارضيهم في الرأي ، بأنهم : « بورجوازيون حقراء » أو « وجوديون منحلون » !.. ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نسلك نهجهم هذا العجاب ، لأننا لا ننوي أن نخلص العالم من أحقاد الكبار ، لنزج به في أحقاد الصغار .. ولكننا نكتفي بتذكيرهم أن قضية « السلام » الذي يزعمون انهم من أنصاره لا تخدمها الأحقاد .. وأن « الحقراء » – بالرغم من فظاظة هذا التعبير – هم أيضاً « كالشرفاء » : مسؤولون !.. ولا يكفي في مجابهتهم – على فرض أنهم كذلك – مجرد السباب والقذف ..

.. صحيح أن الشعر الأصيل يصدر عن التجربة المعاشة .. ولكن التجربة المعاشة يجب أن تصدر عن « ثقافة » استقلالية معمقة ، و « تمثل » واع لما نتلقاه من الداخل والخارج .. ولهذا فهي عملية مركبة تستدعي السهر والجهد ، الأنفساح الشعوري ، واليقظة الذهنية .. وهكذا يبدو أن قضية الإبداع ليست في جوهرها إلا قضية الانسان ذاته .. أي قضية الفرد الذي يتفوق على داتيته ، ويحاول جاهداً أن يدرج بها في مرقاة الاطراد والاكتمال ، عبر تزاوج « الواقع – الزمن » بالواعية الخالصة .. اني أنتظر صادقاً أن يخرج علينا الزميل شعراوي بمجموعة شعرية أكثر اشراقاً ، وأقل ادعاء ، ولا أحب له أن يقول عن نفسه – أو يرضى بأن يقال عنه على الأقل – في التعريف الذي قدم به إلى القراء أنه « ساهم في تخطيط الأسس النقدية للأدب العربي » لأن هذا محض كذب واختلاق ، والذي أعامه أن الكذب في وضح النهار ليس مما يشرف الإنسان !..

القاهرة **الطيب الشريف**

مطالعات الاذاعة

بقلم عباس محمود العقاد

من مختارات وزارة الأرشاد القومي – القاهرة

هو كتيب بحجمه ، لكنه كبير بموضوعاته . فيه مقالات صغيرة ناضجة جامعة كان يلقيها الاستاذ عباس محمود العقاد في الاذاعة المصرية ، ثم جمعتها وزارة الارشاد القومي ليقرأها من لم يسمعها ، ويستعيدها قراءة من سمعها . وقيمة هذه المقالات تعود الى كاتبها الذي لا يزال يحتل قمة شامخة من قمم أدبنا وتفكيرنا في العصر الحديث .

والاستاذ العقاد يتميز بعقل جبار ، ومنطق قوي ، وقدرة فائقة على المطالعة ، والمناقشة ، لا يكاد يجاريه في ذلك أي أديب محدث . فهو اذا تحدث راعك بعقله ، واذا طالع لك قدم لك ما يطالعه ناضجاً واضحاً .

و للاستاذ العقاد مطالعات سابقة ، وتحليلات عليها رافقته منذ بدء حياته الأدبية . وانك لواجد أمثلة عليها غزيرة في كتبه : « الفصول ، وساعات بين الكتب ، ومطالعات » .

ومطالعاته التي بين أيدينا تتصف بالطرافة والايجاز المفيد ، لأنها كتبت محدودة بعمر أحاديث الاذاعة . ومن موضوعاته « الرسول في كتب الغرب الحديث» يتناول فيه آراء الغربيين في الرسول. وقد كان بامكان الكاتب أن يتناول – في حديث آخر – آراء الغربيين القدماء في الرسول لتحسن المقارنة بين جيلين مختلفين.

وله مقال في « الحالات النفسية بعد منتصف القرن العشرين » يحمل فيه على العلم النفساني الحديث الذي غالى كثيراً في رد كل علة ، وكل حالة الى الحالات النفسية ، وكل شيء يطغى فيه القلق والاسراف يفقد حقيقته وقيمته « والحمد لله على سلامة النوع الانساني من تلك العلل التي راجت باسم العقد النفسية ومركبات النقص وآفات الكبت والحرمان . فقد يختلف الناس في

النتاج الجديد

ضاق نطاق هذا العدد عن نشر كثير من مادة « النتاج الجديد » التي تتناول عدداً من الكتب الحديثة بالتحليل والنقد . فالى العدد القادم

الأذواق والأخلاق كما يختلفون في الملامح والقامات . وهذه هي الطبيعة ، وهؤلاء المختلفون كلهم طبيعيون »

ومن ذلك مقاله « مؤلفون شرقيون في لغة غربية » يرى فيه أنه دليل على شعور الغرب بأن الشرق قد تغير ، فعسى أن يعلموا أنه لم يتغير ليتأخر ، ولكنه تغير ليمضي في طريقه إلى الأمام .

وفي مقالة « الاستعمار والتبشير يتضاربان » يبين الأهداف الاستعمارية التي كانت تكمن وراء التبشير . ولا أجد أبلغ في توضيح هذه الفكرة من هذه الأغنية الشعبية التي يتغنى بها رجال الماوماو . وفيها يقولون عن إله البيض ان البيض جاءوا به معهم ليعينهم على اغتصاب بلادنا. وانهم يوصوننا بأن ننظر اليه في السماء، فاذا نظرنا اليه في السماء نظروا هم الى أرضنا، وتسللوا اليها فاغتصبوها.

وفي مقالة « تضامن الشرق ونهضة اندونسيا » يقول « ان النهضة قد أثمرت ثمرتها لأنها وصلت الى المرأة في خدرها ، فجعلتها عاملة في اصلاح الأسرة واقامة البيت على دعامة الحرية والكرامة . فلم تكد تتحرك الأمة للمطالبة باستقلال الوطن كله حتى تحركت المرأة معها للمطالبة بتدعيم البيت والأسرة ، ولا أمة بغير أسرة ، ولا أسرة بغير ربة تعرف ما لها وما عليها ، وتطلب حقها كما تؤمن بواجبها . »

ونراه يتحدث عن الوطن الافريقي – ولمن هو ؟ والوطن الافريقي مشكلة اليوم ، لأنه آخر الأوطان التي تيقظت للحرية والاستقلال ، ومشكلته التي يعانيها مشكلة أولئك الاوروبيين الذين سكنوا افريقية ، وعاشوا فيها بروح المستعمر . فما هو حل قضيتهم ؟ وهل يصح أن تبقى افريقيا مستعمرة خاضعة للغرب ، لأن فئة من الغربيين سكنتها واستعمرتها ؟

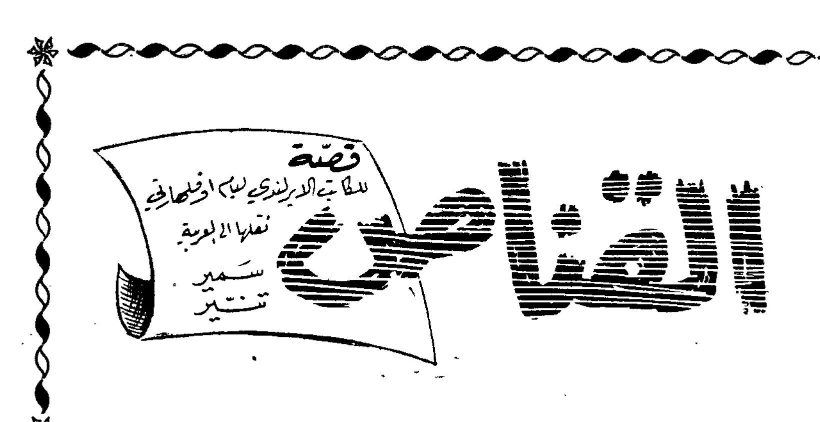
الجواب على ذلك «ان افريقية لن تصبح وطناً للمستعمرين الا بوسيلة واحدة ، وهي أن يصبح المستعمرون افريقيين كسائر الافريقيين ، وأن يجيء اليوم الذي يقفون فيه مناضلين عن افريقية في وجه المغير الأوربي ، كما فعل « الامريكي » في وجه بريطانيا ووجه اسبانيا ، وقد كان أجداده قديماً من البريطان والاسبان .

«وكذلك سيكون الوطن الافريقي في القارة كلها : وطناً افريقياً للافريقيين. ولا خيرة للسلطان الذي يعتز به المستعمرون اليوم في هذا المصير .. انها الخيرة لهم يومئذ أن يرحلوا من القارة أو ينتسبوا اليها.. افريقيين كسائر الافريقيين»

واذا تحدث عن « الانسانية من ماضيها الى مصيرها » وجد ان انسانية اليوم لن تكون – كما يسميها البعض – انسانية الصناعة الكبرى ، ولا عصرها عصر الطيارة وعجائب المخترعات ... ولا عصر الذرة والقذيفة الذرية ، وانما ستكون عصر الانسانية الذي أصبحت فيه الدعوة الى « الأخوة الانسانية» موضوعاً من موضوعات العلم والعمل ، وبرنامجاً من البرامج الواقعية التي يتعاون عليها الأقوياء والضعفاء ، ولا يستغني فيها قوي عن ضعيف . »

هذه أمثلة خفيفة مما تطفح بها هذه المطالعات الناضجة لا تغني القارئ عن مطالعتها ليستفيد منها ويفيد .

حلب **خليل الهنداوي**



كان شفق حزيران يكاد يخنقه الليل ، و « دبلن » تلفها الظلمة ، والقمر يلقي فيضاً من أشعته الناعسة التي اخترقت السحب الكثيفة ، كأنها اضواء الفجر المنعكسة على مياه نهر « الليفي » .

وحول حديقة المدينة ، كانت البنادق تزأر هنا وهناك ، والمدافع والرشاشات تئز في طرقعات خافتة كأنها نباح كلب في مزرعة بعيدة . كان الجمهوريون الاحرار يخوضون الحرب المقدسة .

وعلى سقف احد البيوت قرب جسر « اوكونل » اختبأ قناص جمهوري ، يراقب .وبالقرب منه بندقيته وحول كتفيه يتدلى منظار : كان وجهه وجه تلميذ ... نحيل ، ساذج . لكن عينيه كانتا تلمعان بوميض باهر . كانتا زرقاوين كصفحة الماء ، عميقتين كأنهما تموجان بالارواح ، عينا من تعود مواجهة الموت .

كان يأكل « سندويشاً » بشراهة ونهم ، فهو لم يأكل شيئاً منذ الصباح . وعندما انهى « السندويش » اخرج زجاجة الويسكي من جيبه فأخذ جرعة ، ثم ارجعها الى جيبه . وانصت لحظة مفكراً : هل يغامر باشعال لفافة ؟ كان ذلك خطراً . ربما رأى الاعداء بصيص اللفافة في الظلام ! ومع ذلك قرر أن يقوم بالمغامرة .

وضع اللفافةبين شفتيهواشعل عوداً من الكبريت ،آخذاً نفساً سريعاً ، ثم اطفأ عود الكبريت . وفي الحال أزت رصاصة فوق رأسه ، واصطدمت بسور السطح ،وبسرعة أخذ نفساً آخر من اللفافة ثم اطفأها وتحرك زاحفاً نحو اليسار .

وبحذر ، رفع نفسه متطلعاً الى ما فوق سور السطح ونظر . ولمعت رصاصة ثم أزت فوق رأسه . وانحدر بسرعة .. لقد رأى وميض الرصاصة . انها انطلقت من الجانب الآخر من الشارع .

وزحف الى المدخنة في مؤخرة السطح ، وببطء رقد الى جانبها ، حتى اصبح مرمى نظره في مستوى سور السطح . لم يكن هناك شيء يستحق المشاهدة ، ماعدا سطح المنزل القرميدي المجاور ، يعلو الى السماء الزرقاء.ان عدوه مختبيء هناك .

ومرت سيارة مصفحة على الجسر ، متقدمة ببطء الى الشارع ، ووقفت في الجانب الآخر من الطريق على بعد خمسين ياردة . كان القناص يستطيع سماع صوت محرك السيارة اللاهث . وخفق قلبه بسرعة . كانت سيارة للعدو . كان يريد ان يطلق عليها النار ، لكنه كان يعلم ان لا فائدة من ذلك . ان رصاصاته لن تستطيع اختراق الفولاذ القوي الذي يغطي ذلك الوحش الرمادي .

ومن زاوية الشارع الآخر ، اقبلت امرأة عجوز رأسها مغطى بشال ممزق . ثم اخذت تتحدث الى الجندي في المصفحة ، وتشير الى حيث اختبأ القناص ... المخبرة القذرة !..

فتحت نافذةبرج المصفحة الصغيرة ،وظهررأس وكتفا رجل.وتطلع الرجل نحو القناص .

رفع القناص بندقيته واطلق سيلا من رصاصه ، فسقط الوجه بشدة على برج المصفحة الصغير .

اندفعت المرأة تجري الى الشارع الآخر ، فاطلق القناص رصاصة ثانية . ودارت العجوز دورة سريعة ثم سقطت في قناة الشارع وهي تصرخ صرخات مدوية .

وفجأة دوت حوله رصاصة آتية من السقف المجاور ، فرمى القناص بندقيته وهو يسب ويلعن . واحدث سقوط البندقية قعقعة شديدة . وظن القناص ان ذلك الصوت كاف لايقاظ الموتى . ووقف ليلتقط بندقيته ولكنه لم يستطع رفعها ..

— يا الله .. لقد اصبت .

واسرع يزحف الى سور السطح ، وقد رفع يده اليسرى يتحسس ساعده الايمن . كان الدم يسيل من كم معطفه . لم يكن يشعر بالم ، انما هو شعور مميت ، كأن اليد قطعت .

وبسرعة تناول سكينه من جيبه وفتحها بواسطة سور السطح ، ثم شق الكم .. كان هناك ثقب صغير دخلت منه الرصاصة . اما من الناحية الاخرى فلم يكن هناك ثقب . لقد استقرت الرصاصة في العظم . ربما حطمته .. وثنى ذراعه تحت الجرح ، لقد انثنت بسهولة . واصر على اسنانه ليتغلب على الالم .

واخذ عتاد الميدان ، وفتح بسكينه علبة صغيرة ، ثم كسر عنق زجاجة اليود ، وترك السائل المر يسيل على الجرح . واحس بالم شديد يصهره ، فاخذ لفة القطن ووضعها على الجرح . ولف الجرح بسترته ثم ربط اللفة باسنانه .

وارتمى بعد ذلك الى جانب سور السطح ،مغلقاً عينيه ، صاراً على اسنانه ليتغلب على الالم .

في الشارع .. كان السكون شاملا . والسيارة المصفحة قد انسحبت بسرعة الى الجسر ، والجندي القتيل لا يزال يتأرجح ، بلا حياة على البرج . وجثة العجوز ملقاة بسكون ايضاً في القناة .

وجلس صامتاً لوقت طويل ، يداوي ذراعه الجريح ، ويضع خطة الهرب . في الصباح يجب الا يراه احد جريحاً على السطح .. ان العدو على السقف الآخر يحول دون انسحابه .. اذن يجب ان يقضي على العدو . انه لا يستطيع ان يستخدم البندقية ولكن معه مسدس ..وفكر بخطة .

خلع القناص قبعتهفوقفوهةالبندقية وألقاها ببطء الى سورالسطححتىاصبحت القبعة ترى من الجانب الآخر من الشارع . وفي الحال انطلقت رصاصة واخترقت القبعة

وامال القناص البندقية الى الامام ، فانزلقت القبعة الى الشارع ثم امسك البندقية من الوسط بيده اليسرى ورفعها الى سور السطح كأنها يدميتة بلاحراك . وبعد لحظات تركت يده البندقية فسقطت الى الشارع . ثم انحدر القناص ثانية الى السقف ساحباً يده وراءه .

وزحف بسرعة الى اليسار ، ونظر الى زاوية السقف . لقد نجحت حيلته . ان القناص الآخر بعد ان رأى القبعة والبندقية تسقطان ، ظن انه قتل عدوه . انه الان يبدو واقفاً ، الى جانب المداخن الفخارية ، ورأسه مرفوع الى السماء الزرقاء .

زارع الرعشات

ألف نهر في بلادي تسكب الخيرات سكبا
ألف سهل سندسي نام في صدري محبّا
رعشة الفجر ... وموجات الضياء
والعصافير مساء لازوردي الرداء
والصبايا المنشدات
في حقول القمح أحلى الأغنيات
عن غرام ، ساحر الأجواء أخضرْ
عن حبيب أسود العينين أسمرْ
في يديه .. كل باقات المنى ..
في رؤاه ... ضحك أيام الهنا
يزرع الرعشة في قلب الحجوله
يحصد البسمة من ثغر الجميله
أسمر كالحلم .. عذب كالليالي الدافئات
يعبر الأيام ضحكان كشلال الحياه
هو في أرض بلادي
مثل أعياد الحصاد ..
فرحة بالخير .. بالأرض الكريمه
بالزنود السمر تعطي كل قيمه ..
فرحة الام بميلاد الصبيّ ... في بلادي
فرحة الله ، وأيمان النبي .. أن ينادي
أسمر كالحلم .. عذب ، كالشفاه الدافئات
يعبر الأيام ضحكان كشلال الحياه
يزرع الرعشة في قلب الحجوله
يقطف القبلة من ثغر الجميله
ما أحيلاه ..
وما أحلى هواه

دمشق **م . كمال سلطان**

وابتسم القناص الجمهوري ورفع مسدسه ، الى فوق سور السطح . كانت المسافة بينهما حوالي خمسين ياردة . طلقة واحدة في هذا النور الباهت وينتهي الأمر . كان ساعده يؤلمه كأنه الف عفريت .

صوب القناص المسدس وارتجفت يداه ، واطبق شفتيه بشدة آخذاً نفساً عميقاً ملء رئتيه ثم اطلق النار . ودوت في اذنيه الطلقة وتراجعت يده .

وعندما انجابت سحابة الدخان اطلق القناص صيحة فرح . لقد اصيب عدوه . فقد كان يترنح على السقف الآخر في سكرة موته ، وهو يجاهد لكي يتماسك ، ولكنه كان ينزلق الى امام كأنه في حلم .. وسقطت البندقية من يده ، واصطدمت بسور السطح ، واستقرت على رصيف الشارع . ثم سقط الرجل ارضاً ، وتدحرج على السقف القرميدي ثم سقط من السقف الى الارض ، في صوت خافت ، ورقدت جثته هناك في هدوء .

تطلع القناص الى سقوط عدوه مرتجفاً .

ماتت في نفسه شهوة القتال .

وتصبب العرق في حبيبات على جبينه .

وبفعل جروحه ، وصيامه الطويل ، ومراقبته على السقف طوال اليوم ، ثم اصابته لعدوه ، وتحطمه شر تحطيم ، ارتجفت شفتاه باعياء ، وبدأ يحدث نفسه ، لاعناً الحرب ، لاعناً نفسه ، لاعناً كل الناس .

وتطلع الى المسدس في يده ، فرماه تحت قدميه ، وهو يسب ! وتدحرج لمسدس الى الارض وانطلقت منه طلقة مرت بجانب رأسه ، وتمالك القناص حواسه ، بفعل الصدمة ، وسيطر على اعصابه وطارت من عقله سحابة الفزع ، فاطلق ضحكة مجلجلة !

وأخذ زجاجة الويسكي فافرغها في جرعة واحدة واحس بالدوامة تلف رأسه في عنف وبالغيبوبة تطبق على عينيه . لقد قرر في تلك اللحظة ان يغادر السطح وان يبحث عن قائده .. كان كل شيء صامتاً ، ولم يكن هناك خطر ما من التجول في الشوارع .

والتقط مسدسه ووضعه في جيبه ثم تسلل الى المنزل . ولما بلغ الشارع احس بفضول عجيب لمعرفة عدوه الذي قتله . وقرر انه يجيد الرماية كائناً من كان . وتساءل ان كان يعرفه . ربما كان واياه في فرقة واحدة ، قبل ان ينقسم الجيش على نفسه . وقرر أن يذهب ليلقي نظرة عليه . وتطلع الى زاوية شارع « اوكونل » ، كانت هناك طلقات تئز كأزيز البعوض ، ولكن هنا كان كل شيء هادئاً .

واندفع القناص الى وسط الشارع ، وفي الحال مزقت طلقات مدفع رشاش الارض من حوله . لكنه استطاع الهرب . ورمى بنفسه منبطحاً على الأرض بجانب الجثة فتوقف المدفع الرشاش ..

واقترب وئيداً ...

وامتدت يده ببطء تقلب الجثة ...

ثم تحجرت عيناه وهو يحملق في وجه اخيه ...

ترجمة : سمير تنير

النشاط الثقافي في الغرب

الاتحاد السوفياتي

اهرنبورغ يهاجم ويدافع ...

نشر ايليا اهرنبورغ في الشهر الماضي مقالين هامين في مجلة « ليتيراتورنايا غازيتا » يبسط فيهما « وجهة نظره بشأن اتساع الثقافة السوفياتية ومستقبلها » وهو يتوجه الى جمهورين في وقت واحد : الى القراء السوفيات الذين يتكاثر عددهم ويشكون من « قلة الكتب الجيدة » التي صدرت في الاتحاد السوفياتي في هذه السنوات الأخيرة . وهو يرد كذلك على المثقفين الغربيين الذين « لا يمكن اعتبارهم في عداد المدافعين عن الرأسمالية » ولكنهم تحت تأثير « بعض الأحداث ... يعبرون عن شكوكهم » ويبدو أنهم «مستعدون للانقلاب على اصدقاء الأمس ، بل على ما يشكل مركز وجودهم بالذات » .

ويقول اهرنبورغ :

« في الصيف الماضي ، حين كنت اقرأ الصحف الغربية واناقش مفكري الغرب ، لاحظت لديهم قلقاً متزايداً . لقد رأى بعض الكتاب والعلماء والفنانين إننا نشجب عدداً من اخطاء ماضينا ، فبدأوا يضعون موضع الشك جميع ما حققه المجتمع والثقافة السوفياتيان . » وبعد ان صرح اهرنبورغ بان الرأسماليين لا يعترفون قط باخطائهم ، يتابع قائلا : « إن بعض الادباء الغربيين الذين يرتابون الآن باوضح الوان نجاحنا وأجلاها ، كانوا منذ خمس سنوات شديدي الاعجاب بكل ما كان يبلغهم من بلادنا ، بما في ذلك ، الروايات الرديئة والافلام التي لا قيمة لها . فكأنهم مراهقون خاب ظنهم بالحب .. وحين كنت اقرأ مقالا مدحياً عن رواية شبه شعبية او عن بعض لوحات رسام ساذج ، او عن فيلم « سقوط برلين » كنت احني ، اكثر من مرة ، مأخوذاً بالدهشة : كيف يستطيع اناس يحبون الفن ويفهمونه ان يعجبوا بمثل هذا الانتاج ؟ اما اليوم فان عدداً كبيراً من اولئك المتحمسين بدأوا يكتبون عن انعدام القيم في الثقافة السوفياتية .. إن الاشتراكية ليست ديناً ، وانما هي قائمة على العقل والعلم وحس العدالة .. وينبغي الا تكون ثمة علاقة مشتركة بين حب المجتمع السوفياتي والثقافة السوفياتية ، وبين العقائدية .. إننا لا نريد حباً اعمى ، وانما يستحق شعبنا وثقافتنا حباً ذكياً واعياً . »

ثم يطلب اهرنبورغ من المثقفين ألا يفقدوا حس المتطورات التاريخية ، والا ينسوا الصعوبات الهائلة التي واجهها الاتحاد السوفياتي منذ اربعين سنة : « فان جميع انتصاراتنا ، وجميع هزائمنا . مردها الى اننا نبني بيتاً جديداً بدلا من ان نكتفي بترميم القديم . » ثم ذكر ان ثلثي الشعب السوفياتي كان امياً عام ١٩٢٠ ، وان جميع الروس الآن يحسنون القراءة والكتابة، وان التعليم الثانوي أصبح منذ العام الماضي اجبارياً على جميع الشبان في الاتحاد السوفياتي . ولذلك يستطيع الجميع أن يتذوقوا الادب والفن : « لقد أصبح الكتاب عندنا امراً ضرورياً جداً . وفي اجتماعات القراء التي تعقد في المكتبات العامة ، يستطيع العامل الميكانيكي والدكتورة والعاملة الصغيرة ان يتناقشوا جميعاً . فليس بينهم تلك الهوة التي تفصل المثقفين الغربيين عن الشعب . »

واستطرد الكاتب السوفياتي الى القول انه « ينبغي الاعتراف بان بعض الكتاب أختاروا الطريق الأسهل في السنوات الماضية . اما اليوم ، فلا تجد الكتاب يخشون بدائية القراء ، بل إن هناك كثيرين من القراء يضحكون بمرارة من بدائية بعض الروايات او المسرحيات .. إن علي ان احضر غالباً اجتماعات القراء ، فأجد العمال والطلاب والمهندسين وربات البيوت يتحدثون عن الكتب خيراً مما يتحدث عنها كثير من نقادنا .. وجميعهم يطلبون ادباً أغنى مغزى واوفر عمقاً وتعقيداً . »

ويقر اهرنبورغ بانه لم يظهر ليون تولتسوي آخر في الادب السوفياتي ولكنه يضيف انه لم يظهر كذلك بلزاك آخر او ستاندال آخر في الادب الغربي في الاربعين سنة الماضية . وغياب مثل هذه الوجوه في الطرفين ليس له في نظر اهرنبورغ معنى واحد. فانه يرد تهمة «التصلب» التي اتهمت بها مجلة « اسبري » الفرنسية الادب السوفياتي ويلقيها على الادب الغربي . وهو يرى ان في الغرب « ازمة شيخوخة » وان في الاتحاد السوفياتي « ازمة نمو » ويلح على هذا الاختلاف قائلا : « إن شق الطرق الجديدة ، والاكتشاف ، اصعب كثيراً من تحسين نماذج مكتسبة . »

على ان اهرنبورغ يعترف باسباب بعض الصعوبات الحالية التي يواجهها الادب السوفياتي . فبعد ان يرد في ذلك على اصحاب نظرية « الفن للفن » ويؤكد ان على الكاتب ان يكون « متحيزاً » كما هو شأن دانتي في « الملهاة الالهية » وستاندال في « الأحمر والاسود » يهاجم المفهوم « الاداري » administrationniste للأدب، هذا المفهوم الذي تجري عليه منذ عشرين سنة دور النشر والنقاد السوفيات . فقد حل محل نظرية « غياب الصراع » التي ذاعت منذ سنوات ، « مانوية » ليست خيراً منها على الاطلاق . ويؤكد اهرنبورغ انه لا يكفي ان نعارض اشخاصاً طيبين كلياً باشخاص رديئين كلياً ، ولا ان نزن في كل رواية « نصيب السكر ونصيب المر » فالواقع اشد من ذلك تعقيداً .

ويقول أهرنبورغ إن من الواجب ان يقبل السوفيات على ترجمة الآثار الغربية إقبالا كبيراً لأنه لا يخشى على الشعب السوفياتي « الراشد » . وهو يرى من المضحك مهاجمة النقاد الفنيين الذين اثنوا على « الانطباعيين » الفرنسيين الذين عرضوا لوحاتهم اخيراً في موسكو .

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

« معركة الجزائر » ايضاً ...

من الطبيعي ان يستمر بحث قضية الجزائر في الصحف والمجلات ، ادبية كانت ام سياسية ، ما دامت الحرب قائمة في الجزائر ، وما دام القتلى يسقطون كل يوم من الجانبين ، وما دامت روح الاستعمار الفرنسي هي التي تقود سياسة الحكومة الفرنسية الحاضرة ..

وطبيعي ايضاً ان تنقسم هذه الصحف في الرأي ، ما دامت الدعاية الحكومية مستمرة في تشويه الحقائق وتضليل الرأي العام الفرنسي عن الحقيقة والواقع . على ان هناك عدداً من الصحف الحرة التي تنظر الى القضية نظرة حق وتجرد وانسانية ولعل أهم هذه الصحف صحيفة « فرانس اوبسرفاتور » الحرة التي تنشر وثائق ورسائل تحاول ان ترسم للقارئ الفرنسي حقيقة الوضع بالجزائر . ثم تأتي صحيفة « اكسبريس » التي يعالج فيها الكاتب الفرنسي الكبير فرانسوا مورياك قضايا الجزائر باستمرار ، فيبدو احياناً صريحاً واحياناً اخرى متحفظاً .

وقد نشر مورياك في العدد الاخير من « اكسبريس » (رقم ٢٩٧) مقالا اورد فيه رسالة لاديب فرنسي جزائري الأصل تعرفه جميع الاوساط الادبية لما له من نشاط وتأثير في مجرى الادب الفرنسي المعاصر ، وهو جان عمروش الذي يعتبر من اكبر المطلعين على القضايا الادبية الحديثة ، والذي يتابع القضية الجزائرية متابعة مستمرة ويهتم بذلك البلد الذي كان مسقط رأسه . وكان مورياك قد كتب في عدد سابق كلمة توجه فيها الى زعماء جبهة التحرير الوطني في الجزائر ان يقبلوا التفاوض مع فرنسا ، وان يتراجعوا عن المطالبة بالقومية الجزائرية . فكتب له عمروش رسالة يقول فيها : « إن مطالبة جبهة التحرير الوطني بالتنازل عن مطلب ليس هو فقط اهم مطلب من مطالبها ، بل هو حجر الزاوية وركيزة جميع المطالب الاخرى ، نقصد التنازل عن القومية الجزائرية ، هذه القومية التي تعيد للشعب الجزائري وجوده كشعب وشرفه كشعب – إن ذلك ليس طلباً للتنازل ، بل انه يعني ان على الجبهة ان توقع الى الابد ، او الى سنوات طويلة ، الوثيقة الرسمية لموت الشعب الجزائري . ونحن نرى انه ينبغي للجزائر قبل كل شيء ان تكون الجزائر ، او ان تكون بكل بساطة ، وان يعترف بها على انها غير فرنسا ، وانها أجنبية عن فرنسا ، وان تنبثق من العدم السياسي والقومي ، هذا العدم الذي اسقطها فيه الغزو والاحتلال الاستعماري .. صحيح اذ ذاك سيكون نهاية « اخوة » وهمية ، ولكنه سيكون كذلك بدء علاقة جديدة تستطيع الصداقة فيها ان تقوم بين اجانب ، على اسس مساواة جديدة ، لا على اساس علاقة السيد بالعبد ، او علاقة المعلم بالتلميذ . »

اما صحيفة « فرانس اوبسرفاتور » فما تزال تنشر وثائق هامة عن فظائع المستعمرين الفرنسيين في الجزائر . وكان آخر ما نشرته رسائل كتبها جندي فرنسي شاب ، يدعى جان موللر **J Muller** قتل في كمين نصبه الجزائريون . وتقول الصحيفة إن فظاعة الاعمال التي يسردها الجندي في رسائله أمر واضح . وقد شاء اخوه ان يحقق في هذه الأعمال ، فوجد اربعة عشر من زملاء اخيه القتيل مستعدين للشهادة بصحة الاشياء التي اوردها ، وكلها تدل على ان المستعمرين لا يتصورون ان يعاملوا الجزائريين معاملة انسانية ، لأنهم يعتبرونهم في درجة الحيوان ، وهذا ما دفع سكان الجزائر الى ان يثوروا دفاعاً عن شرف انسانيتهم .

الولايات المتحدة

فولكنر يحاضر ...

دعي الكاتب الاميركي الكبير وليم فولكنر الى القاء عدد من المحاضرات في الادب ، طوال خمسة أشهر في جامعة فيرجينيا . وبعد أن القى محاضرته الاولى صرح بقوله :

« لقد أصابني الذعر من الحضور ! »

والواقع ان ملك السويد وجميع اشراف ستوكهلم قد أخافوه عام ١٩٥٠ حين تسلم جائزة نوبل ، اقل مما أخافه الستة عشر طالباً الذين سجلوا اسماءهم لحضور دروسه . وقد قال فولكنر إنه يشك في أن يكون لهذه المحاضرات اي تأثير على الاديب المتمرن . « ولكن من يدري ؟ هل هناك أية أهمية لغرفة مدفأة بالنسبة لروائي ؟ قد يكون الجواب نعم أحياناً . لأن بعض الادباء عاجزون كل العجز عن البقاء في غرفة باردة . »



فولكنر

وقد سئل فولكنر لماذا اختار جامعة فيرجينيا بالذات ، فأجاب : « لأن جميع سكان فيرجينيا من « السنوب » . وانا احب « السنوب » . فأنهم بحاجة الى وقت طويل جداً ليمارسوا نزعتهم السنوبية ، حتى لا يبقى لهم دقيقة واحدة لكي يبعثوا الضجر في نفوس معاصريهم . »

وقد عرض فولكنر في محاضرته الاولى آراءه بالأدب الاميركي المعاصر ، وكان مما قاله : « إن الاديب الاميركي لا يكتفي بان يتمنى التفوق على صديقي همنغواي او صديقي دوس باسوس ؛ ولكنه يود ان يكون اعظم من سرفانتس او دستوفيسكي . وليس فينا من هو في عظمة هذين الاخيرين . لقد أخفقنا ، وليس في الفن درجة في الفشل . فاما ان ينجح الكاتب او ان يخفق »

اما اعظم الكتاب الاميركيين في رأي فولكنر فهم « توماس وولف وفولكنر ودوس باسوس وكالدويل وهمنغواي . وهذا التعدد متحيز ، وهو يمثل تدرجاً في التقييم . فوولف هو اعظمهم ، لأنه كان اجرأهم ، وقد حاول ان يلم تاريخ القلب الانساني كله على رأس دبوس . »

اما في اوروبا فيرى القراء المتذوقون ان فولكنر يبالغ في احترام وولف ولا سيما ارسكين كالدويل ، ويهمل بعض الاهمال همنغواي – وفولكنر !

النشاط الثقافي في الغرب

لوحات ميللر ...

بالرغم من ان هنري ميللر يعيش في مقصورته بكاليفورنيا بعيداً ومنعزلا عن الناس ، فقد عين عضواً في « المعهد الوطني للفنون والآداب » وهو ما يعادل الاكاديميات في البلدان الاخرى .

ويعتبر ميللر من اقل الادباء رصانة ،ولكنه كذلك من اجرأهم . وقد نشر اخيراً بعض الكتب التي يبدو فيها رصيناً ، ومنها « ذكريات ذكريات » و « البسمة عند اسفل السلم » و « هملت » و « شيطان في الجنة » . ثم ظهر فجأة انه رسام ، وان له لوحات جيدة ..

والواقع ان معرضاً للوحات ميللر المائية قد اقيم اخيراً في « بريد غستون ارت غاليري »بطوكيو يذكرنا بلوحات ميرو وروووشاغال؛وقد كتب ناقد ياباني يقول عن المعرض : «كنت حريصاً على ان اري كيف ينعكس ذوق ميللر الادبي في آثاره التصويرية . ولقد دهشت جداً ، لأني لم أجد في لوحاته اي اثر من كل ما عبر عنه في كتبه ، من مثل نشدان الحرية الجنسية ونقد السياسة المعاصرة نقداً عنيفاً وما الى ذلك .. وقد رأيت انه منشغل خصوصاً باشياء تعني العالم غير الحالي . وعناوين لوحاته تشهد بهذا التحول : « مرفأ الاحلام » ، « الحالم » ،« بحثاً عن القلب » ،«في مكان ما من الصين »، « عرس هندي » ، « فانتا زي طفولي » ..

وعلى هذا يكون ميللر قد أصبح فناناً هادئاً عاقلا رصيناً ...



لمراسل « الآداب » خالد القشطيني

كتاب جدير بثمنه

نصيحة لكل من مسه القلق العلمي الاخير ، وحن الى تفاؤل القرن الفائت بالعلم كاساس للخير والمعرفة ، ان يقترض خمسة شلنات ويقتني « الجنس البشري » الذي نشرته « بليكان » لانطوني برنت ، الاستاذ في جامعة غلاسكو وعضو منظمة الصحة العالمية . هذا كتاب يجب ان يوضع مع الصحف اليومية للمطالعة ومع القواميس للمراجعة . انه ليس بحثاً بيولوجياً بل دراسة تهم من يسوس ومن يساس ، من يضطلع بالتعليم ومن يشقى بأوزاره ، من تريد ان تتزوج ومن يريد ان يتطلق، ثم كل من يكسب قوته من هذه المشاكل كمصلح .

لم يؤلف الكتاب استاذ أو عالم بل الفه انسان . لهذا لم يجعل برنت من الانسان موضوعاً للبيولوجيا كعادة العلماء بل جعل البيولوجيا وسيلة للانسان . انه ليخزيه ان يري الضفدع ، هذه البشاعة الشاذة في حيوان ، النموذج الأمثل لمفضلة الانسان – الفقريات ، فيفني الطلاب شبابهم يدرسون كل وريد فيه دون ان يتعلموا شيئاً عن الانسان وتبقى الاسئلة التي شغلتنا ونحن صغار ، من اين جاء بنا ابوانا ، لا تلقى من المعلمين غير الردع ومن الآباء غير انهم وجدونا على شاطيء النهر .

في حديث القاه برتراند رسل في الشهر الماضي ، وصف كيف كانت فواجع القنبلة الذرية صورة في ذهنه منذ اول اتصاله بالعلوم ، وشعر وما زال ، ان ما يحتاجه العلماء ليس المعرفة بل الشعور . الشعور هو عصب كتاب برنت . وقد اشرف برنت اثناء الحرب على مكافحة الاوبئة في الشرق الادنى . ولاشك ان تلك الاحوال التي جعلت من أدبنا سياسة ومن سياستنا تمثيلا سينمائياً جعلت من العالم البيولوجي باحثاً اجتماعياً . فقد اكتشف من خبرته هنا ان شيئاً يربض وراء كل آفة هو الفقر . وتلعب هذه الكارثة في كتابه ما تلعبه المرأة في الادب القديم .. فتش عنها في كل مأساة حتى ليصبح التفتيش اسطورياً . فقصر القامة إن هو الا سوء تغذية وتأخر الزنوج في اميركا هو نتيجة لقلة المبالغ المرصدة لهم . وانخفاض الذكاء بين الفقراء نتيجة لفقرهم وليس فقرهم نتيجة لغبائهم كما نتصور .

ويستهل المؤلف الكتاب بالبيئة والوراثة وكيف يتفاعلان في تكوين الفرد حتى يتعسر تمييزها . ولكننا اذ نعجز امام الوراثة نجد البيئة طيعة للتغيير الذي يصل عند برنت حداً يتحدى فيه الوراثه . فمثلا : ان نوعاً من فقر الدم ظل ينتشر بين بعض الزنوج رغم كونه وراثياً دون ان ينقرض بالانتخاب الطبيعي كالمعتاد . وتبين اخيراً ان ما يكفل الاستمرار للمرضى به هو ان المرض يكسبهم مناعة ضد الملاريا . وهكذا كانوا في تفوق على اخوانهم . ولكن بعد انتقال الزنوج الى اميركا حيث انعدمت الملاريا فقد المصابون به ميزتهم وفعلا اخذوا بالانقراض مع العلة التي يحملونها .

بمثل هذا التغيير البيئي يمكن معالجة أعسر مشاكل الوراثة دون لجوء الى تعسفات المذاهب العنصرية والطبقية . يدحض المؤلف دعاوى الصهيونية والنازية واليوجينية ثم يقرر أنه « يوجد الآن جنس واحد من البشر ، كل الفوارق الطبيعية كلون البشرة ذات قيمة تافهة . ونظريات انحطاط أو إجرامية جماعات معينة تنشأ غالباً من الحاجات السياسية لجماعة متسلطة كالفاتح الاجنبي ويستخدم العمل الرخيص . تضيع قابليات واسعة ويقترف حيف كبير بالوضع السيء الذي تعيشه الشعوب المستعمرة والمتأخرة . » لو كتب العلم بهذا الشكل لألغت إيتن وهارو تدريس العلوم في مناهجهما دون تردد .

إن كتابة برنت تذكرنا بانسانية عهد النهضة . انه يرفض التقاليد العلمية ، يرفض المختبر والمتحف ويتمسك بالانسان وواقعه . فبينما يبين لنا كيف عاش انسان النينورذال في الكهوف يستدرك فيقول الارجح ان علماء الآثار هم الذين يقضون حياتهم في الكهوف فيحسبون كل تاريخ الانسان هناك !

يعالج الكتاب مشاكل الجنس والزواج ، الحمل وتفاديه ثم يتوسع في المدى والعموم حتى ينتهي بمشاكل التغذية في العالم ويرينا كيف حددت امريكا نطاق الانتاج الزراعي حفظاً للاسعار في وقت تتشكى فيه اكثرية العالم من سوء التغذية . ويرى برنت على هذه الأرض وفي دماغ الانسان ثروات لا تنتهي ، وعندما يجتمع البشر لاستخلاص هذه الثروة بالتعاون ستزول كافة الافكار والنظريات العدائية التي استنفد الرد عليها ٣٥٠ صفحة من الكتاب .



مُناقشات

تعقيب على تعليق

بقلم وداد سكاكيني

تمنى الدكتورالنص، المعلق على صفحة الأبحاث في باب « قرأت العدد الماضي » لشهر مارس (١) لو أن الدكتور طه حسين أدلى برأيه في تحديد الأدب والأدباء، وهل ينطبق عليه هذا الرأي بالذات، وأن الدكتور طه يعرف أن أكثر من ناقد أنكر عليه صفة الأديب واختصه بصفة أستاذ للأدب، والفرق بين الوصفين كالفرق بين الفيلسوف وأستاذ الفلسفة ! »

إن التحديد لمفهوم الأدب أو مدلوله لم يبق لغزاً مستعصياً ولا معنى مبهماً مدلهماً، وإذا لم يكن له تعريف لفظي محتوم فان طلاب المدارس تعلموا فحواه وأحاطوا فهماً وعلماً بصوره وألوانه على اختلاف العصور، فهو ثمرة القرائح وصدى الإلهام والإبداع، والمرافق لكل هبة فكرية ووعي قومي وتراث ثقافي، يتناقله جيل من جيل وتتبادله بعض الشعوب، وتعمل في حياته ومذاهبه مواهب المجددين وعبقريات المبتكرين فتضيف إلى قديمه حرمة وقيمة وإلى حديثه روعة وجدة وأملا.

أما تحديد المفهوم للأديب، فليس بعسير ولا خاف أو عجيب، ولا متلبس بالتهاويل، فكل من أوتي موهبة الأدب وأخذ بعدته وثقافته، وكان له محصول جيد من الأسلوب والموضوع فهو أديب. لايختلف بذلك اثنان عارفان، ومداول الأديب شاعراً أو ناثراً هو آثاره التي تقف برهاناً على ما أوتيه من خصائص الفكر والبيان وحس النقد والتجاوب، وتنبري حجة على من تلتبس عليه مزايا الأديب، فاية حيرة تبقى للمتسائل عمن يكون الأديب وما هو الأدب ؟

وليس على الخالق بمستنكر أن يجمع موهبة الأدب إلى مراس العلم في إنسان واحد فتظهر البوادر والبشائر مبكرة منطلقة، مهما غلب أحد الأمرين على الآخر، ومن هاهنا عرفنا علماء في القديم والحديث عدوا بآثارهم الفكرية والفنية من الأدباء، وفيهم من الأحياء المعاصرين أفذاذ عرفناهم بأعيانهم وروائعهم، وما كانت مواهب الأدب وتجاربه لتشترى أو تصنع تكلفاً وتعسفاً، وإن خدع الجمهور بالدعاية والنكاية حيناً، وحيناً بالمغالطة والتمويه، فإن « عملية » الأدب لا تقبل الزيف والتزوير، وارتجال الأدب لا يكون بين عشية وضحاها أو حين تدعو الحاجة وتقضي الظروف، ولا نعرف من ازدوجت فيه المواهب في سن متأخرة أو اكتشف هذا التزاوج بغتة واعترف بخطأ الظهور في وجهة سبق إليها، فمن دأب المطبوع الموهوب أن تبكر قريحته وأن يفوح شذاها على حداثة العمر، ولئن ظهر النابغة الذبياني بعد أن تجاوز الشباب شاعراً جاهلياً، فما أطيب التحايا والأزاهير التي تعدها محافل الفن وهياكل الإبداع لمن يفجؤونها بنبوغهم ومنتوجهم في الأدب الحديث وباتقانهم المطارحة والمقايسة في شؤون الفكر وقضاياه واتصاله بتطور المجتمع والواقع.

---

(١) مجلة الآداب، العدد الثالث من السنة الخامسة

على أن أعجب ما جاء في تعليق الدكتور النص الزعم بأن أكثر من ناقد أنكر على الدكتور طه حسين صفة الأديب وأنه أستاذ للأدب ، ولو أتيح لأي مغالط أن ينزع من الدكتور طه كل موهبة ومزية لما استطاع أن ينتزع منه صفة الأديب الأديب ، وقد أجمع النقاد وأهل التمييز على أن طه حسين أديب من الطراز النادر الرفيع ، إلى جانب مواهبه العديدة البارزة في النقد والبحث والقصة والدراسة المنهجية والخطابة ، وقد آمن الناس إيمان العيان والبيان بأن طه حسين أديب عالمي موهوب ، فإذا التبس الأمر على المعلق وصحبه المتحيرين فلا ينبغي أن يجعل الدكتور طه حسين موضع الارتياب ، وإلا فالمرجو منه أن يقنعنا بالبرهان ويطالعنا بآراء النقاد الذين ارتأوا رأيه أو سبقوه إلى التساؤل والتعليق في هذا الموضوع ، وأما نحن المستيقنين فإننا نرى الشمس بنورها لا تخفى على الناظرين ، والزهر بعطره القريب لا يستعصي على الشميم .

أما الحديث عن المؤتمر الثاني للأدباء ، فقد بقي في خاطر الدكتور النص مثل الهواجس تدور في دوامتها حيرته ، وإن الكلام في هذا الموضوع يطول ، وقد نشرت حوله مقالا (1) قبل انعقاد المؤتمر ، ولم يغلق بابه بعد ، فإذا شققته قليلا لضيق المجال والوقت تركت للقارئ أن يرى من خلاله تمثيلية صنعها وأخرجها أساتذة كبار ، لم يؤلفوها على طريقة علمية ومنهاج في متبع ، بل ابتدعوا أصولا مستحدثة قامت على أهوائهم وأذواقهم ، فلما عرضت التمثيلية على المسارح والمسامع تكشفت مفاهيم مشوهة ومقاييس مستوردة من الطوايا والاضغان .

ولن أبخس الناس أشياءهم وأنكر جهدهم وتجديدهم ، لكن الحقيقة ما تزال تدوي بما صنعوا وائتمروا ، واوتعهدوا الأمر بتجرد وصفاء لما كانت لمعاييرهم تلك العقبى ، ولأسدل الستار بسلام على التمثيلية حتى الموسم القريب.

وداد سكاكيني

دمشق

حول قصة « الذين لا يموتون »

بقلم عبد الرحمن النابلسي

عذري في قصر حديثي هذا هو ضيق زاوية (الآداب) في التعقيب على ما ينشر فيها من قصص أو أبحاث أو دراسات ، ولها العذر أيضاً ، فقد يطول نقد موضوع ما ، حتى ليتجاوزه في عدد الصفحات بكثير ، وليس أمام الناقد أو المعقب إلا أن يتناول أبرز مافيه وأوجز ما يمكن تسجيله . وعلى هذا فان ما سأورده ليس نقداً بالمعنى المفهوم ، وإنما أستطيع أن اسميه بعض الملاحظات العابرة وهي قليل من كثير حول قصة (الذين لا يموتون) المنشورة في عدد فبراير من « الآداب » ، إذ لم تكن أكثر من خليط عجيب من دروس في الجغرافية والتاريخ وأخبار الصحف والمجلات والاذاعة ، في حوادث مبتورة ، وذكريات مضطربة ، لا يعرف لها بداية من نهاية .

ساحت بنا الانكليزية العجوز من الغرب إلى أقصى الشرق ومن الشمال الى الجنوب ، بطائرة الخطوط الجوية البريطانية أحياناً ، وبالقطار الروسي حيناً آخر ، وفي قارب بغدادي مرة ، وفي سيارة أردنية مرة ثانية ، في قفزات بهلوانية من لندن الى اليابان ومن الصين الى الهند ، ومن جبال أورال الى ايران الى شط العرب والبصرة وبغداد والموصل ، وحطت بنا بطلة القصة في فندق كونتننتال في حلب ، وفي مذكراتها سردت علينا أسماء لا تحصى لبلدان زارتها قد لا تعد لكثرتها ، منها تل كوجك والقامشلي وسهول الجزيرة ونصيبين والقدس ومقام مار افرام السرياني وجوباي بك وبعدها اللاذقية فرأس شمرو إلى تدمر فدمشق ، وفي دمشق زارت مدينة الملاهي والمعرض الدولي وقصر العظم والمتحف وسوق الحميديه والجامعة السورية ودير صيدنايا ومزار الست والجامع الاموي والكلية السلمانية ومخيمات اللاجئين وحلت العجوز في فندق أميه قليلا ثم شدت الرحال الى القدس وتهيأت لزيارة مصر ومدنها وقراها وفنادقها ونيلها واهرامها وأبي الهول وبقية الآثار لولا اضطرارها للعودة الى لندن بعد اصابة ابنها في حادث . فكأنما القصة أصبحت مع تعداد كل هذه الاسماء — وهي بعض من كل — دليلا للمسافرين وترجماناً للسائحين .

ولنترك هذه المحطات الجغرافية ولننظر الى القسم التاريخي من القصة ، وفيها يتكلم مؤلفها (القصاص) عن الجيروندين وعن المؤرخ البلجيكي المجهول الاسم وعن وأد البنات وعن القبائل العربية في الجاهلية وعن شروط الحديبية ووقعة اليرموك وعن المسيح والحواريين وعن قبائل التبت في القرون الوسطى ، وزلازل اليابان ومجاعة الصين في رواية الارض الطيبة ، ثم عن غاندي في الهند وعن الفرس القدماء والبابليين والعرب والعباسيين وجواريهم وقيانهم ورنات أوتارهم ، ثم عن الاتراك وفظائعهم وزنوبيا ملكة تدمر والأمويين وكيف انتقلت الخلافة الاسلامية من الحجاز الى الشام وعن صلاح الدين الأيوبي وبوابة مندلبوم ، ثم بعد كل هذه النتف التاريخية التي أتى بها من هنا وهناك ومن مختلف العصور ، حشا بينها أخباراً سياسية مغلوطة فسمى الشعب والمؤامرة التي حرض عليها الاستعمار في حلب ، وقام بها عملاؤه ثورة الشعب .. على المدارس الأجنبية .. ثورة الشعب ! هكذا !! بصفة انصار من المشاغبين يقومون بأعمال تخريبية تضر بالوطن وبسمعه بلدهم تسمى : ثورة الشعب !! ثم عن مظاهرات يوم الجزائر . حدثنا أن بطلة



(1) مجلة الأديب عدد أغسطس ١٩٥٦



ألقصة الانكليزية العجوز أصيبت بحمى مفاجئة من الحماس فطلبت من ولدها (بيل) أن تحمل لافتة لتشترك مع المتظاهرين في الهتاف – لم يعلمنا بأي لغة – ضد فرنسا وضد حليفاتها في الاستعمار، وتحيي النضال العربي ..! هكذا يريد منا السيد جان صاحب القلم الطيب، أن نصدق منه أن تلك العجوز الانكليزية التي تربت على التقاليد البريطانية العتيقة والتي عاشت من خيرات مستعمرات بلدها، والتي امتصت مع أبناء قومها دماء الشعوب العربية والشرقية نسي معها كل هذا، فأرادها أن تخرج عن طبيعة بني جلدتها، فتدافع عن الشرق ضد الغرب المستعمر . . لماذا ؟ لأنها عشقت لياليه على الدجلة والنيل وأولعت بتاريخه على صفحات الكتب القديمة .

ثم سرد علينا السيد الكسان حوادث سيناء والعدوان على مصر ومقاومة بور سعيد فلم يأت بجديد، وإنما نقلها ملخصة مشوشة عن الصحف والاذاعات خاتماً القصة بصورة من رسالة بعثت بها البريطانية كابيلا من لندن الى فؤاد في دمشق، وكان الافضل لو أنه اكتفى بها دون ذلك الحشو الجغرافي في رحلات مدرسية لبلدان متراصة الاسماء، ودون ذلك العرض التاريخي المبتور، والوقائع السياسية الناقصة المغلوطة مستشهداً بموريائك وبيرل بك وبمؤرخ بلجيكي نسي هو اسمه وبمؤرخ آخر فرنسي نسيت أنا اسمه، وبالنظرية الثلاثية الشمولية !!

ولو أنني جمعت ما في القصة من تعاريف وأسماء كتاب ومؤرخين وبلدان ومدن وقرى وسهول وجبال وفنادق وأسواق وأنهار ومعارض ومتاحف وأماكن أثرية، مع ما يصل من الصحف والاذاعة والمجلات عن حوادث حلب ويوم الجزائر ومصر، لو جمعتها وجردتها من (الذين لا يموتون) لانكمشت القصة الى أقل من صفحة .

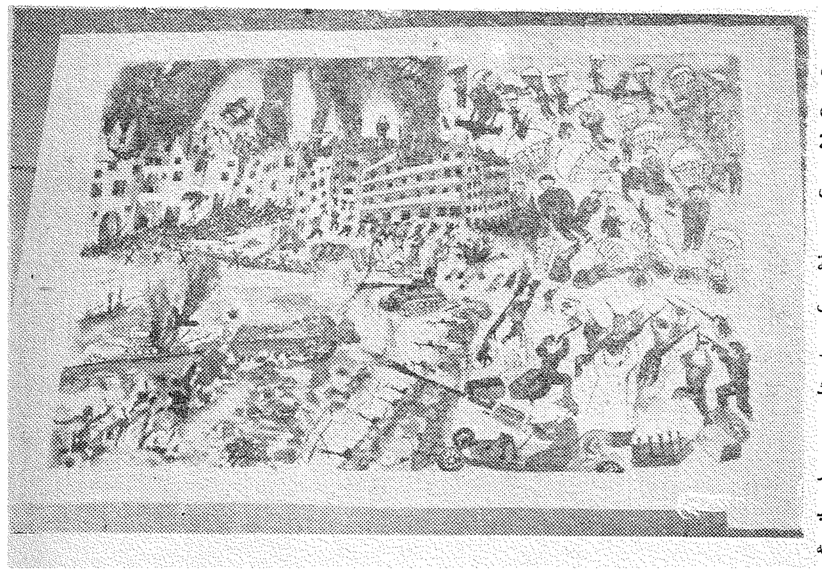
دمشق **عبد الرحمن النابلسي**



لا شك في ان العمل الفني اساس مرتبط كل الارتباط بجميع الزوايا والاركان التي يقوم عليها كيان الامة ، هذا اذا لم يكن العمل الفني هو الركن الكبير في ذلك الكيان . وإن امتنا العربية هي اليوم احوج ما تكون الى كل خط وكل شكل ولون وكل صوت ونغم ؛ فهذا كله يعكس الرغبة في الحرية والوعي وتذوق الخير والجمال ؛ وكل من يعمل لحرية امته وخيرها يعمل للانسانية كلها .

على هذا الاساس من الفهم نستطيع أن نتحدث عن هذه المجهودات البريئة الصادقة التي قدمها الطلبة اللبنانيون اخيراً في نادي المعلمين المصريين ببيروت تحت عنوان « من وحي المعركة » . فان هذا المعرض يعد عملا ايجابياً يعبر بصدق عن مشاعر الطلبة اللبنانيين والبيئة العربية في لبنان ؛ وهو بذلك سند متين لكل عربي يبحث عن الحرية تحت سماء الوطن العربي .

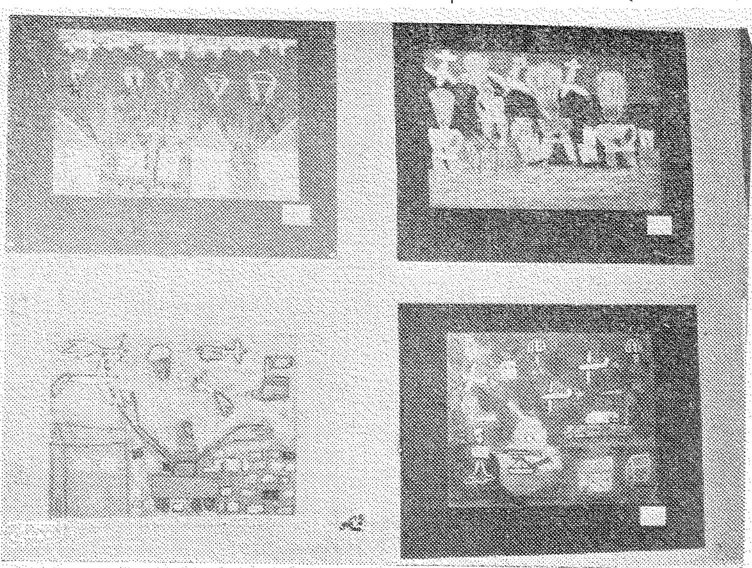
إنه دليل واضح في كل خط وفي كل لون وشكل على أن شعور اللبناني هو نفسه شعور المصري وشعور العراقي وشعور السوري والجزائري واليمني والاردني والسعودي .. فالفن بحد ذاته تعبير عن حرية الفنان وحرية أمته ، ولعله عند الأطفال والفتيان اشد صدقاً في التعبير عن الحرية ، منه عند الكبار . فقد يقع الفنان احياناً في خطأ التكلف أو التصنع أو الخوف ، ولكن العكس عند الأطفال حينما يرسمون ، كما هو ملحوظ في معروضات الطلاب مثلا .. إن رسماً بسيطاً يخطه طفل صغير ، في اي بلد عربي يعبر عن شعوره نحو الجزائر أو اليمن مثلا لهو أفضل بكثير من لوحة (الحرية) التي رسمها (دولاكروا) هذا بالنسبة لنا اليوم .ولا بد من الاشارة إلى مجمل المعروضات



لهيب يرتفع وحماس يشتعل
علي محمد الشيخ ١٧ سنة — مقاصد صيدا . (الجائزة الأولى)

بصفة عامة ، فقد اشترك في المعرض عدة معاهد لبنانية منها مقاصد بيروت بفرعيها (الحرش — والأشرفية) ومقاصد صيدا بمختلف اقسامها ، وكليات طرابلس وصور . أما من حيث الشعور القومي فقد كان المعرض ناجحاً إلى أبعد حد حتى لكأن الزائر يخال نفسه في معركة دامية موحدة بالرغم من تعدد اللوحات والاساليب والأفكار . وكل عمل من هذه الأعمال يدل بوضوح على الروح الفنية الطلقة عند الطالب وانه يرسم بحرية تامة .ويرجع الفضل في هذا التوجيه الحسن لأساتذة الرسم المصريين واسلوبهم الخاص بالتربية الفنية .

وقد عرضت حوالي ١٦٠ لوحة وكان لابد أن تمر جميع هذه المرسوم على الغربال لكي تصفى ويبقى للمعرض ما يصلح للعرض.وهناك أثر بارز في معظم الرسوم وهو (الباراشوت)والطائرات وهما رمزان قلما تخلو منهما لوحة من حيث التأليف والتركيب ومزج الألوان والفكرة،ومنها لوحة للطالبة حفيظة شريف من مقاصد صيدا ، وهي بعنوان : (سنبيدهم) ومنها لوحات أخرى لفؤاد كلس وزهير الحاج عبد ومحمد عيتاني من مقاصد بيروت . وقد تناول بعضهم الموضوع كفكرة خاصة،ومن هذه اللوحات لوحة بعنوان « حقد متوارث وكراهية متأصلة » تمثل طفلا ولد مع الحقد والكراهية للعلم الذي يريد السيطرة على بلاده وهو العلم البريطاني . ويحمل الطفل العلم ويفتح فمه لينهشه بأسنانه ، ولوحة أخرى للطالب نفسه وهو زهير الحاج عبد اسمها (سأنتقم لك يا أبي) ولو أن الطالب استطاع أن يخرج اللوحة لونياً كما يجب لكانت بشكلها وموضوعها من أروع اللوحات الفنية بل لكانت في مصاف أعمال الفنانين الممتازين . وهناك للطالب نفسه لوحة أخرى (سنناضل من اجل قوميتنا وعروبتنا) وهذه اللوحة ايضاً تعد من حيث التقنية الفنية واللون

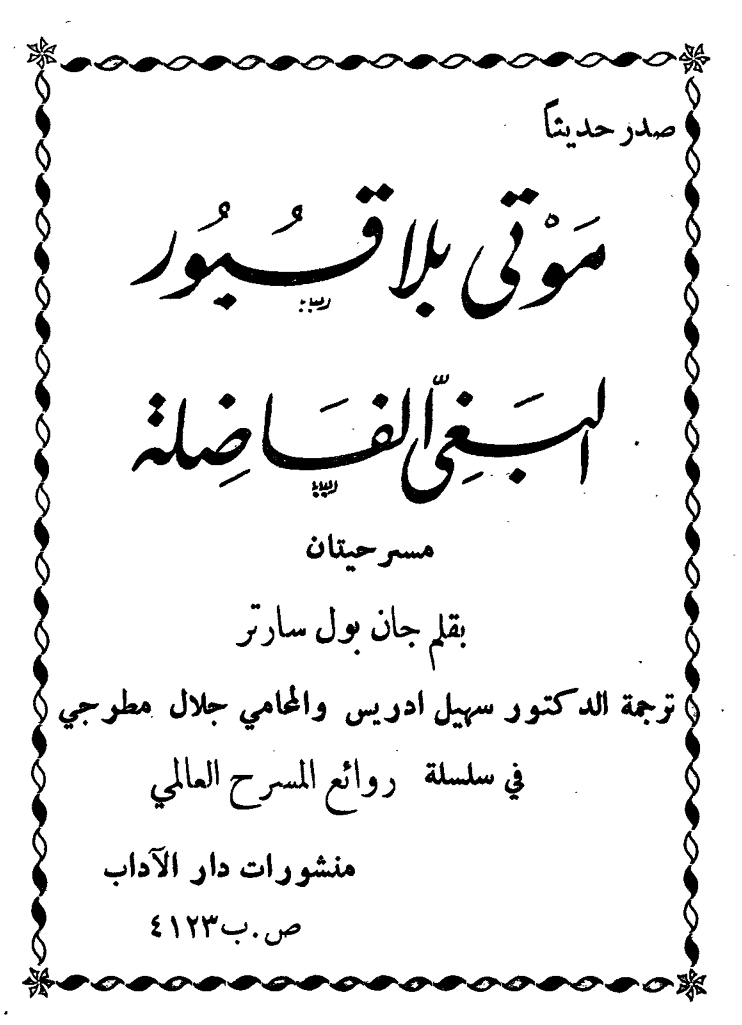


من اليمين الى اليسار : هدى يموت (١١سنة) — عادل سماقية (١١) — عدنان قرنفل (١٠) — نهى قليلات (٩) وكلهم من بيت الأطفال

والسحنة المصرية والحركة من أجمل المعروضات – هذا عدا الأعمال التي لا يتسع الوقت لشرحها وخاصة اعمال ورسوم الصغار الذين يرسمون بكل بساطة وبراءة وحرية، وليس هذا كما يسميه البعض ضرباً من العبث الطفولي بل هو مع التوجيه عمل فني ، فان اطلاق سراح التعبير الحر عند الطفل مثلا يفتح له نوافذ النور فيرى أو يشعر بأنه مصيب وصادق في عمله . وهذا بالطبع يقوي في الطالب عنصر الشخصية والاعتماد والثقة بالنفس ومحبته للفن – تلك المحبة التي لاتقف القيود التعبيرية حائلة بينه وبين حريته وتدفق مواهبه وزخم أفكاره ومشاعره.

وقد خصص نادي المعلمين المصريين جائزة أولى لأحسن لوحة فنالها بالاقتراع الطالب (علي محمد الشيخ) من مقاصد صيدا وعمره ١٧ سنة، والجائزة هي رحلة إلى مصر بالطائرة لمدة عشرة أيام في ضيافة حكومة مصر . وهناك جوائز أخرى قسمت على ثلاث مراحل من العمر ولكل مرحلة ثلاث جوائز قيمة . ولابد من الاشارة إلى الفضل الأكبر الذي يرجع اليه نجاح المعرض ونجاح الطلاب فيما رسموا وهو توجيه الاساتذة المصريين للطلبة اللبنانيين ، توجيهاً عربياً صادقاً. فمرحى لهذا الرعيل الزاحف المشرق المكافح من أجل حريته دفاعاً عن قوميته بكل خط وشكل ولون .

ناظم ايراني



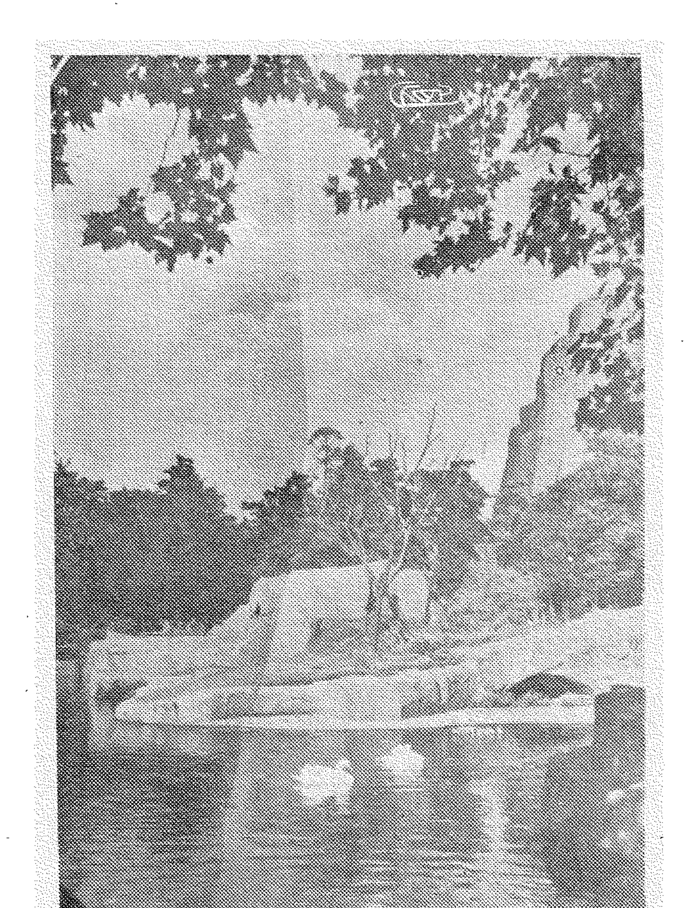
معرض فوتوغرافي في سوريا



نموذج

من مراسل « الآداب » في سوريا

يقيني ان شأن التصوير – كنشاط فني – شأن بقية الفنون الجميلة ، يعتمد على ذوق المصور الفنان ، وقوة شعوره ، وعلى موهبته وقدرته على الترجمة الصادقة عن احاسيسه حين يلاحظ الحياة والطبيعة من حوله « ملاحظة الظامىء النهم الذي يحرص على الا تفوته ناحية من نواحي الجمال والحس والحركة فيها » وبدهي ان ترتبط مقاييسنا بمدى صدق تأثر الفنان بما التقطه من مناظر طبيعية حنا عليها ، أو بما سجله بعدسته من وجوه حية معبرة احبها ، كما ترتبط ايضاً بمدى ما يحدثه فينا اثره من انطباع شبيه بالانطباع الذي حدث له . ويبدو ان مروان مسلماني في معرضه الاول الذي اقامه في « المتحف الوطني بدمشق » وضم ١٨٧ صورة من بينها ٦٥ صورة ملونة ، فنان ذو موهبة ، لديه عين ذواقة تعرف كيف تختار المنظر الجميل ، وتعي الزوايا التي تلتقطه منها لتبرزه في أجمل وأمتع ما يكون عليه . ولعل نجاح لوحاته ، كامن في تجاوبه مع طبيعتنا ، اذ نذر فنه لابراز معالم جمالها ، لما في اجوائها من سحر واشراقة دائمة ، ويتجلى هذا التجاوب لأول وهلة ، في التباين الواقع بين لوحاته التي سجل فيها مناظر طبيعية في البلاد الاوروبية التي زارها ، وبين مناظر طبيعتنا الفاتنة ذاتها ، اذ نعثر على التجهم والوجوم والكآبة في الاولى ، ونلمح الابتسام والنور والحركة في الثانية . ولولا بعض الهنات التي لحظناها على معرضه ، كترديده بعض المناظر المتشابهة الاجواء، ونقص التدرج النسبي المعقول

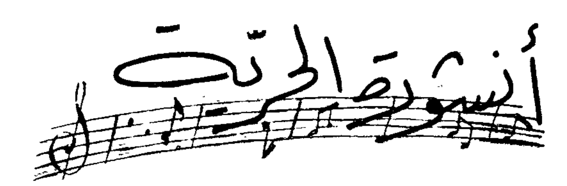


بحيرة

Tonalité من الاسود الفاحم الى الابيض الناصع مماجعل اغلب صوره باهتة اللون ، وافقدها عنصر « التقنية » الضروري لها ، اذن لأكتمل لمعرضه النجاح الذي يستحقه . واننا نشير ههنا الى لوحتيه « نموذج » و « بحيرة » لما فيهما من دلالة على قدرته الفنية وموهبته وذوقه . واللوحتان تمثلان مدرستين مختلفتين من مدارس التصوير الفوتوغرافي ، تدلان على مقدرة هذا الفن في تكييف نفسه ، وفق تفكير المصور وقدرته على التعبير ، فالآلة الفوتوغرافية في يد المصور والازميل في يد النحات ، والريشة في يد الرسام ، ادوات طيعة لها من القدرة على التعبير بقدر ما في ذوات هؤلاء الفنانين من قدرة على الاستيعاب و التفكير .

فلوحة « بحيرة » محاولة كلاسيكية موفقة ، لالتقاط منظر جميل يشيع في النفس هدوءاً وطمأنينة ، فكأن الحياة فيه تنساب رهوة هادئة فرحة ، كانسياب البطتين على صفحة الماء الرقراق . اما الاغصان المتدلية فتشكل اطاراً لما تبقى من الصورة ، مما يضفي عليها احساساً بالعمق ، كما ان الغيوم المتلبدة قد سدت فراغاً لابد منه لاكتمال اللوحة ، واما البطتان فهما على صغر رقعتيهما في الصورة ، قد اضفتا الحياة عليها ، ومنحتاها نقطتي ارتكاز لولاهما لتبعثرت وحدة الصورة .

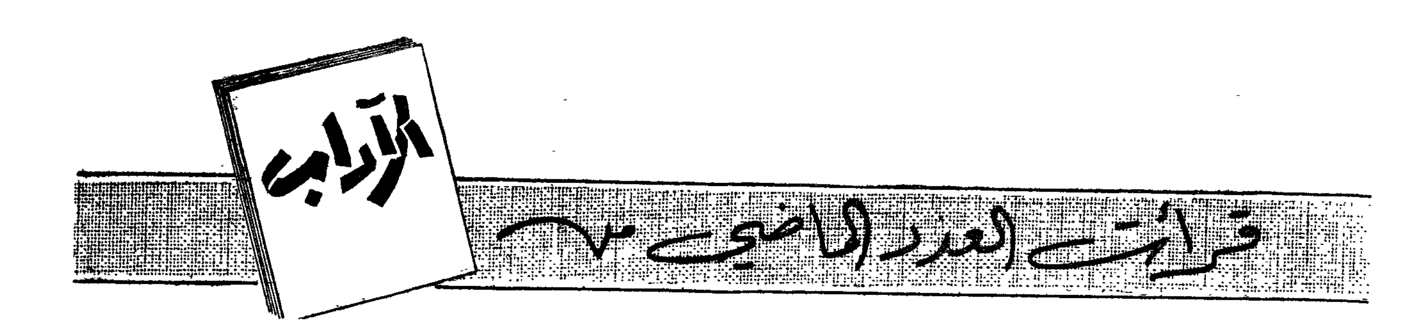
ولوحة « نموذج » تدل على قدرة التصوير الفوتوغرافي في التقاط لحظة عابرة في تيار التجربة الانسانية ، وهي محاولة ناجحة لهذا النوع من التصوير ، الذي اخذ مريدوه يحتلون الصفوف الاولى بين مصوري العالم ، فهم يؤكدون ابداً ودائماً على الانسان في مختلف مراحل حياته ، وفي انعكاس مختلف التجارب التي تمر به . ولعل التقاط اللحظة العابرة من سلسلة التجارب البشرية - هذه اللحظة - التي قد لا تتكرر ، هو ما يميز المدرسة الحديثة في التصوير الفوتوغرافي عن سواها من المدارس .



[الى ابطال الجزائر]

تصدّع في الأفق الأسود
جدر الظلام ، فخارتِ قواه
وتلك الشفاه
تقبّل سيل المنون الرهيب
ففي قبلة الموت ، قوت الحياه
وتلك الشفاه
تعانق في الفجر سيل اللهيبِ
وتبني هياكل عزٍ وجاه
دمائي تهرق فوق الرمالِ
بأرض الجزائر ، فوق الرمالِ
وتبقى رمال الجزائر ظمأى
ونحن عن الأهل والدار نأى
سنبقى هنا في ضجيج الكفاح
طعام الردى
نصدّ العدى
عن الوطن الجائع الظاميءِ
لسيل الدماء
أنا الثائر الحرُّ في موطني
إذا لم يعد في بلادي سلاح
فنيراننا من لهيب الجراح ..
وقبل الممات ، أنا انحني
لأروي رمال الجزائر عطرا
وأزرع فوق دمائي فجرا
ستزهر هذي الدماء ستزهر
فوق الرمال غداً في الربيع
ستزهر هذي الدماء وتثمر
انشودة فوق ثغري البديع
مخضبة بدماء الشهيد
ستثمر أنشودة داميه
ستخلق في الأفق فجراً جديد
ومعنى لحريتي الواعيه ...

أنطون رعد



الأبحاث

بقلم رئيف خوري

١ – الحل الوحيد لقضية الجزائر

من حقي ومن الحق علي ، ان أبدأ بهذا البحث الذي حمل توقيعي في العدد الماضي من «الآداب» وعنوانه : الحل الوحيد لقضية الجزائر . وأول ما أبدأ به خطأ ارتكبته في الإحصاء . فالاستعمار الفرنسي لم يملّك نصف مليون فدان من أجود الأراضي الجزائرية نحو السبعين بالمائة من المستوطنين (Les Colons) ، بل ملك نحو السبعين شخصاً من هؤلاء المستوطنين ذلك القدر الضخم من الفدادين بمعدل سبعة آلاف ومائة وثلاثة وأربعين فداناً للشخص الواحد . على أني والحق يقال ، لم أرتكب هذا الخطأ بنفسي ، بل أركبنيه سوء خطي ، وأركبه الآداب برغم حسن اهتدائها إلى الصواب إلا حين يعمي خطي عليها الطريق .

وكذلك أركبنا سوء خطي خطأ آخر أنا و « الآداب » العزيزة . فقد أردت أن يؤمن مستقبل مطمئن للشرفاء من المستوطنين الأجانب في الجزائر لا للشركاء !

ولن أطيل على القارىء في ذكر « الجنايات » التي اقترفها سوء خطي ، بل أسرع إلى القول إنني لم أقصد بهذا الفصل الذي تناولت به قضية الجزائر أن أتوسع وأتعمق وأحيط ، بالمقدار الذي تستدعيه مسألة خطيرة كهذه المسألة . وإنما التمست أن أوجه إلى الحل الوحيد الذي لا تحتمل سواه قضية شعب عربي ما زال يناضل منذ قرن وربع القرن دفاعاً عن استقلاله وحريته وقوميته وكل حل آخر اقترح أو يقترح ، فلن يعدو أن يكون تهرباً ربما دل على « براعة » الساسة لكنه يترك المشكلة قائمة ، ويبقى أشد وأعنف حين يتلاشى أثره المخدر .

إن الجزائر عربية . ولن يحل مشكلتها شيء أدنى من الاستقلال الوطني . وهي حقيقة يفهمها الشرفاء من الفرنسيين ، بل يفهمون أنها أيضاً الضامن الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من علاقة فرنسا بالجزائر . وخير ما يتمثل به هذا الاستقلال جمهورية جزائرية عربية ديموقراطية تضمن لجميع الجزائريين من وطنيين ومستوطنين حقوقهم الشرعية .

٢ – « مآثر » فرنسا في الجزائر

ولقد جاء هذا البحث للدكتور عبدالله عبدالدائم متمماً لما فاتني أن أتوسع فيه. فالاستعمار الفرنسي يتباهى بالاصلاح الذي أحدثه في الجزائر . فنسف بحث الدكتور عبدالدائم هذه الأسطورة ، إذ ليس من استعمار يصلح . وما يبدو أنه إصلاح في أعمال الاستعمار ، ليس سوى تدابير يتخذها ليكون أقدر على الاستثمار لنفسه. وهذه حقيقة خدع بها عدد من مفكرينا الأحرار ، بينهم ولي الدين يكن الذي غرته مظاهر الإصلاح في بعض تدابير الحكم البريطاني في مصر . ان الاستعمار لا يصلح ، لكنه بطريق رد الفعل يحدث في الأمة تنبهاً لحقوقها المهضومة ، فيصدق عليه قول المتنبي :

رب أمر أتاك لا تحمد الفعال فيه وتحمد الأفعالا !

والسر من بعد ، ليس في التقدم الذي تحرزه بلاد وهي تحت نير الاستعمار ، بل السر كله في التقدم الذي تحرزه وهي محررة من هذا النير . وهذه حقيقة كنت أتمنى على الدكتور عبدالدائم أن يقف عندها ويتبسط فيها . تلك سوريا مثلا . لقد تقدمت في الفترة التي تحررت فيها تقدماً لا يقاس بالفترة التي حكمها فيها الاستعمار . تقدمت برغم جميع المؤامرات على سلامتها ، وأثبتت أن التقدم الذي أحرزته في زمن الحكم الأجنبي لم يكن بفضل هذا الحكم بل بطبيعة الأمور ، وبعزيمة أبنائها . وحين تستقل الجزائر فستقطع في فترة وجيزة شوطاً من التقدم أعظم جداً تبوخ فيه « مآثر » الاستعمار الفرنسي في هذا الشوط .

٣ – حول كتاب ثورة الجزائر

لم أقرأ كتاب ثورة في الجزائر للأستاذ علي الشلقاني . وإنما كانت معرفتي به من خلال الفصل الذي عقده الأستاذ ناجي علوش . والأستاذ علوش غير راض عن هذا الكتاب ولا عن مفاهيمه . ذلك لما حوى هذا الكتاب من « اجتهادات متناقضة » تتعلق بقومية الجزائر ، ومسألة إدماج الجزائر في فرنسا ، وقضية الصراع الطبقي في ثورة الجزائر . والأستاذ علوش على حق في انتقاده لموقف الأستاذ الشلقاني إذا كان الأستاذ الشلقاني يذهب حقاً إلى وجود قومية جزائرية . فالقومية الجزائرية هي القومية العربية ما في ذلك ريب . ولكن هذا لا يعني أن الجزائر لا تستطيع أن تؤلف دولة عربية مستقلة . فالقومية الواحدة قد تتألف منها عدة دول مستقلة . ثم تلتمس التقارب فيما بينها ، وقد تكتفي بهذا التقارب ردحاً من الزمن قبل أن تتم وحدتها. وإذاً ، فقومية الجزائر العربية لا يتحتم عليها أن تؤجل بناء دولة جزائرية مستقلة حتى تتم الوحدة العربية فتلتحق بها . وإذا بنت الجزائر دولتها العربية المستقلة ، فليس يعني ذلك أن مشكلة وجود قوميات أخرى في الجزائر غير قائمة . ففي الجزائر القومية البربرية مثلا ، وعلى دولة الجزائر العربية المستقلة أن تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار ، فتوجد نظاماً يؤمن لهذه القومية البربرية حقوقها الشرعية فيدرك البربر كما يدرك الكثير منهم اليوم أن خلاصهم ليس بالانجرار وراء الاستعمار ، الفرنسي أو غيره ، بل ، بالتعاون مع القومية العربية .

وبالطبع ، تصبح بعد هذا مسألة الإدماج في فرنسا غير واردة . بل أن هذا الحل يفقد اليوم أكثر مؤيديه بالأمس ، لأنه حل غير معقول ، ولن يستطيع الاستعمار الفرنسي ولا استعمار غيره أن يعامل الجزائر معاملة الند للند ، فتندمج فيه ، لأن هذا ليس في طبيعة الاستعمار كما يقول الأستاذ علوش .

وأما قضية الصراع الطبقي في ثورة الجزائر ، فالأستاذ الشلقاني – إذا صح ما نقله عنه الأستاذ علوش مخطىء حين يجعل هذا الصراع أساس الثورة ومعمقاً لها . فالثورة الجزائرية تنشد الاستقلال ، فهي بذلك قومية وطنية ، لا شك في طابعها القومي الوطني . ولكن هذا لا يعني أن الشعب الجزائري الثائر لا يغضب على الجزائريين الذين ربطوا مصالحهم بمصالح الاستعمار بقدر غضبه على المستعمرين أنفسهم . وسينزل الشعب الجزائري بهم أشد العقاب . وسيقضي

على استثمارهم إياه كما يقضي على استثمار المستعمرين له . ومن هذا الوجه لا تعدم ثورة الجزائر عنصراً من الصراع الطبقي . لكن الذين دخلوا فيها الصراع الطبقي هم الجزائريون المستثمرون الذين خافوا أن تزول امتيازاتهم بزوال الاستعمار . والشعب حين يقضي على امتيازات هؤلاء ، فسيقضي عليها باسم المصلحة القومية الوطنية . وهذا يعني أن الثورة القومية الوطنية ضد الاستعمار في سبيل السيادة والاستقلال ، توجب في أحيان الصراع الطبقي . فليس الصراع الطبقي دائماً أبداً مضاداً للنضال القومي والوطني بل كثيراً مايكون قسماً منه. وهذا ما يبدو لي أنه فات الاستاذ علوش . ولعله انما فعل ذلك لخوفه من ان يكون الصراع الطبقي محض شيء شيوعي . والواقع أنه ليس كذلك . والخطأ الأساسي الذي يقع فيه اكثر الشيوعيين ، ويقع فيه حتى منتقدوهم ، أنهم يعتبرون الصراع الطبقي ، شيئاً واحداً في كل مكان وكل زمان ، هذا فضلا عن اعتباره احتكاراً لهم . وهم يرجعون في كل مناسبة الى تجارب الثورة الروسية ويقيسون عليها . مع أن القياس سبيل من اخفى السبل التي يتسرب منها الخطأ في ادراك التاريخ واحداثه ، كما يقول ابن خلدون . والاستاذ علوش يقع في مثل خطأ الشيوعيين حين يسوق بعصا واحدة شيوعيي يوغوسلافيا والصين والاتحاد السوفياتي . فميزة شيوعيي يوغوسلافيا والصين أنهم فهموا ان الاهتداء الأعمى بما حصل في روسيا ليس صحيحاً . ان روسيا كانت دولة مستقلة عظمى حين وقع فيها الانقلاب ، ولذلك كانت المسألة الكبرى فيها : اي طبقة اجتماعية تحكم ؟ أما في الصين ويوغوسلافيا فكانت الثورة فيهما وطنية ، والمسألة الكبرى فيها : طرد المستعمر الاجنبي واستعادة حرية البلاد وسعادتها . فاما المسائل الأخرى ، وفيها الصراع الطبقي ، فتابعة ، ولا محل لها الا بقدر ما تخدم المسألة الكبرى : الاستقلال والسيادة وكرامة الشعب . واذا اختار شيوعيو الصين ويوغوسلافيا وروسيا ان يسموا انفسهم باسم واحد ، فهذا لايغير شيئاً من اختلاف حقيقتهم في نظر الواقع التاريخي . ان الثورات التحررية الاستقلالية كثورة الجزائر ، هي ثورات قومية وطنية ، وهي بذلك ثورات شعب يحارب المستعمر ، ويحارب من اصطنع من اذناب بين « الوطنيين » انفسهم .

٤ – توفيق الحكيم يحدث « الآداب »

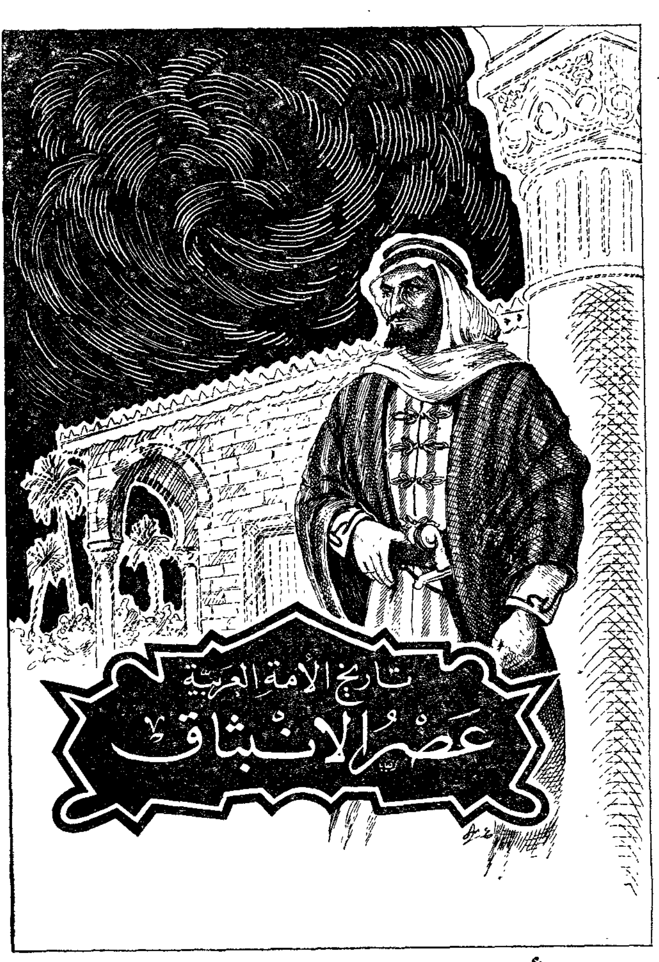
في هذا الحديث تنقله لنا السيدة عائدة مطرجي ادريس طرافة ومتعة من ناحيتين . فهو من ناحية ، يدل على انصراف المرأة العربية الى شؤون جدية في حقل الأدب . ولعل الاستاذ توفيق الحكيم ، عدو المرأة الأول ، يخفف من غلوائه في عداوة المرأة بعد اليوم . ومن ناحية اخرى يفتح هذا الحديث نافذة على بعض ما يجول في نفس اشهر كاتب مسرحي عربي في ايامنا . على ان الحديث يشكو السرعة ، لا في الاسئلة ، فانها جد محكمة ، بل في الأجوبة . لقد كان الاستاذ الحكيم سريعاً وغامضاً في اجوبته كلها ، إلا فيما يتعلق باختياره عميد الادب لعام ١٩٥٦ . كان سريعاً وغامضاً في الحديث عن المسرح الذهني القائم على الصراع بين الفكرة والفكرة . كذلك كان شأنه في الحديث عن الصراع بين القلب والعقل ، وعن المفاضلة بين العامية والفصحى في الحوار المسرحي ، وعن الفلسفة التعادلية وعن مسرحيات الادباء الشباب . أما المسرح الذهني هذا فاني قليل الايمان به ، لأن الصراع بين فكرتين لايصبح مسرحياً مثيراً حقاً الا اذا تطور الى صراع بين عاطفتين ، او فاولى بهذا المسرح ان يقرأ قراءة ولا يمثل .

بقى أن الاستاذ الحكيم ينبئنا في هذا الحديث انه سيصدر في وقت قريب مجموعة باسم « المسرح المنوع » واننا لفي انتظار .

٥ – زيدان وجبران ونعيمه رواد القصة في لبنان

ما من ريب ان الدكتور سهيل ادريس هو من افضل من يتناول هذا الموضوع بالبحث الرصين الموضح المنير . وهو لا يريد ان يقسو على زيدان لأن الرجل حقاً كبير ... كبير بخصبه في الانتاج ، وكبير في احياء التاريخ العربي واحياء المتعة بهذا التاريخ . على أننا مع ذلك ما ينبغي لنا هذا التغاضي كله ، وبوسعنا ان لا نتغاضى دون ان نبخس زيدان حقه . فالرجل يلحق بحقبة انطوت ولكن طريقته في الرواية التاريخية ، ما زالت هي الطريقة الغالبة : طريقة انشاء إطار قصصي ننزل فيه معلومات تاريخية نحرص على ان تكون صحيحة ، ثم لا نحرص على شيء آخر سوى اثارة اللذة في القارئ . على ان هذا أصبح لا يكفي . فالرواية التاريخية اليوم يجب ان لا تخلو من موضوع يتعدى عصرها ليتعلق بعصرنا . وبعبارة أخرى ، اننا نقص التاريخ القديم لعبرة ينطوي عليها تنفعنا في الحاضر والمستقبل . وهذا ما لم يتنبه له زيدان في اكثر رواياته . واذا كان من عبرة نجنيها من رواياته ، فهي ان التاريخ العربي حافل بالأمجاد ، وهي أن الناس في جميع العصور هم الناس يفرحون ويحزنون ويألمون ويحلمون . وليست هذه بالعبرة الكافية . فانا حين كتبت روايتي التاريخية « الحب اقوى » اجتهدت في أن أبين نقائص حكم بني أمية ، كما اجتهدت في ان ابين فضائلهم ، وابين فوق هذا وذاك ما هو سوس الرذائل التي تنخر الدول . وما العبرة التي نجنيها نحن بوصفنا بشراً وعرباً من تجاربنا

صدر حديثاً



تأليف الدكتور محمد اسعد طلس

منشورات مكتبة الاندلس — بيروت

التاريخية . ولست أدري هل نجحت . على أنني أوجب مثل هذه الغاية في الروايات التاريخية .

وكذلك بحث الدكتور سهيل ادريس في القصص الجبراني يشكو ،على صدق النظرة فيه ، نقصاً أنه لا ينبه على قصور « الثورة الجبرانية » . فهي ثورة فرد ، والافكار والعواطف التحررية التي تتردد في القصص الجبراني تجول دائماً في تلافيف دماغ فرد، غريب بين قومه ، معزول عن مجتمعه ، بل يوشك ان يكون ذوو النفوذ كلهم خصوماً له بينما يقف الشعب متفرجاً ..

ويصيب الدكتور ادريس حين ينوه بميزة نعيمه في دقة التحليل النفسي . فلنعيمة في هذا المجال موهبة القصاص الماهر . انه مصور نفسي مدهش . ولكنه يخفق حين يسخر مواهب القصاص الفني عنده « للفيلسوف الروحاني الوعاظ » ونعيمه منسجم مع نفسه حين يخلو ابطاله –كما يقول الدكتور ادريس – من بطل واحد يثور على بعض قيود الحياة، ثورة ايجابية،وانما تجهض ثورته، بالانتحار أو بالفشل . ذلك بأن « الثورة النعيمية » ليست في الحقيقة ثورة ، ولكنها هرب من الحياة،وليس اجدر بالاخفاق ممن يهربون من الحياة ، كل الحياة ، حتى حين تكون شهوة تصرخ في جسد !

٦ – الواقعية والفكر العربي المعاصر

هذا البحث المستفيض للاستاذ سعدون حمادي يدل على رغبة الجيل العربي الجديد في أن ان يفلسف النهضة العربية الحديثة ، باعتبار أن كل نهضة لابد لها من الرجوع الى فلسفة تستند اليها وتستمد منها . وخلاصة ما يقوله الاستاذ حمادي أن الاعتماد في النهضات على الحق المطلق وحده لا يكفي . فالحق المطلق يصح نقطة ابتداء ، ثم لابد من واقعية تقي شر الخياليه والانهزامية على السواء . وكل هذا مقبول ، لا غبار عليه فيما يبدو . ومقبول ايضاً، بشكل نظري مبدئي ذلك الهدف الذي يرسمه الاستاذ حمادي للقومية العربية ، وذلك الاتجاه الواقعي الذي يدعو التفكير العربي المعاصر الى السير فيه . لكن الاستاذ حمادي – واحسبه من ممثلي هذا التفكير العربي المعاصر – لايتخطى حدود الوصايا والنصائح والارشادات وفرض الواجبات على المفكرين.انه ، برغم حديثه عن الواقعية ، وضرورتها ، يبقى في طور المبدئيات والنظريات المطلقة، فكأنه يضع لنفسه وللمفكرين اصولا فلسفية ليبني عليها نتائج عملية حسية فيما بعد ولعله يفعل ان شاء الله.

٧ – مراقبة التناسل

لاشك أن التناسل لم يبق عملا خاصاً يترك للفرد . فمن الضروري اذاً مراقبة التناسل، لكن بمعنى تأمين الشروط الصحية له؛ فاما بمعنى تحديده لأن ازدياد عدد السكان يفوق ازدياد المواد الغذائية في العالم ، فهذا مالا يقبل ، لأنه حل خطأ لمشكلة نشأت من فساد النظام في العالم . فمتى عرف العالم نظاماً عادلا يسوده السلام ، وتنصرف فيــه طاقة العلم الى استثمار خيرات الطبيعة،ثم وجد عجز من موارد الأرض عن تغذية سكانها،بالغين ما بلغوا، ألست ترى أن قسماً موفوراً من موارد الأمم في القوى البشرية ، ومواردها من الارض ، ومواهبها في العلم ، مرتهن بالاستعداد للحرب ثم مهدور في ميادين القتال ؟ بلى ! ليحسب الدكتور منذر الدقاق قيمة الدم الذي اريق في ساحة معركة من معارك الحرب الأخيرة ، ثم ليحسب ثمن القذائف والمعدات التي اتلفت فيها ، وليحسب الجهود العلمية التي بذلت في هذه المعركة ، وانا الكافل له بأنه سيجد رقماً فلكياً يضمن له مالا ورجالا يكفون لتحويل الصحارى الافريقية وطناً صالحاً لما يقارب سكان اوروبا . فالقضية إذاً ، ليست تحديداً للنسل بقدر ما هي سهر من الشعوب على حكامها حتى يعفوها من نفقات الحروب الباطلة . القضية هي وقف اعتداء الانسان على الانسان ، لينصرف الانسان العالم ، العامل ، الى استثمار موارد الأرض أقصى استثمار . فالكرة الارضية في الواقع ما زالت غير مأهولة اذا قيس عدد سكانها بامكاناتها المحتملة في الصحاري ، والغابات ، والقطبين الجنوبي والشمالي .

رئيف خوري

القصائد

بقلم : احمد ابو سعد

من يفتح مجلاتنا الادبية قبل عشر سنوات ، ويلاحظ ما كانت تنشره يومئذ من شعر ، ثم يقارن بينه وبين الشعر الذي تنشره المجلات في وقتنا الحاضر ، اقول من يفعل ذلك فعل الدارس المتأمل يفاجأ بتحول خطير طرأ على الشعر العربي خلال الفترة الأخيرة ، ادى الى ظهور قصائد ونماذج شعرية تتغاير تماماً مع المألوف ، وتخرج بلباس جديد ، جديد حقاً : اشكاله ، موضوعه ، الخطوط ، الالوان ، حياكة وطنيه تتفق مع تطور الآلة وتقدم العصر ، نسف فيها الشعراء القواعد القديمة ، وحرروا المشاعر من عبودية الوزن والقافية ، واتجهوا بالشعر اتجاهاً يستمد حياته من الواقع ويجعل هدفه الانسان ؛ فاختفت بذلك معالم الطريقة القديمة ، وقضي على موضوعات كانت حتى الامس القريب لها وحدها الصدارة ، وسجلت الحركة الجديدة انتصاراً لم يلق مقاومة تذكر ، فإذا الشعراء وبخاصة الجدد منهم ينطبعون بطابعها وينهجون نفس النهج مقلدين حيناً ومبتكرين حيناً آخر .

بيد أن هذه الحركة — والحق يقال — بدأت تصاب اخيراً بطائفة من النظامين والانصار المقلدين الذين غالوا في الخروج عن كل قاعدة ، والتحلل من كل شرط ، فراحوا ينظمون « على كيفهم » غير شاعرين بفداحة المسؤولية ولا ملتفتين الى مضمون الرسالة التي أخذ اقطاب الحركة على عاتقهم التبشير بها لتخليص الشعر العربي من الرتابة والجمود وداء التكرار ، وبعثه حياً من جديد ينبض بالحياة والحركة ويتميز بصدق التجربة وعفويتها وبكونه صادراً قبل كل شيء عن مذهب استطيقي مدروس وفلسفة في الحياة خاصة .

لقد جهل بعض الشعراء كل ذلك وبخاصة النقطة الأخيرة من كلامنا ، وخدعتهم البساطة والسهولة فراحوا يتحفوننا بخرائدهم كل يوم وفي كل مناسبة ، وفتح اخواننا اصحاب المجلات الباب واسعاً لنشر كل ما هب ودب من قصائد غير مكلفين انفسهم او مكلفين احداً ممن يدخل هذا الموضوع ضمن تخصصه النظر في جودة القصائد او غربلتها قبل الاقدام على نشرها ، فغرقنا — وايم الله — بطوفان التفاهة والابتذال وبحور الشعر الغث ، الشعر الذي يتشابه ويتكرر ، يتكرر بموضوعه ، ويتكرر بالفاظه ويتكرر ببنائه ايضاً حتى لقد بات الواحد منا يسأل نفسه بعد قراءة احدى هذه القصائد ، اين قرأت ذلك من قبل ؟ هو يذكر الفاظاً منها بل يذكر ابياتاً ، بل يذكر جواً بكامله لا يدري اين واحياناً يدري . ولكن وقته لا يتسع للتنقيب والتعقيب . فيستمر السادة المزيفون في غيهم وتقع المأساة . . وأخشى ما اخشاه أن ينظر طلابنا وشعراؤنا الناشئون الى بعض هذه القصائد المنشورة في كبريات مجلاتنا الادبية نظرة جدية ويعدوها نماذج يقتدي بها فيأخذوا بالطبع على غرارها فنجني بذلك على الاجيال القادمة ونساعد على افساد الذوق وتشويه سمعة الشعر الجديد لدى الذين يكيدون له وهم ليسوا بالعدد القليل .

من اجل ذلك اتمنى على هيئات التحرير في سائر مجلاتنا الادبية ان تتشدد كثيراً في هذا الامر فلا تسمح الا بنشر الجيد الرائع ، ونقفل الباب امام الناس العاديين والمبتدئين المقلدين ، وتستعيض عن ذلك بأبحاث ودراسات نقدية مستفيضة توضح مفهوم الشعر الجديد وتبحث شروط تأليفه ، وتحلل عناصره ، ليكون بذلك هدي لهم وتثقيف .

ومن اجل الشيء نفسه ايضاً سأنظر الى قصائد هذا العدد بشيء من الشد والعنف آملا ان تتسع له صدور الشعراء ، والحقيقة من وراء القصد .

في العدد الماضي من «الآداب» تسع قصائد : ثلاث منها فقط تستحق النشر ، والست الباقية ارتاب في ان يكون لأية واحدة منها قيمه تؤهلها لذلك .

اما القصائد الثلاث الاولى فهي « الفتاة التي استيقظت » لمحيي الدين فارس و « الجدار » لمحمد سعيد الصكار و « هذا المساء يا حبيبتي جميل » لأحمد عبد المعطي حجازي : اعمال شعريه استطيع القول انها تساير الحركة الجديدة وان كانت لا تمثلها حق التمثيل فهي متحللة من الوزن الواحد والقافيه الواحدة ، تستمد معانيها من الحياة ، ويطمح اصحابها ان يخرجوا منها بمضمون ثوري يزيد في تنمية الحياة ويهدف الى التعبير عن القيم الانسانية ، ويبشر بمستقبل زاهر سعيد يتحرر فيه الانسان وينطلق على أساس المحبة والعدل والتعاضد الانساني .

« الفتاة التي استيقظت » لمحي الدين فارس .

محي الدين فارس شاعر سوداني ، من القارة الافريقية السوداء ، يصور في قصيدته هذه الشعوب المغلوبة ، شعوب افريقية وآسية المستعبدة التي هبت اخيراً من رقدتها « تخلع الليل وتطوي خيمته وتجدل الفجر ضفائر وتمضي مع عبدالناصر تفتح باب التاريخ ويسهم انسانها الغجري في بناء حضارة كونية

المجد فيها للانسان إله الارض ؛ والموت لأعدائه . المجد للسلم » والطف ما في القصيدة مطلعها الذي يرمز فيه الى أفريقية الفتاة التي استيقظت :

« افريقية ما عادت طفله – ما عادت تلوب في الغابه – تختبيء وراء ظلال الطلح هنالك – تلبس اعشابه – وتبيع بحفنة خرزات – اكسير حياة خلابه – افريقيه ما عادت طفله – شبت وتثاءب نهداها – ما عادت تلعب في الغابه – تخشى الأشباح الجوابه – تمتد فتحسب قافلة خلف التل – تتلصص في حذر تصغي لخيوط حرير منسل – فتغيب باعماق الاجراس باعماق الظل – والطل على خد الاعشاب حبائل دمع منهل – افريقيه ما عادت طفله – وستعرف من داس جناها – من سور عالمها بالليل – وراح يطلسم دنياها – من سار على جثث الموتى من سار على الارض الهاً »

غير أن في القصيدة عيباً آخذه على الشاعر هو فقدان التركيز ؛ فلو أن الشاعر اكتفى من القصيدة بعشرين بيتاً منها ، وسار على الاسلوب الموحي الذي يعبر بالصور ، ولو تقيد بالعنوان لكان ذلك اضمن لوحدة القصيدة واحكام هيكلها وربط معانيها ، ولكنه لم يفعل ذلك بل وزع قواه فجره ذلك الى تعابير تقريرية وتعداد خطط ومشاريع وذكر اسماء اعلام وبلدان قللت من قيمة تجربته وجعلت بعض اقسامها ينحط الى المستوى العادي .

« الجدار » لمحمد سعيد الصكار :

ربما كان اشد ما تمتاز به هذه القصيدة الدقة في التركيز المبني بناء شعورياً ذروياً ، والاسلوب الذي يعتمد التلميح دون التصريح ، مضافاً الى كل ذلك هذه الحلاوة في النغم والرونق في اللفظ والتعبير التلقائي الذي يشير الى المستقبل الزاهر الذي ينتظر شاعرنا صاحب قصيدة « الجدار » هذه .

تقرأ القصيدة فيمتلكك رنينها الغامض ، وتسيطر عليك ألفاظها الموحية فتتمثل حياة الناس هنالك في وطن الشاعر ، الناس الهلكى الصامتين صرعى المخاوف والظلام الذين يكافحون بأعصابهم ويحلمون بغد مرتقب يطلع فيه الفجر ويسطع النهار .

قصيدة موفقة لا يضيرها أنك تلمح فيها آثار غيره من رواد الطريقه العراقية الحديثة في الشعر لما تتمتع به من صدق التجربة وحرارة الانفعال .

« هذا المساء يا عزيزتي جميل » لأحمد عبد المعطي حجازي

هذه القصيدة – اقول لك الحق – أحببتها ، أحببتها كثيراً وشعرت عند قراءتها بنسمة دافئة تنفح وجهي. شعرت كأن ظلالا ندية تفيئني وعبقاً شهياً ينفذ الى قلبي ويدغدغ أوصالي .. ماذا أقول ؟ يمشي في جوارحي . بساطة وحنان ورقة انسانية وعاطفة ونجوى حارة مهموسة وغزل .. غزل لا كالغزل « الذي يدور على أوهام النفس وأحلام الذاتية منفصلا عن التجارب الانسانية ذات الشمول والتكامل والعمق ، وانما الغزل الذي يعقد صلات الألفة والود بين الأشياء الصامتة والانسان، بينما تراه العين من الوان الجمال وبين ما تحس النفس وما يكتشف الوعي من الأعماق » غزل لا ينسى الانسان فيه قضيته .. اتمنى أن يقف عنده الشعراء قليلا ويدركوا أن القصيدة لا ينهض بها موضوعها فقط .. وأن مشاركة الفن في التعبير عن مشاكلنا أن تعطي أكلها اذا جاء الشعر محض تقرير يصف التجربة أو يخبر عنها ولا ينقلها .. والى القارئ هذا النموذج من الشعر الوصفي التقريري في قصيدة « بلادنا مقابر الغزاة » للسيد حسن فتح الباب :

« وصية من عهد أوزيريس – فاغمة من نفحة الزهور – ومن اهاب اللوتس النضير – قد شفها العبير – وصانها عن خائن العيون – بين رقى تابوته العهيد – احباب كاهن قديم ... »

وهذا نموذج آخر من « منظومة خطاب الى أختي» لمبارك حسن خليفه :

« يا أخت تحيات عطرة – من قلب يشتاق اليك – ولأمي – وفتاتي تلك السمراء – لسعاد يا أخت تحية – ولكل رفاقي وصحابي – مازال خطابك في كفي – يهتز وينبض .. » وعلى هذا النمط فقس قصيدة « انشودة القتال » لعبد الرحمن رباح الكيالي و « أنا وهي والليل » لهنري صعب الخوري و « حب وجلجلة » لخليل حاوي . اشعار تتفاوت من حيث الضعف والرداءة نيات أصحابها ومقاصدهم شريفة طبعاً ولكن النيات وشرف القصد لا تعمل وحدها شعراً .. نريد فناً وحياة وأدباً يخفق بحرارة التجربة وصدق الانفعال .

بيروت

احمد ابو سعد

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص. ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا – رأس الخندق الغميق ، بناية الأسمر

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات

في امیركا : ١٠ دولارات

في الأرجنتين : ١٥٠ ريالاً

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص. ب ٤١٢٣

النشاط الثقافي في الوطن العربي

لبنان

مؤتمر « خلق المواطن الصالح »

اقيم في الجامعة الاميركية ببيروت في الشهر الماضي مؤتمر الدراسات العربية السابع ، وكان موضوعه « المواطن الصالح .» وقد اشترك فيه الدكتور فؤاد عمون في « مفهوم المواطن الصالح » ، والدكتور اديب نصور في « مهمة الدولة في خلق المواطن الصالح » والاستاذ ادمون رباط في « مهمة النخبة في خلق المواطن الصالح » والاستاذ محيي الدين النصولي في « مهمة الصحافة في خلق المواطن الصالح .» .

وفيما يلي تلخيص لأهم ما ورد في هذه المحاضرات .

تحدث الدكتور فؤاد عمون عن ان تقاعس اولي الفكر في البلاد العربية عن معالجة هذا الموضوع فيما مضى يرجع الى ما يكتنفه من صعاب ، اهمها افتقار اللغة العربية الى المصطلحات العلمية ، واقترح ان يعنى ارباب اللغة بالناحية اللفظية من العلوم الاجتماعية ؛ ثم تطرق الى اختلاف الاوضاع والنظم السياسية والاجتماعية ، والى تباين النزعات السياسية والتيارات الفكرية في بعض البلدان العربية ولاسيما لبنان . وانتقل المحاضر الى تعريف المواطن فقال :

كانت كلمة « مواطن » في العهد القبلي العربي تعني « المقام » . وفي العهد الاسلامي اسبغ على المواطن معنى جديد فجاء في الحديث الشريف : « حب الوطن من الايمان» . اما اليوم فقد اتفق اتفاقاً يشبه الاجماع على تعريف الوطن بانه وحدة سياسية تتألف من قوم يقطنون إقليماً ذا حدود معينة تجمعهم وحدة الاماني ، والشعور بالمصير الواحد .

والمواطن الذي نعنيه في موضوعنا هو المواطن الراشد ، الراشد بالمعنى القانوني اي الذي بلغ سن الرشد السياسي ، وهو غالباً ما يكون في الديموقراطيات عند اكتمال الحادية والعشرين ، اذ يحق له عندئذ ان يمارس حق الانتخاب ، او الاقتراع في مجالس الدولة على حد قول ارسطو ، وان لم يكن قد بلغ السن التي يجوز له فيها ان ينتخب نائباً . ويطلق عليه الغربيون Citizen . والمواطن في البلاد اللاديموقراطية لا يتمتع بحق الانتخاب ، وهو غير راشد سياسياً في العرف الديموقراطي .

ثم تحدث الدكتور عمون عن الولاء للدولة والوطن وما يشوبه من رواسب الماضي فقال :

وما تزال تشوب الحكم في الدول العربية ، ديموقراطياً كان امفردياً ، عوامل لا تنسجم مع تعريفنا العصري للوطن ، وهي :

١ – الدين والدولة : فلا يزال الحكم في بعض البلاد العربية متصلا اتصالا وثيقاً بالدين . ولا توجد الا دولة واحدة لا دينية وهي لبنان .

٢ – الطائفية : اذا نجا لبنان من مسألة ارتباط الدولة بالدين ، فهو يعاني مشكلة الطائفية . والطائفية ليست تنازعاً بين الاديان والمذاهب بقدر ما هي تنازع بين فئات مختلفة من الشعب على الحقوق والمنافع . والطائفية لا تلغى وانما تنهار .

٣ – القبلية والاقطاعية : لا يزال في العالم العربي بلدان يكون البدو جزءاً من سكانها ، والاوطان الكثيرة القبائل كما قال ابن خلدون قل ان تستحكم فيها دولة . والاقطاعية كالقبلية منافية لطبيعة الدولة تضعف من روح الولاء للوطن حيث هي قائمة .

٤ – تجريد الشعور الجماعي بالمواطنة الصالحة من رواسب الطائفية والقبلية والاقطاعية :

هناك وسائل عديدة تعالج بها الطائفية كما تعالج القبلية والاقطاعية تقوم في علم الاجتماع على قاعدة تقاطع الدوائر الاجتماعية .

وانتقل الى الحديث عن النزعات الحديثة (الاجتماعية والدولية والسياسة) وتأثيرها في ولاء المواطن لوطنه فقسمها الى ثلاث :

١ – المذاهب الاجتماعية : تحصر العوامل التي اتينا على ذكرها معنى الوطن والمواطنة في اضيق نطاق . أما المذاهب الاجتماعية والمنظمات الدولية والقومية العربية فهي قوى مبعدة Centrifuge ومن المذاهب الاجتماعية الاشتراكية المركسية . وهي معنى جديد للمواطنة تتجاهل الحدود الدولية .

٢ – النزعة الدولية : وتمثل هذه النزعة الامم المتحدة والجامعة العربية . وترمي هذه النزعة الى تعاون دولي عبر الحدود السياسية .

٣ – النزعة القومية العربية : هذه نزعة قديمة العهد ، ترجع الى اولى ايام النهضة الاستقلالية العربية. وعلى الرغم من الاحداث التاريخية اللاحقة بمعاهدة سايكس – بيكو الاستعمارية عام ١٩١٦ فان الوحدة العربية لم تعدم مؤيدين مؤمنين .وقد

اشتات ادبية

* نشطت الصحف الادبية اللبنانية في الفترة الأخيرة نشاطاً ملحوظاً من حيث المادة والاخراج . ولكن نشاط بعضها اقتصر على مهاجمة النزعة العربية الصريحة في مجلة « الآداب » .. ولا حاجة بنا الى التذكير بأن القافلة العربية تسير ...

* أصاب اللبنانيون في الشهر الماضي متعة فنية كبيرة بمشاهدة فرقة الباليه الروسية تقدم على مسرح الاونسكو روائع من الرقصات الروسية الفنية التي اوحت للمعنيين بالفنون عندنا بضرورة اغناء الفولكلور الشعبي في جميع مظاهره .

* اسس الفنانون اللبنانيون والرسامون والنحاتون جمعية دعوها « جمعية أهل الرسم والنحت » غايتها رعاية الحركة الفنية في لبنان والاهتمام بمصالح الفنانين . وستدعى الجمعية العمومية قريباً لمناقشة القانون الاساسي والتداول بمختلف الشؤون التي تهم الفن والفنانين .

* عممت اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية على وزارات المعارف في الاقطار العربية مذكرة توصي فيها الجهات المختصة بشراء نسخ من « قاموس لسان العرب » طبع دار صادر – دار بيروت لتوزعها على المكتبات العامة ومكتبات الكليات والمعاهد والمدارس .

* سيفاجيء الشاعر السوري الاستاذ نزار قباني قراءه بكتاب جديد ، ولكنه نثري ، عنوانه « الخبز والزنبق » . وسيصدر هذا الكتاب قريباً جداً عن « دار الآداب » في بيروت .

قدم الى مجلس جامعة الدول العربية مشروعان احدهما سوري والآخر عراقي ينصان على انشاء اتحاد بين دول الجامعة غايتهما الوحدة العربية . وقد اخذت مصر وسوريا تعملان على انشاء اتحاد بينهما . وقد كانت هذه الخطوة استجابة لدعوة صادرة عن الاوساط الحزبية والشعبية .

وهناك احزاب تتمسك بالاوضاع الراهنة .

وهناك في لبنان حزب النداء القومي الذي يعترف بالكيان اللبناني وسائر الكيانات السياسية العربية من جهة ، وبالقومية العربية من جهة ثانية وينزع الى تحقيق الوطن العربي الاكبر . وينزع الحزب القومي السوري الى توحيد الهلال الخصيب بما فيه لبنان . وعلى عكس هذين الحزبين يطالب حزب الكتائب وحزب الكتلة الوطنية بالدفاع عن الكيان اللبناني ، لكنهما يدعوان للتعاون مع سائر الدول العربية في حدود ميثاق الجامعة . ولكن معظم هذه الاحزاب ، على اختلاف اهدافها القريبة والبعيدة تجتمع حول ما أسموه الميثاق الوطني . وهذا الميثاق موضع جدل من حيث اعتباره وسيلة او غاية . ولكل حزب رأيه في هذا الشأن .

وتحدث عن الديمقراطية البرلمانية فقال :

يقوم الحكم البرلماني على قاعدتين : ١ – شعب ذو سيادة يفوض سيادته الى نواب ، ٢ – مسؤولية الحاكمين امام النواب .

فانتخاب النواب حجر الزاوية في الحكم الديمقراطي ومسؤولية الحكام امام النواب في الحكم البرلماني بمنزلة الغلق من العقد . فهل تعبر الانتخابات النيابية في لبنان عن حقيقة ارادة الشعب ؟ الجواب على هذين السؤالين ليس بالجواب الشافي. فمن مقتضيات الحكم الديمقراطي التعليم ، والتعليم في لبنان يعاني ازمة مردها الى سببين : ١ – فقدان التوجيه العام . ٢ – شدة التوحيد في برامج التعليم التي لا تفرق بين حاجات المدينة والقرية والصناعة والزراعة والنخبة العامة .

ثم ان السلطة تعمد الى توجيه الانتخابات الوجه الذي تريد . ولا تقف السلطة موقفاً حيادياً عند تنفيذ الانتخاب . ثم هل الحكام مسؤولون بالفعل امام مجلس النواب ؟ ألم تعين معظم الوزارات كما لو كانت مسؤولة أمام رئيس الدولة لا مجلس النواب ؟

وانتهى المحاضر الى القول بأن الواقع العربي يشيع الثقة بحسن المصير .

مهمة الدولة

اما الدكتور اديب نصور فقد بدأ بتعريف الدولة ثم ذكر ان ضعف الدولة في الشرق العربي يرجع الى قوة المؤسسات الصغرى ضمن الدولة ، والى عداء موروث للدولة ناتج عن الحكم الاجنبي والحكم المستبد ، والى ان الدولة لا تستأثر بولاء المواطن ، لأن هناك ولاء آخر لامة العرب عبر الحدود ، والى ان الادب يقوم غالباً على تمجيد الثورة . ثم عدد المحاضر عناصر التربية للمواطنة وهي :

١ – علم الواجبات المدنية .

٢ – الرؤيا – المثل الاعلى في التاريخ ، في الادب ، في الحياة .

٣ – الحب – المواطنة حب المواطنين – « ان تحب قريبك كنفسك » .

٤ – اكتساب فضائل المواطن بممارسة الفضائل والعيش كمواطن .

وسرد اهم وسائل التربية المتاحة للدولة وهي :

١ – المدرسة – ٢ – الدولة : دوائرها ، اجهزتها ، خدماتها – ٣ – الراديو ، التلفزه ، الشاشة – ٤ – الصحافة واللغة والادب – ٥ – الجمعيات الوطنية والمنظمات والاحزاب – ٦ – الشخصية .

مهمة النخبة

وهذا تلخيص واف لمحاضرة الاستاذ ادمون رباط عن « مهمة النخبة في خلق المواطن الصالح »

للنخبة في ظهور المواطن الصالح وتربيته تأثير عميق . فظهور هذا المواطن لا يتم الا في بيئتها . والنخبة معنى متعارف عليه يشوبه الغموض . وهو لا يفي بحاجتنا الملحة الى معرفة شاملة للنخبة ولابد للتعرف الى هذا الموضوع من دراسته دراسة علمية من نواح ثلاث :

١ – معنى النخبة ونشاطها ووظائفها :

ا – معنى النخبة : النخبة في واقعها ظاهرة اجتماعية . ويمكن تحديدها بأنها هي تلك الطائفة الظاهرة من الاشخاص في كل مجتمع ووسط اجتماعي . وهناك من ينبثق عن النخبة فيتزعمها . وتقوم النخبة حيث تظهر بالقيادة والتوجيه بطريق الحكم او المال والنفوذ او التقليد والتقيد .

ب – حدودها : يبدو انه من المستحيل تعيين حدود هذه الظاهرة الاجتماعية اي النخبة . ذلك اننا لا نستطيع تبين بداية تكوينها وظهورها ومداها . الا ان هذه المشكلة لا تنفي وجود النخبة ، وضرورة دراستها .

٢ – كيفية ظهور النخبة وتطورها :

ا – لاحظ الحكماء منذ اليونان انه ليس للانسان حياة الا في المجتمع بل لا يحفظ التاريخ من حياة الفرد الا ما كان متصلا بالمجتمع الذي عاش فيه . لكن المجتمع لا يستقر في حالة ثابتة . وفي احدى مراحل تطوره تظهر في وسطه كتل متباينة في وظائفها متكاملة . وبين هذه الوظائف وظيفة السلطة في المجتمع .

والسلطان في الاصل لا يتصل بالشخص او الجماعة التي تمارسه . فقد كان في المجتمعات البدائية موزعاً بين اجزاء المجتمع كافة . ثم بدأت عملية التفريق الذي تساعد على تحقيقه النخبة . وتتسلم النخبة عندئذ القيادة وتبعث زعيماً الى

الوجود يقبض على زمام الملك . وهذا التطور ينطبق على كل المجتمعات . ونلاحظ ان النخبة هي التي تسير المجتمع ، وانها تصبح في المرحلة الكبرى من التطور الطبقة الحاكمة .

والفئات التي قامت بتطوير مجتمعاتها بين الشعوب القديمة هي نخب فرضت نفسها بقوة الفكر او المال او السلاح .

ب – ويتضح هذا عند استعراض ما قامت به النخبة فيمختلف المجتمعات. فالاقطاعية مثلا لا تعني في الواقع سوى تسلط نفر على سيادة المجتمع واستلام قيادته . والنخبة من رجال الاقتصاد في مكة هي التي قاومت الاسلام . وليست البرجوازية في العهد الحاضر في اوروبا الغربية الا نخبة برزت في اعماق شعب كان يعمل ، طوال القرون الوسطى في ظل سلطان النبلاء . ومن داخل البرجوازية قامت البرجوازية العالمية التي لم يزل يخرج منها رجال الحكم والصناعة الكبرى والتجارة الضخمة في اوروبا الغربية . لكن نخباً اخرى من طبقات العمال قد بدأت ترتسم ، وتدخل حلبة الحياة العامة . وكانت ثمرة كفاحها هذه المنظمات النقابية .

ج – بيد ان ازمة حادة قد نشبت في المجتمعات المعاصرة ، من ناحية اتصال النخبة بالطبقة القائدة . ذلك انه حدث تفكك وانقسام في صفوف الطبقة القائدة . فظهرت فئات من تلك الطبقة غريبة عن طبقتها الاصلية ، واخذت تكون نخبا جديدة . وبدأ التنافس بين هذه النخب : ولجأت الفئات المتنافسة الى الاحزاب التي تهيىء الاطار الذي يشد عزمها والعقيدة المنظمة بعدما تقلصت القيم التقليدية وعلى الاخص الدينية منها .

ونتج عن ذلك كله تعدد الطبقات . فلم يعد المجتمع منقسماً بين حاكمين ومحكومين بل تعددت بينهما الطبقات المتوسطة . ومن هذه الطبقات مالا يستند في وجوده الى الثروة او النسب .

وبرزت خطتان متباينتان لايجاد حلول للمعضلات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تكمن وراء هذا الصراع بين الاحزاب اي بين نخبة ونخبة : وهما الديمقراطية الغربية والثورة والانقلاب عند الشيوعية . الا ان الازمة بقيت في الديمقراطيات الغربية حيث لم تزل النخبة التي ابت ان تنتمي الى حزب معين بعيدة عن الطبقة الحاكمة .

٣ – وظيفة النخبة في المجتمع :

ا – كان اثر النخبة في المجتمعات الاولية طبيعياً وغير معلوم ، لازماً وغير مرغوب ، وكان اثرها عاملا جعل المجتمع يزيد تعقيداً وتنظيماً . الا أن اثر النخبة تبدل في المجتمع عندما شعرت النخبة بقدرتها على توجيه هذا المجتمع وفقاً لمناهجها . اذ برز زعماء الشعوب من بين هذه النخبة ، واستطاع بعضهم كالانبياء ان ينشروا قيماً روحية جديدة ، والبعض منهم كالفاتحين مهدوا السبيل لانتشار قيم سابقة كانت منحصرة في بقاع ضيقة .

ب – على الرغم من ان امر الزعيم يكتنفه الغموض فهناك وقائع ثابتة اجمع الناس عليها وهي :

لا يأتي خلق الزعيم من العدم فهو وليد المجتمع الذي ينشأ فيه .

– لا يقتصر خلق الزعيم على البيئة وحدها بل يشترك في خلقه التكوين البيولوجي .

– يحتاج الزعيم ايضاً الى الظرف التاريخي الملائم لظهوره .

ج – للوعي العلمي شأن عميق في امر التربية السياسية . ودرجة تأثير العقل على سير شؤون المجتمعات تميز بين شعب وآخر . فالتقدم الاجتماعي الصحيح انما هو في تحكيم العقل في الطبيعة .

وتحدث المحاضر عن احوال النخبة في المجتمع العربي فقال : نستطيع بناء على ما مر ان نجد صنفين من الطبقات القائده في المجتمع العربي المعاصر :

١ – الطبقات التقليدية ومنها ما اندثر وما بقي حياً . فمن الطبقات البائدة الشرفاء في المجتمعات الاسلامية وطبقة النبلاء في جبل لبنان. والطبقات الموجودة متنوعة ولاسيما في لبنان ومنها : الطائفية التي لا تؤلف طبقة بمعناها الاجتماعي والاقتصادي بل مجتمعاً خاصاً مستقلا . وبجانب الطائفية نجد الاقطاعية . وهناك طبقة الملاكين الكبار .

على ان الطبقة المسيطرة اقتصادياً هي الطبقة البرجوازية الطالعة في البلاد العربية ، التي تمتلك وسائل الانتاج . وهي طبقة حديثة العهد ولاسيما بافرادها المسلمين وذلك منذ ان بدأت جهودهم تتحول عن الوظائف الحكومية والعمل الزراعي الهادئ . على ان هذه الظاهرة الاجتماعية الكبرى دفعت المجتمع الى تطور سريع نحو التحرر من قيود الماضي . وأدت الى ايقاظ الوطنية الكامنة . ونتيجة لهذا التطور بدت علامات الاضمحلال تنتاب الطائفية .

وهناك نفر من المثقفين في كل مجتمع عربي قد عجز حتى الآن عن ايجاد وسط يأوي اليه ، وهو يتخبط لذلك بعقد نفسية ومشاكل مالية تجعله قلقاً .

٢ – كيفية نشوء النخبة : كان العلم (الديني) والجهاد في العهد الاول للاسلام هما سبيلا الارتقاء الاجتماعي . ثم اوجدت التجارة الدولية طبقة برجوازية. على ان النخبة التي تشكلت من عمال السلطان والدولة الفت طبقة جديدة .

على ان النخبة اليوم باتت تصدر عن معينين اوليين : وهما المال والتعليم .

٣ – مهمة النخبة : ما تزال النخبة تقود الشعب في عصرنا . على ان بجانب هذا النفر من رجال السياسة والمال الذين يؤلفون الطبقة الحاكمة في المجتمع العربي تربض فئات اخرى تعتبر انها هي التي تؤلف النخبة الصحيحة ، وهي تتصف في الواقع بثقافة جامعية عالية لا تستفيد منها في الحياة العامة وانما في حقول الاعمال المهنية فحسب . والازمة ناشبة بين هذين الصنفين من النخب . وقد اخذت النخب تنتظم في احزاب .

لكن هل تمكنت النخبة المنتظمة في الكتل السياسية من تحديد مهمتها في تطوير المجتمع ؟ هناك برامج للاحزاب . ولكن يبدو لي خلال خطوطها الواسعة ضعف استعداد من يناصرها الى اخضاعها الى الهدف الاول الذي يقوم نصب اعين العالم العربي وهو وصل هذا العالم العربي بالمجموعة الدولية لجعله جزءاً فعالا منها لا يمارس حياة كريمة فحسب بل ويساهم في انماء الحضارة العصرية .

فالمشكلة اذن خلق مجتمع عربي عصري بل دولة عربية عصرية لايرتبط افرادها برابطة الدين او الطائفية بل بصلة التجانس والانسجام : وهذا الهدف يتطلب فلسفة وتنظيماً . وهو عمل ادنى ستجد فيه النخبة منفذاً لحيوية تصرفها في خلق المواطن الصالح .

مهمة الصحافـــة

اما محاضرة الاستاذ محيي الدين النصولي فهذا ملخصها :

ليس من مصلحة تطورت بسرعة البرق الخاطف كما تطورت صناعة الصحافة لاسيما في البلدان الكبرى وفي هذه الحقبة من الزمن . كأن اية جريدة يومية كبرى في عهدنا هذا مشروع ضخم يتطلب طاقة بشرية هائلة وآلات لا تحصى وادارة دقيقة منظمة .

والجريدة تقوم اول ما تقوم على قسم التحرير وعلى الادارة . وقسم التحرير يهتم بالاخبار ويعلق عليها . اما الاخبار الجديرة بالنشر فيجب ان تتحلى باربع صفات ، ان تكون ماتعة ، ومهمة ، وجديرة ، وصحيحة ، وعلى اساس انتقائه للاخبار وطريقة عرضه لها يعرف الصحفي الفطن ويميز رئيس التحرير الذي يستعمل ضميره الصحفي ومركزه كمرجع اخير في اثبات الاخبار او رفضها ، ليخلق المواطن الصالح . والمقياس لاهمية الخبر ما اذا كان يثير او لا يثير اهتمام اكبر عدد ممكن من القراء . وهنا يتجلى جهد الجريدة في ابراز الخبر الصحيح ، وتبرز المزاحمة بين الصحف في التسابق الى نشره . والخبر الصحيح هو ما اقتنع به الصحفي وتحقق منه بواسطة غير مصدر واحد . بعض الصحفيين ينشر الخبر المغلوط او يختلقه في سبيل انتزاع السبق الصحفي ولكنه بذلك يفقد ثقة المفكرين من القراء ويلطخ رسالته . متى توفر للصحفي بعد النظر والمال والتنظيم توفرت له الاخبار الماتعة ، المهمة الجديدة الصحيحة .

والجهاز الحكومي والبرلمان ، والرجال المسؤولون هم المصدر الاساسي للاخبار المهمة والماتعة والجديدة والصادقة . ومن واجبات هؤلاء ان يعودوا الصحفيين الثقة بهم بمصادقتهم وتزويدهم بحقيقة الامور كي يتعاونوا معاً على خلق المواطن الصالح . وعلى قسم التحرير ان ينقل الى قرائه على ايدي مراسلين ومحررين اختصاصيين اخبار المجتمع الادبية والعلمية والفنية وغيرها ، واخبار المجتمعات الاخرى في العالم . وكل ذلك بحلة تروق العين والضمير الحي والذوق السليم . اذ بمثل هذا يربى المواطن الصالح .

وللصحافة اليوم مهمتان : نشر الاخبار وابداء الرأي . والانباء تبقى ميتة ان لم يتناولها المعلقون بالتعليق والتوجيه ان كتابة او تصويراً . وهنا يبدو ما للصحافة بما فيها المجلات الاسبوعية والشهرية من اثر في تكوين الرأي العام حول كل ناحية من نواحي الحياة ، وبالتالي في تكوين المواطن الصالح . فالرأي العام لا يكون الا بالصحافة . وللجرائد اليومية الاثر الاعمق فيه . وللرأي العام قوة ان اطلقت دمرت او عمرت . لذلك كانت الصحافة السلطة الاولى لا الرابعة كما اعتدنا ان نسميها .

ولا تستطيع الجرائد ان تؤدي مهمتها البناءة في خلق المواطن الصالح الا في جو رائق من الحرية الصحفية . غير ان مزاحمة السينما ودور الاذاعة والتلفزيون للجرائد في نقل الاخبار والآراء والصور هذه الايام جعلت هذه الاخيرة تعمد الى جذب القراء عن طريق الترفيه جاعلة الانباء في المرتبة الثانية من الاهمية مع الشعور بضرورة عدم بسط الحقيقة فيها كاملة . ولكن على الصحفي ان يوفق بين مصلحة الجريدة من الوجهة التجارية وبين متطلبات الحرية . اذ ان حرية الصحافة لها حدود ، فلا يجوز للكلمات ان تجرح وللقلم ان يجمح فينشر مالا يجوز نشره ويشتم من لا يجوز شتمه فيرتمي ويرمي مجتمعه في المزالق . ولقد تدخلت الحكومات في حرية الصحافة ووكلت للقضاء الحد من هذه الحرية . غير انه مهما تتوافر لذلك القوانين فان قانون الضمير هو قانون الصحفي الذي يوجهه دائماً سواء السبيل فالمحاكم تستطيع فقط ان تسجن الجسد وليس بوسعها ان تحبس الروح . ومن واجب الصحفي قبل ان ينصب نفسه معلماً وهادياً ان يطمئن الى انه حقاً ذلك الهادي والمعلم .

ان الصحافة التي تتصل بالمواطن اتصالا مباشراً كل يوم تستطيع ان تخلق هذا المواطن بالخبر والرأي والصورة وان تسهم في خلق الاسرة والمعبد والحكومة وكل من يعنى بالمواطن من قريب او بعيد ، ذلك اذا كان القيمون عليها من الصالحين الممتازين .

والصحفي الصالح لا يقوم الا اذا توفرت له ثقافة رفيعة وعقل تطبيقي متفتح وتدريب مهني فائق ، وضمير حي يقدر المسؤولية الاجتماعية ، ومدارس تعلم اساليب الصحافة والامانة لمبادئها . فان توفرت هذه جميعها للصحفيين في العالم العربي توفر لهذا العالم المواطنون الصالحون .

وتحدث الاستاذ النصولي عن مستقبل الصحافة العربية : فقال ان الصحافة العربية تسير قدماً ، على الرغم من تعثرها ، في خلق المواطن الصالح . هذا اذا ضمنت حريتها في ظل النظام الديمقراطي . وطلبنا اليها ان تصمد في وجه الظلم والظالمين ، وتعاند بالنقد البناء حتى تنهار الحكومات الضالة ، وتهزأ بالرشوة واضعة نصب عينيها خلق المواطن الصالح .

ان للحرف قدسية وفعالية في خلق المواطن الصالح ، فلنحرص عليه من ان يبتذل ويستعمل للتدمير بدلا من التعمير والبناء .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

سوريا

لمراسل «الآداب» سعد صائب

الضحك عند الكبار والصغار

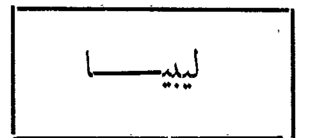
القى الدكتور ابراهيم الكيلاني محاضرة طريفة في « الندوة الثقافية النسائية بدمشق » عنوانها « الضحك عند الكبار والصغار » استهلها بالتعريف اللغوي للضحك كما ورد في المعاجم العربية والاجنبية ، ثم عمد الى تفصيل الخصائص الوجدانية والعاطفية التي ينفرد بها الانسان (الضاحك) دون غيره لأنه يتمتع بالعواطف والقوى العاقلة والانطباعات الاخلاقية التي تستوعب احكاماً وتصورات لا نجدها عند الحيوان ، وتطرق الى تقسيم الضحك الى نوعين ، ضحك الصغار وهو ضحك بريئ رنان يصدر عن استعداد طبيعي للتفاؤل والسرور والرضى ، وتحدثه اقل المؤثرات . وضحك الكبار وهو انفجار حادث مبعثه ليس عدم الاهتمام واللامبالاة كما هي الحال عند الطفل ، بل خصائص عقلية معقدة مضحكة ، من فكاهة أو نادرة او ذكرى خاصة ، فهو اذن حال استثنائي ، وزحزحة لكابوس الوقار وثقل التقاليد الاجتماعية التي نرزح تحتها ، حيث تتجاذبنا احزان الماضي ، ومتاعب الحاضر ، ومخاوف الغد ، التي تشكل كل تجاربنا المفجعة في الحياة . ثم اشار الى اختلاف الضحك حسب العرق والمزاج والجنس ، فالضحك الانكليزي مثلا بارد فيه تهكم وجمود وسخرية ، والضحك الفرنسي فيه خفة وحدة لاتينية ، والضحك المصري يتصف بالخفة والطلاوة وسرعة الخاطر والبديهة ، فهو كالروح الشرقية يعتمد على التلاعب اللفظي تارة ، والمعنوي تارة اخرى . كما ابان المحاضر كيف ان المرأة تضحك بسهولة ، ولأتفه الاسباب ، الا انها لاتجيد الاضحاك الا في عدوى الحرارة الضحكية التي تنبعث منها ، وهي قديرة على كشف الجوانب المضحكة في الاشياء ، ولكنها عاجزة عن ابتكارها واعطائها شكلا محسوساً ، ويعزو المحاضر تقصير المرأة في الإضحاك الى ان الذكاء النسوي قائم على التفهم لا الابداع ، وان الطبيعة اجبرت المرأة على ان تحيا بقلبها . وهنا يخلص الى القول بان الضحك تعبير عن الفرح وان له اسباباً عديدة جهد علماء النفس في حصرها وتصنيفها ، وكلها صحيحة ، ولكنها على صحتها ووجاهتها ، لا تكتفي واحدة منها بذاتها ، بل تستعين باخواتها لدعمها وسد جوانب النقص فيها ، وهنا اشار المحاضر اشارة عابرة الى النظريات التي تدعم رأيه ، مورداً قول « سبنسر » في « التناقض الهابط » وانه سبب من اسباب الضحك ، اي ان الضحك يحدث بصورة طبيعية عندما يكون الوجدان مشغولا بعظائم الامور فاذا به يهبط الى صغائرها ، كما نوه بالتناقض بين فكرتين او صورتين ، وانه من موجبات الضحك ، شريطة ان يكون الشيئان المتناقضان متواترين كأنهما يخصان شيئاً واحداً ، حتى نتوهم في آن واحد ان الشيء كائن وليس بكائن . كما اورد خلاصة وجيزة لنظرية « برغسون » تقول ان الضحك ظاهرة انسانية ، وان الجماد غير مضحك ، فالاشياء في عالمي الجماد والنبات غير مضحكة لأنها تجيب دوماً عن نفسها ، اي اننا لانلمح تناقضاً بين مظهرها ومعناها . اما الانسان والحيوان فهما وحدهما مضحكان ..

وختم المحاضر حديثه بعد ان جلا جلاء موفقاً خصائص الضحك وانواعه ، مورداً مشاهد ونكات مضحكة طريفة اختارها اختياراً انيقاً حلواً نالت استحسان السامعين واعجابهم !.

الالتزام ...

كتب الاديب فؤاد الحكيم مقالا في مجلة « النقاد » بعنوان « الاديب بين الالتزام والواقعية » علق فيه على استجواب الاديبة السيدة عائدة مطرجي ادريس ، الدكتور طه حسين المنشور في عدد « الآداب » الثاني وماورد في جواب العميد عن رأيه في الادب الذي اوجدته معركة بور سعيد ، ومما اورده الكاتب عن الالتزام قوله : « ان الدكتور طه حسين لم يعط رأيه صريحاً في هذا الادب ، لقد ترك الحكم عليه للتاريخ ، وبهذا اشعل نار معركة فكرية جديدة حول الالتزام ، ان لم اقل انه شجب الالتزام من اساسه. فما قول « الآداب » ورئيس تحريرها الدكتور سهيل ادريس ؟ » ثم يتحدث الكاتب عن دور « الآداب » في حمل الدعوة الى الأخذ بالادب الملتزم منذ صدورها ، فيعتبر هذه الدعوة مغامرة لأن هذا اللون من الأدب يتطلب – على حد تعبيره – فكراً ناضجاً واعياً ، وهنا يشير الى معنى الالتزام كما عبرت عنه « الآداب » وكما فهمه هو بأنه « تجنيد للفكر في خدمة السياسة او بعبارة اصح تفهيم المجتمع العربي نوع الاوضاع السياسية – بالدرجة الاولى – والاقتصادية والاجتماعية التي تلفه خلال النظرة العامة الى الاشياء ، دون ان تكون هناك نظرة خاصة الى اوضاع فرد واحد من هذا المجتمع الكبير ». ثم يخلص الى القول بان الدكتور سهيل ادريس في كتاباته « قد عبر عن « الالتزام » كما يفهمه ، وكما يجب ان يكون حقاً بوعي ونضج » ثم نراه يتعرض بالنقد لبعض الادباء ممن شكلوا جمعيات ، أو اعطوا ادب الالتزام مفهوماً آخر « أو هم حوروا المفهوم الاول ، فلقد ادعوا ان الالتزام يعني الحرب على الاستعمار ، والتعبير عن الناحية السوداء في حياتنا سواء اكان ذلك صحيحاً او مغلوطاً ، وسواء أكان صادراً عن تجربة معاشية ، ام تجربة تفتعل افتعالا .. ثم فهموه عرضاً لقضايا تخدم اغراضاً حزبية ، او تعلن عن فكرة ورأي » كاشفاً عن الزيف الذي صاحب هذا المفهوم مختتماً مقاله بقوله : « .. اذن فدعاة الالتزام لم يحققوا رسالة الادب بمفهومها الشامل ، والادب تعبير حي واع صادق للواقع مهما كان هذا الواقع اسود ، ومهما ابيض ، المهم انه يعكس مشاكل الناس فيجدون فيه صوراً لهم تهمهم وبهذا يستطيعون اصلاح او تلافي ما يعترض حياتهم من عقبات نفسية ومادية ... لقد خلق دعاة الالتزام هؤلاء – متعمدين وغير متعمدين – هوة عميقة تفصل بينهم وبين الشعب » ..

النشاط الثقافي في الوطن العربي



القصة في الشعر الليبي

بقلم : محمد الصادق عفيفي

مابنا من حاجة إلى أن نتتبع في هذا المقام موضوع « القصة » لأنه متشعب وطويل ، فهناك تاريخ القصة ، ونشأتها ، وأنواعها ، ثم ما يتولد عن هذه الأنواع من ألوان أخرى .

وهناك شروط القصة ، وكيفية بنائها وحوكها ، وما تدور عليه من الحوادث ، ثم العقدة فالحل .

وهناك القصة في الأدب العربي عامة ، والأدب الليبي خاصة ، وهذا كله ليس موضوع بحثنا وإن كان يهمنا « القصة في الأدب الليبي » ، لنسترشد بها في حديثنا عن « القصة في الشعر الليبي » ، ولقد أفردت مجلة « صوت المربي » عدداً « للقصة الليبية » هو العدد : « السابع » من حياتها المديدة . ولكنها لم تعرفنا بمناهج « القصة الليبية » وفنيتها وطرائقها إلا في دائرة ضيقة هذا فضلا عن عدم إشارتها « للقصة في الشعر الليبي » .

ولذلك رأينا أن نلم إلمامة موجزة « بالقصة الشعرية » لدى الشعراء الليبيين بالقدر الذي تسمح به معلوماتنا عن شعرهم .

الشعر القصصي : هو ذلك النوع من الشعر الذي يشتمل على سرد الحوادث والوقائع ، وفي هذا الضرب من النظم لا يكاد يعبر الشاعر عن عاطفته وميوله الخاصة ، ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنما يعبر عما يجول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم ، وعن ميولهم .

والمهم أن يتخذ الشاعر هذه الحوادث والوقائع محوراً يسير عليه في حبك خيالها ، وصياغة أسلوبها .

والشاعر الليبي قد أدلى بدلوه في نظم « القصة الشعرية » فجرى في طلق واحد مع شعراء العالم العربي ، ولذلك لم تخرج « اقصوصته » عن النطاق الذي يلم اطرافها في الشعر العربي ، وقد كان التوفيق إلى جانبه ؛ حيث استقى خياله من نبع الحياة ، واستمد وحيه وإلهامه — في الغالب — من حوادث عصره وأخلاق ناسه ، وصور حضارته .

وسواء أسرد حادثة حقيقية ، أم خيالية ، أم رمزية فهو قد جرى شوطاً — وإن كان محدوداً — في مضمار هذا الشعر القصصي المنشود ؛ إذ أخذ بطرفي القصة الشعرية الفنية ، فأخذ من القصة الجديرة بهذا الإسم : وحدتها ، وواقعيتها ، وبراعتها في أن تروى حكاية الحوادث الجارية ، فحول من التافه شيئاً ذا قيمة ، اهتم له الناس ، وأخذوا يستمتعون بمطالعته ، واختار « بطلها » شخصاً عادياً ممن أهملته وثائق التاريخ .

كما أخذ من الشعر — الذي هو وسيلة التعبير — خياله . حقاً ؛ قد يكون الخيال من النوع غير المبتكر ، وغير المجنح في عالم المثل العليا ؛ ولكنه رائق أيضاً : « فما القصة إلا أحد مظاهر الخيال ، لا الخيال كله » .

فللشاعر « رفيق المهدوي » قصص شعرية منها قصة « غيث الصغير » وقد وقعت حوادثها في « الآبار » إحدى القرى البرقاوية . وهي قصة غلام — دون التاسعة — قد آواه الملجأ بسبب يتمه ؛ لأنه فقد والديه في خلال الكفاح الوطني مع الغاصب الإيطالي ، ولقد زار الوالي الايطالي هذا الملجأ في ذات يوم ، وفي أثناء تجواله تبين في « غيث » شخصية نادرة .

قال : هذا عبقري فارفعوا ... قدره إني ساعطيه وساما

ثم بدا للوالي أن يختبر ذكاءه بإعطائه مائة درهم ، وسأله عن كيفية إنفاقها .

قال : ما تصنع « يا غيث » بها ... قل لي الحق ، ألا تخشى ملاما ؟
قال غيث وبدا الجد على ... وجهه يشبه ليثاً أو قطاما !
إن لي ثأراً إذا أدركته ... لا أبالي بعده إن ذقت حماما
لو تحصلت على مال به ... أشتري : عدة حرب وحساما
أدرك الثارات ممن قتلوا ... والدي إني أريد الإنتقاما

فما كان من الوالي إلا أن ازدرد هذه الجرأة ، وتلاقت نظراته مع بطانته ، في نظرة تحمل في طياتها الموت الزؤام ، فما كان من هذه الشرذمة إلا أن تآمرت بليل لاستئصال هذا الشبل :

نظر الوالي إلى غيث ولم ... يظهر الحقد ، ولا أبدى ملاما
ورأى أتباعه ما غاظهم ... فتعاطوا نظرة كانت كلاما
أضمروا السوء ولكن لم يروا ... سبباً يوجب منه الانتقاما
لجأوا ظلماً وعدواناً إلى ... أفظع الأفعال إذ كانوا لئاما
عادة النذل اغتيال ولذا ... جعلوا سراً له السم طعاما

وللشاعر « الهادي عرفه » قصة « الراعي » وقد وقعت حوادثها في المقاطعة الوسطى بطرابلس الغرب سنة ١٩٤٩ حينما اجتاحت البلاد موجة من البرد القارس ، والريح العاصف ، والثلج المتراكم ، الذي تخلفت عنه بعض الكوارث والمآسي ، تلك المآسي التي كان من ضحاياها الفتى (بدرالدين) الذي خرج ليرعى أغنامه جرياً على عادته مع أترابه كل يوم ، و ..

بينا هم اشتد الصقيع وروعوا
بهزيم رعد ، وانهمار سحاب
والأفق أدجى ، والسماء احلولكت
والريح قد جاءت بكل عجاب

النشاط الثقافي في الوطن العربي

وهنالك أكل الخوف قلب الأم فاستحثت رجلها على البحث عن فلذة كبدها « بدر » الذي حينما أحس بهذه النذر والصواعق طفق يحاول جمع أغنامه ليعود بها إلى الخباء :

وانقض يجمعها بعزم مزاحم
لا خائف وجل ، ولا هياب

لكن قطعانه : « هلكت برغم الكد والتدآب » ، فنكص على عقبيه يبغي النجاة ، ولكنه وقع صريع هذا الزمهرير ، ووافاه والده وهو في الرمق الأخير ، ثم ما لبث أن فاضت روحه بين يديه .

أدرك أبي ! أدرك فإن الموت يد
نو من فتاك مكشر الأنياب
أكذا أموت بمعزل يا والدي ؟
أسرع ، فان القر قد أودى بي
يا ويح أمي ؛ قد وهى جلدي ، وحا
نت ساعتي ، وتقطعت أسبابي
وقف الفتى مترنحاً ، ثم ارتمى
فوق الجليد محطم الأعصاب
جاء الأب المقرور يخبط لاهثاً
تحت الدجى يبغي أعز طلاب
وافاه محتضراً فقال له : أبي
ورنا إليه بلهفة وعتاب
ما مسه حتى تهالك صارخاً
ولدي ؛ فيا لفجعتي ، ومصابي
ثم احتسى كأس المنية هامساً
(صوني بناتك) قد يطول غيابي

وللشاعر « احمد الفقيه حسن » قصص نختار منها قصة « اللئيم » وملخصها : أن ثمة شخصاً لئيماً ، قد ضاقت به مسالك الحياة ، وأوشك أن ينجع نفسه أسفاً ، ولكنه رزق من أحسن إليه ، وعندما شبع استشرى خطره ، وأنكر فضل هذا الكريم الذي أحسن إليه ، بل وتمادى أكثر من ذلك ، فانقلب ينهش في عرضه .

قد جاء في الأمثال من قدم على
لؤم الطباع حكاية لا تدفع
يروى بأن فتى وضيعاً كان في
بؤس ، وكان بفقره يتوجع
ضاقت به سبل الحياة وساءه
شظف من العيش الذي لا يشبع
لم يلق من يسدي إليه صنيعة
لقبيح سيرته التي لا تشفع
حتى إذا سئم الحياة وبؤسها
لاقاه إنسان كريم أروع
فأعانه كرماً على حاجاته
وقضى له منها الذي يتمنع
فهناك لم يرم الوفاء ، ولم يقم
لولي نعمته بشكر يسمع
بل جاوز الحد البعيد بلؤمه
وعدا عليه بما يسوء ويلذع

ويخرج علينا الشاعر « إبراهيم الهوني » في شعره بنوعين طريفين هما : القصة الرمزية كما في « حديث السمكة » . وبوادر من تلك الرحلات الخيالية إلى السماء حيناً كما في «الرحلة السماوية » وإلى العالم الآخر حيناً كما في « رحلة الموت » . وهي رحلات تذكرنا بالمسرحية الإلهية لدانتي ، ورسالة الغفران لأبي العلاء .

وقد يؤخذ عليهما شيء من ناحية الفن القصصي إلا أنها بغير شك مغامرة موفقة في الأسطورة السماوية والقبرية ، وهما رحلتان يستشف الشاعر من ورائهما بعض أسرار الحياة .

وهذا الاتجاه في الرحلات والأساطير يؤكد لنا تطلع الشاعر في الرحلة الأولى إلى السماء ، وتقليب وجهه في أكنافها ، وحنينه إلى هذا العالم العلوي ، عالم الطهر والخير والجمال ، حيث يلتقي بأبيه آدم ، وأمه حواء . وفي الثانية يذكرنا الشاعر بخواطر الموت ، وإغفاءة العين ، وسكون الروح ، وظلمة القبر المخيفة ، التي لا يكاد المرء يصدق – ولاسيما في شبابه – بأنه سيموت ، أو على الأصح سيفقد إحساسه بنفسه ، وبما حوله ، وتلك أول ما ينزل بالإنسان حينما يصاحب عزرائيل ، ويلفظ أنفاسه .

وإخال أن الشاعر قد لقي من عنت الأيام وتصاريفها ما جعل خاطر الموت يراوده ، وهواجس الفناء تعدو عليه ، حتى أنه لينطلق من الدنيا إلى الآخرة ، ومن ظهر الأرض إلى باطنها ، حيث حساب الملكين ، ومستقر الأجساد ، لا فزع ولا اضطراب ، كأنه في موعد حبيب إلى النفس .

ومع أن هذه الرحلة « القبرية » كان طابعها النقد ، فان الشاعر لم يحدثنا فيها : عن فلسفة الموت كأبي العلاء في قصيدته « غير مجد » وعما ينقمه من الحياة التي ستنتهي على أي حال . وكما في قصيدة إبراهيم عبد القادر المازني التي ترجمها عن الألمانية « يمل الفتى طول الحياة » ، وعن خوالج النفس في هذا العالم الموحش ، وعن البواعث التي تدفع بالمرء – مع وثوقه من هذا المصير – إلى أن ينزع إلى خلة الرياء العريق في أبناء آدم ، فيستفظع هذه الخوالج ، ويرى أن في ذلك تنغيصاً له ، وهو لذلك – أي المرء – يحاول أن يعزي نفسه بأن هناك من سبقه الى القبر . وهناك من سيلحقه ، وبأن هناك تجدداً في الحياة ، وخلوداً

النشاط الثقافي في الوطن العربي

في الدار الباقية ، ومن التعلق بأهداب الحياة انبثقت البواعث التي تقول بتناسخ الأرواح ، والتي تسوق الانسان إلى أن يفكر في تخليد ذكره في نسله .

* * *

وإذا كان الشاعر الليبي قد أسهم في هذا المضمار الذي تناولناه بالحديث آنفاً، إلا أنه قصر في معالجة المسرحية الاجتماعية التي تعتمد على النظرة الفاحصة ، والتحليل الدقيق للنوازع الشخصية ، والعواطف النفسية ، والأمراض الاجتماعية ، كذلك قصر في الاستمداد من إناء التاريخ ، ولا أقصد التاريخ العام – كما صنع شوقي لأن أغلب النقاد، ولاسيما الغربيين، يرون أن القصة الشعرية ليست بحاجة لانتقاء أبطالها من أعلام التاريخ ، وأولى لها أن تقصد إلى تصوير حياة هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم – وإنما أعني التاريخ القومي أولا ، والعربي الاسلامي ثانياً .

كما لم يتجه إلى أي نوع من أنواع المسرحية الروائية ، والتمثيلية الشعرية ، تلك التي كان رائدها الأول أمير الشعراء ، بوضعه الحجر الأساسي من هذا النوع في لغة العرب .

وهناك محاولة نحمدها لصاحبها وهو الشاعر على صدقي الذي تشجع فأخرج لنا من هذا الدرب فريدة بعنوان « دماء على رمال الهاني » غير أنه يأبى أن يخرجها على الناس ، أو ييسر لأحد الاطلاع عليها ، لنقرر ما إذا كانت تبشر بمستقبل باسم في ميدان الشعر الليبي أم لا ؟ وقد أوجز لي خلاصتها وهي : تدور حول شاب أخذ يعد نفسه ، ويتأهب ليبنى بعروسه ، وفي ليلة زفافه ، فوجيء بنفير الجهاد يدوي ، فاصطرعت في نفسه الانفعالات المتباينة ، أيترك عروسه ويذهب لميدان الوغى ملبياً نداء الواجب ، أم يخلد إلى أحضان عروسه وخاصة أنه على أبواب السعادة التي طالما تشوفت نفسه إليها ، وفي النهاية تغلبت عاطفة الجدود ، عاطفة البسالة والإقدام ، فامتشق « شهاب » سيفه ، وامتطى صهوة جواده ، وانطلق إلى ساحة المعركة ، حيث التقى مع العدو الغاصب على رمال « الهاني » تلك المنطقة التي تقع على بعد ميلين شرقي مدينة طرابلس.ولقد شهدت تلك البقعة – من يوم الاثنين ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١١ عقب إعلان ايطاليا الحرب على ليبيا – أعظم موقعة في تاريخ ليبيا سجلها التاريخ بمداد من نار ونور ، وهي صفحة من صفحات البطولة الرائعة التي عرف بها المجاهد الليبي اذ انتصر فيها على الاعداء رغم تفوقهم في العدد والعتاد ، ولكن بعدما اختضبت هذه الأرض بالدماء الزكية ،دما المجاهدين الأبرار ، دماء « شهاب » وإخوانه .

وقد أمدنا الشاعر بهذه المقتطفات بعد جهد من الفصل الأول :

اصحاب « شهاب » يترنمون بأغنية في مجلس طربهم ليلة زفافه :

كم همت بهـا زمناً صبا ... تشكو لنسيم إن هبـا
فمشت بغرامك ركبـان ... لتناجي بالشعر القلبـا
من وحي صريع الصبوات
هـات الأقداح لنـا هـات ... فالدهر موال وموات
الآن رجاؤك قد حقق ... بزواجك من وجـه مشرق
مـا أنت اليوم بنادينـا ... لكن في الخلد بنا تخفق
وعروسك تزجي البسمات
هـات الأقداح لنا هـات ... فالدهر موال وموات

وبينما هؤلاء الرفاق يمرحون آمنين ، فوجئوا بسماع صدى مدافع تتجاوب في السماء : الطبال :

يا بني العرب الجهاد ... اسمعوا صوت البلاد
أنتم اليوم العمـاد ... فانهضوا في كل واد
واضربوا جيش الفساد ... يا بني العرب الجهـاد
موطني نادي الفداء ... نحن في يوم الدمـاء
فالبسوا المجد رواء ... وادحروا جيش الإمساء
واسمعوا هذا النداء ... موطني نادى الجهـاد

أحد أصدقاء شهاب :

إنها الحرب : ايطاليا ... أوقدتهـا الآثمـه
أفرغت ناراً على ... أرض الجواري العائمة

شهاب :لا غناءَ بعد هذا اليوم ... بل طلق الرصاص
وغدا نضحي مع الأبطال في جيش الخلاص
ثم نقتص من الطليان فالحرب قصاص

شهاب مخاطباً أمه وقد شاهدها مقبلة نحوه :

أماه إني ذاهب ... لأخوض ناراً حاميـه

الأم هند : ويلي عليك أعائد ؟

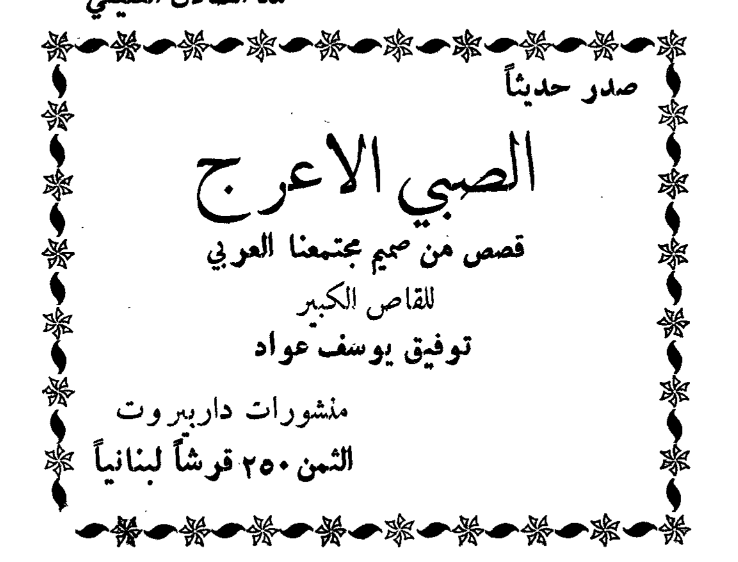
شهاب : ... بعد انهزام الطاغيـه

الأم : العرس يا ابني قائم ... وعروس حبك هاهيـه
هلا بقيت لتجتلي ... حلمـاً بدافيء (شاديه)

شهاب : لا ، لا ، فإني راحل ... نادت بلادي الغاليـه
إني الفداء لموطني

الأم : ... وأنـا بشيبي فاديـه
أنـا لست أماً للذي ... يخشى العوادي العاديه
لا كان من نسلي فتى ... لم يعط حق بلاديـه

محمد الصادق العفيفي



أضواء .. على مشكلة اليمن

في مرحلة دقيقة من ظروف تطور الشعب اليمني، حاك الإستعمار البريطاني مؤامرة لاحتلال مناطق طالما حلم بها، نظراً لأستراتيجيتها وأهميتها في تدعيم نفوذه في مستعمراته في الهند، التي كثيراً ما طمع القواد الفرنسيون في إضعاف نفوذ الإستعمار البريطاني فيها، نظراً للتنافس الاستعماري بين الدولتين. وكان الشعب اليمني يقاوم الإستبداد التركي تلك المقاومة العنيفة التي أعجزت الأتراك عن إخضاعه لنفوذهم، مما أدى إلى استقلال بعض المناطق في الشمال بقيادة الأئمة وبعض المناطق في الجنوب التي أصبح لها سلاطين يحكمونها مباشرة، كسلطنة «لحج» التي كانت تسيطر أيضاً على ميناء عدن. وكان لبريطانيا الحق في إرساء سفنها على ساحل عدن، بناء على اتفاق سابق مع تركيا؛ بيد أن بريطانيا وجدت الفرصة سانحة لعمل شيء، فالأتراك منشغلون بمقاومة الإنتفاضات في الشمال، والسلطان لا يملك من القدرة ما يمكنه من الدفاع عن ميناء عدن، فدبرت مؤامرتها المعروفة باتهام الصيادين بنهب إحدى سفنها، وعلى أثر هذا طلبت من السلطان تعويضات ضخمة، وحددت مدة لدفع التعويضات وإلا تعرض هو وبلاده للخطر. ولما عجز عن دفع هذه التعويضات عمدت بريطانيا إلى احتلال المنطقة بالقوة، بدعوى تأديب الأهالي والمحافظة على مصالحها في هذه المنطقة الحيوية. وحاولت تركيا إخراج بريطانيا من هذه المناطق ولكنها فشلت. أما بريطانيا فقد وجدت نقطة إرتكاز، وأخذت تنطلق منها متوسعة تارة بالقوة وتارة بمساومة السلاطين وأمراء هذه المناطق عن طريق إغرائهم بالمال والمحافظة على مراكزهم كحكام لهذه المناطق، إلى أن احتلت جزءاً كبيراً من جنوب اليمن هو ما تسميه اليوم بمستعمرة عدن والمحميات الشرقيه والغربية. واستغل الإستعمار البريطاني فساد الأوضاع وتصدع كيان الشعب اليمني وما وصل إليه من التأخر على يد الإستعمار التركي عندما وجد في هذا ضماناً لبقائه: وأخذ يزيد في تعميق جذور الأوضاع المتخلفه، ومساندة الفساد المتغلغل داخل هذا المجتمع، من نظم قبليه، إلى تدهور اقتصادي وثقافي، وقضى على الصناعة الحرفية الوطنية وأوقف نموها بتدفق منتجات الشركات الإستعمارية على أسواق هذا البلد واحتلالها بعد عجز المنتجات الوطنية عن الوقوف أمام ما تنتجه وسائل الإنتاج الإستعمارية المتطوره، مما سبب خلق أزمات معيشية جديدة بالنسبة لعامة الشعب التي لا تسمح لها قدرتها الشرائية بالحصول على المنتجات الجديدة، وانعدام المنتجات الوطنية الرخيصة من الأسواق. وبهذا نشأت تناقضات معيشية، وبرزت طبقات متفاوته في أوضاعها الإجتماعية؛ وهذه التناقضات عادة ما تحمل نهاية الإستعمار في أحشائها، كما ثبت من تاريخ الشعوب التي وقعت تحت سيطرته الإستعمارية. ومنذ احتلال بريطانيا لميناء عدن، الذي يرجع تاريخه لأكثر من مائة عام، والإستعمار البريطاني الذي يدعى بأنه يقوم برسالة حضارية في البلدان المتخلفة يمتص ثروات هذه المناطق لصالحه وصالح من يعيشون في كنفه من الإقطاعيين الذين يبنون قصوراً نموذجية وسط الاكواخ المزبله. وتبريراً لإستغلال هذه المناطق بدأ الإستعمار يفرض اتفاقيات غير شرعية مع السلاطين، مستعملا وسائل القوة والاغراء لإقرار هذه الإتفاقيات. وترتب على هذا الإستغلال الوحشي المنظم الذي تحميه اكثر من قوة وجود مشاكل معيشية، تفتك بالشعب الذي اراد له الإستعمار الجوع والجهل، إذ لا توجد مدرسة في المعنى المفهوم او مستشفى واحد في المحميات عدا مستعمرة عدن، نظراً لأنها قد اصبحت من أهم الموانيء في الشرق الاوسط او سوقاً يحتكره الاستعمار البريطاني ووجدت فيها جاليات اجنبية متعددة. لهذا عمد الاستعمار إلى تنظيمها تهيئة لخدمة مصالحه ومرافقه، فبنى عدداً قليلا من المدارس التي لا تخرج مثقفين بل كتبة من الدرجة العاشرة يشغلون فراغاً في الإدارة والشركات الإستعمارية، كما أن هناك مستشفى واحداً اطباؤه طلبة جاءوا للتدرب على العمل فيه من جامعة لندن أو باكستان. ونهمل المستشفى الحربي لأنه خاص بالبريطانيين ومن يعملون لهم باخلاص.

وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات الوقائية التي اتخذها الاستعمار لحماية نفسه، فقد تعرض وما زال يتعرض كل يوم لهجمات مسلحة خاصة على حدود الجزء المستقل تشنها بعض القبائل كقبيلة الشعار وغيرها. ويلجأ الإستعمار الى قمعها بأساليب غاية في التوحش والإجرام. وكثيراً ما يفلت من يده زعماء هذه القبائل هاربين إلى الجزء المستقل. وفي خلال السنوات الأخيرة والقريبة جداً، اخذت هذه الانتفاضات تتسع وتنتظم مناطق كثيرة. وقامت حركة نقابية بمساعدة بعض الشبان المثقفين الذين شعروا بمسئوليتهم التاريخية، مما أزعج الشركات الإحتكارية والدوائر الإستعمارية التي لجأت إلى اضطهاد هؤلاء الشبان المثقفين كعبدالله باذيب ومحمد ناصر ومحمد عبده نعمان والقضاء اما بمحاكمتهم أو بطردهم من العمل أو نفيهم خارج منطقة عدن. ولما لم تعد هذه الأساليب مجدية ولا تملك القدرة على اعاقه تطور شعبنا واندفاعاته فقد قامت المظاهرات وهي تهتف بسقوط الإستعمار و«لويد» وكيل وزارة المستعمرات البريطانية الذي كان يزور عدن في ذلك الوقت. وعلى مرأى منه سار المتظاهرون هاتفين بحياة جمال عبد الناصر رافعين لافتات كتب عليها عبارات التحرر الوطني والإستقلال وسقوط الاستعمار، وسقط كثير منهم في هذه المظاهرات برصاص المستعمرين. وفي نفس هذا الوقت كان الجزء المستقل شعباً وحكومة يعضد هذه الإنتفاضات وتقف حكومته في صف الحكومات العربية المعادية للاستعمار. كذلك إهتمام الحكومة اليمنية بموانيها اخيراً كالحديد والمخا واصبحت تصل اليها السفن اليمنية مباشرة دون الإحتياج الى الرسو في عدن، وبدأت الحكومة اليمنية ايضاً تهتم بمواقع غاية في الأستراتيجية كباب المندب والشيخ سعيد وهما من اخطر المواقع العسكرية بالبحر الاحمر، فلا يقلان أهمية عن قناة السويس، حتى ان بريطانيا عرضت يوماً على الحكومة اليمنية التنازل عن الشيخ سعيد وباب المندب مقابل تنازل بريطانيا عن المحميات الغربية، غير أن الحكومة اليمنية رفضت هذا العرض وكانت ترفض دائماً

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الوصول مع بريطانيا الى إتفاق نهائي يبرر شرعية الاوضاع في جنوب اليمن منذ تكونت حكومة الإمام يحي التي اعترفت بها الدول وأصبحت بعدها اليمن عضواً فيهيئة الأمم المتحدة، وأثارت الحكومة اليمنية مشكلة جنوب اليمن في مجالات ومؤتمرات دولية كثيرة كباندونغ ، مطالبة بهذه الأجزاء المقتطعة .

وإزاء اصرار الحكومة اليمنية وتمسكها بحقها في هذه المناطق ومساندتها للقبائل الثائرة على الإستعمار البريطاني ونهجها الإستقلالي محاولة الخروج من عزلتها ، امتلأ صدر الإستعمار بالحقد على هذه السياسة والمواقف الجديدة وبدأ يشن حملة ضدها بواسطة اذاعته المحلية في عدن ، وكان في نفس الوقت يبيت أكثر من هذا الهجوم لتحقيق ما يهدف إليه من ضغط على الحكومة اليمنية وتوسع على حساب الجزء المستقل وزاد تحريك هذه المطامع خروج الإستعمار البريطاني من مصر والأردن، لأنتخليه عن هذه المناطق الحيوية افقده مناطق نفوذ طالما تشبث بها واخيراً لجأ إلى اعتداء وحشي على حدود اليمن (الجزء المستقل) وضرب المدن والقرى الآهلة بالسكان بالمدافع والطائرات مشرداً الأهالي وغير مكتف بالتهديد والضغط في سبيل الحصول على مناطق نفوذ جديدة قد تعوض ما فقده في مصر والاردن: مستغلاهذه الظروف القلقة التي اوجدها في الشرق الاوسط وشغل بها الرأي العام العربي و العالمي كاعتدائه على مصر واثارة معارك جديدة من معاركه غير الشريفة .

وللإستعمار البريطاني مطامع كثيرة في الجزء المستقل ، خاصةبعد أن تأكد من انهذا البلد غني بالثروات البترولية وغيرها من المعادن، وذلك عن طريق ما تسرب اليه من تقديرات الشركات الأمريكية التي تعمل الآن في اليمن بعد ان اشترت امتيازات الشركات الألمانية بمبالغ طائلة . ومن الطبيعي ان الشركات الامريكية لم تدفع هذه المبالغ الضخمة الإ بعد الوقوف على حقيقة هذه الثروات التي تتنافس اليوم وتتصارع من اجلها الشركات الإحتكاريه الأمريكية والبريطانية صراعاً استعمارياً رهيباً على حساب الشعب واصحاب هذه الثروات التي تتعرض بلدانهم للمجاعة والخطر . واليوم يعبر الاستعمار الانجليزي عن هذه المطامع باعتدائه الوحشي المتكرر على الجزء المستقل والذي يدعم به في نفس الوقت كيانه في جنوب اليمن كآخر معقل يحتفظ به ، لاسيما وقد تضاعفت مصالحه في هذه الرقعة التي اصبحت حقلا يستثمر الإستعمار خيراته فيزرع فيها كميات كبيره من القطن بطريقة ايجار الأراضي للفلاحين وتسليم المحاصيل للدوائر الاستعمارية نظير أجور زهيدة . هذا الى جانب اكتشاف كميات كبيرة من البترول في الاجزاء المحمية كحضرموت ومنطقة شبوه الواقعة في خدود الجزء المستقل وتتداخل منابع البترول فيها ما بين الجزء المستقل والمحتل في إمارة بيجانحيث تتعرض هذه المنطقة اليوم للضرب بالقنابل من الطائرات والمدافع من قبل السلطات البريطانية التي تحاول انتزاع مواقع البترول داخل الجزء المستقل بالقوة وضمها إلى إمارة بيحان التي تسيطر عليها . وسبق أن أعتدت السلطات الإستعمارية على هذه المنطقة من أجل الغرض نفسه ، وللإستعمارالبريطاني سوابق فيالقرصنة كما عمل علىاغتصاب واحة البريمه من الأراضي السعوديه التي توجد بها الشركات الأمريكية . والإستعمار البريطاني يسعى من وراء هذه الإعتداءات في اليمن إلى غرضين رئيسيين ، وهما أولا محاولة إيجاد مناطق نفوذ جديدة كما أشرنا الى ذلك سابقاً كباب المندب والشيخ سعيد وغيرهما من المواقع الحيوية والتي هي حقول غنية بالخيرات البترولية وغيرها من أجل استغلالها وخلق قواعد حربية في أماكن لا يمكن اكتشافها ببساطه كقواعده في قبرص مثلا ، ثانياً عدم إتاحة فرصة لليمن المستقلة لتخرج من عزلتها ومحاولة إعاقة تطورها وإرغامها على الإعتراف بشرعية الأوضاع في جنوب اليمن وإشغال حكومة الجزء المستقل بالدفاع عن حدودها الأمر الذي لا يسمح لها بمساعدة الثوار وتدعيم الحركات في الجنوب .

والملاحظ اليوم أن بريطانيا مهتمة بمركزها أكثر من أي يوم مضى في جنوب اليمن نتيجة تخوفها من امتداد الثورات التحريريه التي يقوم بها الشعور القومي في مختلف اجزاء الوطن العربي وتصلب المقاومه التي تواجهها اليوم على يد الوطنيين في هذه المناطق ، ولهذا فالدوائر الإستعمارية في عدن قد أخذت تنشط في السنين الأخيرة بشكل ملحوظ ، وطلعت على الناس أولا بمشروع الحكم الذاتي لعدن ، وعهدت الى عملائه في تبني المشروع وهم رجال الجمعية العدنيه ، ومات هذا المشروع لعدم وجود أنصار له إلا من الجاليات الأجنبية وأرباب المصالح وهم قلة . غير أن الدوائر الإستعمارية طلعت بمشروع ثان وهو الإتحاد الفيدرالي لعدن والمحميات بشكل دولة في نطاق الكومنولث البريطاني وعهد إلى السلاطين بالعمل له فأيده بعض السلاطين ورفضه البعض كما أيده بعض من توثقت مصالحهم بمصالح الإستعمار ولما لم يحظ أيضاً هذا المشروع بتأييد كبير ظهر أخيراً مشروع ثالث وهو يتفق مع المشروع الأول بأشياء كثيرة أهمها تمزيق وحدة الشعب اليمني وإيجاد دولتين لشعبين متميزين اليمن والجنوب ، ويختلف بأنه لا ينص على أن تكون هذه الدولة ذات السيادة في الجنوب مرتبطة بالكومنولث ، بيد أن الخطر ليس في الإرتباط فقط وقد لايكون الإرتباط خطراً إذا كانت هناك فعلا دولة تملك مصادقة الدولة والإمكانيات الكافية لحماية سيادتها ، فالهند مثلا عضو في الكومنولث ولكنها رغم هذا غير مرتبطة بالسياسة البريطانية . وهذا المشروع الثالث تعمل على تحقيقه رابطة أبناء الجنوب ويؤيده بعض السلاطين من ذوي الطموح والثقافة وطبقة اجتماعية معينة إلى جانب كثير من الوطنيين المغرر بهم لأنهم يرون فيه مالا يرونه في المشروعين السابقين . ولكن لا يدركون أن هذا قد يشكل خطراً لم يعد يشكله المشروع الأول أو الثاني بعد موتهما ، إذ أنه يحد مستقبل الشعب اليمني على أساس هذه التجزئه لوحدة الطبيعية التي تكونها الأرض الواحدة والتراث والتاريخ الواحد ، وتعرقل في نفس الوقت سير الشعوب العربية نحو الوحدة القومية التي ما زالت هذه الدويلات المتناثرة عقبة تقف في سبيلها .

القاهرة — **عبده عثمان**

الله في الفن

– تتمة المنشور على الصفحة ٨ –

لقد ظهرت المسيحية والله فيها فكرة سامية لا تحتمل شكاً، ولها في أكثر من جانب اتجاه نحو التوحيد . ولكن اتصالها باليونان من ناحية واحتكاكها بالتراث البابلي والأشوري من ناحية أخرى قد فتح الباب أمامها لتنقل إلى طقوسها صوراً ونقوشاً ربما كان فيها كثير من الوثنيات ، حتى إذا مضت القرون الخمسة الأولى كان المسيح « الإله » هدفاً لكل رسام ، ولم يفد التقليد السامي في وقف هذه الحركة ...

ويظهر الإسلام بنفس الفكرة السامية ، ولم يُجْدِ ما روي عن الرسول من أنه قال إن الله جميل يحب الجمال ، ولم يلن فقهاء الدين أمام صراحة القرآن حين دعا إلى هذا اللون من التأمل الفني السليم « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » بل غفل الجميع عما يأخذ به الخلفاء أنفسهم من إشباع نهمهم إلى الفن في الرداء الموشى والقصر المزخرف والصوت الحسن والشعر الدقيق والغناء المؤثر ، واتحدت الجهود على إبراز الدين في صورة بشعة تسفه الدافع الجمالي ، وتقضي على أسبابه ، وتهدم أشكاله . وكانت مسألة تحريم التصوير هي القوة الدافعة إلى اتحاد الجهود .

لقد كان كل من الدين والفن في حالة توازن كامل في العصر الهليني كله ، ولكن العناصر السامية استطاعت أخيراً أن تعمل عملها في الدينين الجديدين . فأما المسيحية فقد تخطت الحدود ، وأما الاسلام فقد رضي بالقيود!

كان سواع ويغوث ويعوق ونسر – الآلهة المصورة الممثلة – مأساة كره المسلمون أن تتكرر . لقد روت لهم الأثبات أنهم كانوا قوماً طيبين في ذات فترة متقدمة من الحياة حتى إذا ماتوا خلدهم قومهم في تماثيل ، ثم غبرت الأجيال .. جيلا بعد جيل ، ويستحيل التقدير تألهاً ، فالتماثيل في أول الأمر رموز مقدسة ثم هي في آخره آلهة معبودة !!

وعلى أكبر الظن شغلت هذه الفكرة وأمثالها عقل المسيحية بعد أن تمت عملية الارتباط بين التصوير والعقيدة فوقع ما كان لابد أن يقع . على أننا لا نتناسى مطلقاً أن رجال الدين كانوا – على ما يبدو – يتأثرون بأهواء وسياسات مختلفة ، وانتهى الأمر بثورة على الفن .. بالقضاء على كل الصور المقدسة ، والعجيب أن هذه الواقعة لم تكن إلا حركة سامية.

وليس من داع إلى أن نتتبع بالتفصيل وقائع تلك المشكلة، فقد انتهى أمرها وعدنا الآن نرى كيف أن المسيحية تؤدى في صورة فنية رائعة ... في جو شاعري أخاذ قوامه التصوير والتمثيل والشعر والموسقة الحزينة حزن المسيح ! فنحس من قريب أن التعارض بين الفن والمسيحية لم يكن كبيراً ، ولم يستمر طويلا ، ولم يكتب له الاتساع . ومن المؤكد أن ذلك الأمر بتلك الكيفية لا يعني مطلقاً أن عصر النهضة الذي يؤرخ به تاريخ أوروبا الحديثة لم يشهد حركات قوية لفصل الفن عن الدين ، بل أخذ الناس يشغلون أنفسهم بالطبيعة وما فيها عن يسوع وقديسيه ورهبانه !

ونمسك الخيط من هنا ، فان الفن سيكون عرضة للمد الفكري والجزر . وأصبح هذا الفكر في القرن الثامن عشر على درجة من النمو بحيث يقدر في أي وقت أن ينتفع – أو لا ينتفع – بالفن انتفاعاً دينياً . وفي ظل الارستقراطية الإقطاعية كانت ثمة حضارة ريفية قوامها الدين فيدعمها شيء كالتفويض الإلهي الممنوح للملك . فامتازت العمائر بالأسلوب القوطي لتكتمل أسباب الرهبة للاقطاعيين . والمعروف أن الفن القوطي مسيحي النشأة عرفته العصور الوسطى بعد أن قامت الكنيسة الرومانية بتعليم القوط – برابرة الشمال – مبادئ المسيحية. وكانت الرجعة إليه في هذا القرن رجعة إلى العصور المظلمة ، والله في أي الحالات هو يسوع الحزين ...

ولكن القرن التاسع عشر يشهد نشوب الثورة الآلية ويضطرب بالتقدم العلمي والصناعي ، وفي الوقت نفسه كانت البرجوازية تنشط للحياة بعيداً

عن الريف بعيداً عن الكنيسة، بعيداً عن الإله الحزين، وسخر كل شيء في سبيل خدمة تلك الطبقة الناشئة.. كل فرد فيها عالم مستقل لأنه هو نفسه صانعه! كانت (الأنا) كل شيء، والمنفعة مصدر السلوك. وليس من ضير أن ينقد الكتاب المقدس ويخالف، وما على « روبرت تشيمبرز » من بأس إذا خالف التوراة وربط بين القرد والانسان، فالله الجديد ليس المسيح، الله الجديد هو (الأنا) أو الآلة أو المال أو المادة كلها!!

والأدب يسجل ذلك كله.. يسجله إلى جانب ما سجلته كتب الاقتصاد والفلسفة والاجتماع. الأدب يصور الميلاد الجديد، ويحتفل بالعلم، وينكر الدين. ويكفي الفرد لكي ينكر أن يرى كيف أن ما جاء في الكتاب المقدس لا يطابق ما استحدث من نظريات. ولنقرأ « تنيسون » فهو في شعره مثل واضح للإلحاد والحيرة والاضطراب بين الغيبية والتجريبية.

وفي هذه الفترة بالذات كان الشرق العربي مغرقاً في الجهل متخلفاً عن الركب، وانتهى إلى حالة يائسة وجد فيها الخلاص في لون من التصوف القاتل. وكأنما الشعر – وهو أبرز فنون العرب – قد أتى على كل نواحي الحياة فلم يعد أمامه إلا شخصية الرسول. وكان أن استعرت معركة المدائح النبوية في غير ميدان!

كان القرن كله إذن حافلا بالمتناقضات. كان صورة للبلبلة الحضارية إن صح هذا التعبير، وكان الرخاء المادي الذي عرفته أوروبا بالذات يضاعف الشقة بين حياة المجتمع وأمل في إيطوبيا سمحاء. كانت البرجوازية لا تسمح للبروليتاريا أن تعيش. كانت تنادي بتخليص الرجل الأسود من الجهل وتحيط رجلها العامل بقيود أخف ما فيها الجهل، وبات من المحقق أن الأمر يحتاج إلى تغيير القيم.. فهو ينقصه حياة روحية منظمة، دافع ديني كريم...

ظهر « أوسكار وايلد » يسخر من البرجوازية ويعبث بتقاليدها، وراح يهاجم إيمانها بالمادة، ونادى بدين جديد.. ربما لا يمت للمسيحية بصلة، ولكنه دين على أي حال، أهم ما فيه أنه يقدس الجمال، وأما العقل فلا غناء فيه. لنقرأ صورة « دوريان جراي » ففي هذه الرواية فلسفة الكاتب كاملة، وفيها ما يدل على حاجة إنسان ذلك القرن إلى إله جديد غير ما صنع من آلهة!

ويبدو أن المسيحية لم تعد بالكيفية التي تقنع كل آخذ بها، فهذا « ماثيو آرنولد » يعلن إفلاسها وقيام آله الثقافة. وأما الآلة فهباء، وأما الصناعة فلا تبشر بكل ما تعرب عنه البرجوازية من تفاؤل.

وفي ذلك الوقت كان شلي – وهو الداعية إلى فلسفة البرجوازية – يعمل على أن تظل العقيدة بعيداً عما يقف ضد رغباته. كان الدين عنده هو مجموعة الأخلاق التي يرى المجتمع أنه يريدها وأنه يصل إليها بنفسه.. بتفكيره.. بل بخياله، لأن الخيال وحده هو الذي يستطيع بادخال المجال السلوكي أن يقتحم حدود « الأنا » إلى الجماعة.

إن الدين هو الحب، وهدف الإنسان هو الحب، ورسالة شلي – إن كانت له رسالة – أن يعلم الناس كيف يحبون، وجوهر الأخلاق التي امتازت بها أكبر أعماله الشعرية (برمثيوس طليقاً) هو الحب. والشاعر نبي يتلقى الوحي كما يتلقى الأنبياء رسالات السماء، وأما المسيحية فهي تموت كما ماتت عند ماثيو آرنولد.. رجال الدين أنفسهم هم الذين يقتلونها بتعنتهم! وهو لذلك يكرههم ويناصبهم العداء وينكر تعاليمهم ويحارب نظمهم.

تلك هي فلسفة شلي كما يراها دكتور لويس عوض. إن دينه هو الذي ينادي به برمثيوس لأنه كائن فريد.. فيه قوة الإله وسماحته، وفيه صبر أيوب وبلاؤه، وفيه بطش جوبتر وظلمه، ثم فيه انانية الإنسان!

لنقل في صراحة إن الله لم يعان قط ما عاناه في هذا القرن – التاسع عشر – ولكنه لم يكن متوارياً دائماً ، واتخذ في الفن صوراً شتى ...

وماذا الآن:

أما اليوم ففكرة الله تتجلى فيما يثار حول الإنسان ، فقد سبق القول إن فلسفة هذا القرن تهدف إلى تمجيده وترمي إلى تحديد علاقاته – في مجاله السلوكي – مع الغير .. وعلى هذا الأساس نلحظ أن الله – في اطاره الديني – لابد انيكون حقيقة من الحقائق الواقعية .. حقيقة لا يمكن تفتيت مظاهرها إلا بالقضاء عليها ، وفي هذه الحال نسلب الانسان حقه في حياة إنسانية كاملة .

لقد تعرض القرن العشرون لهزة حربين كبيرتين ، ولحركات استقلالية تقدمية مختلفة ، وشهد بزوغ مجتمعات على أنقاض الرأسمالية العجوز فكان عليه أن يعيد الفكر من جديد في حياته الروحية كلها . وكان عليه أن يدرك أن ثمة شيئاً واحداً لابد يثبت مهما كانت الانقلابات عاصفة عاتية ، أما هذا الواحد الثابت فهو فكرة الله .

وربما ينهض من يشير من بعيد أو قريب إلى المادية الجدلية مرة وإلى الوجودية مرة أخرى .. يشير إلى هذين المذهبين ثم يروح يسأل : وأين الله ؟ «كارل ماركس» وهو المؤمن بالمادة لا يستجيب لنداء روحي ، وإلهه لا يسكن السماء وإنما يغرس على الأرض ، لأنه هو القاعدة .. الهيكل الاقتصادي للأمة ! و « مارتن هيدجر » و « سارتر » يضعان ديناً جديداً للانسان .. ديناً يعني بالحياة من حيث هي مسلك واتجاه في وجود حر وبلا مصير مقيد !

أثمة تعارض بين هذا وبين ما قلناه ؟ إني أشير إلى ما ذكرت عن الحربين ، والأمر بعد لم يستتب ، ولم يستقر العالم على شيء ، والقاعدة عند « ماركس » ومسألتا الماهية والوجود عند « سارتر » تلقى اليوم من الجدل مالا سبيل إلى حصره هنا ، ولكني أنكر أن تكون الشيوعية بهذا البعد الهائل عن الله ، وأنكر أن تتنصل الوجودية من القوة التي تحاول هي أن تتخلص منها .. فسواء أكان الله سلبياً أم يقوم بدور ايجابي فنحن يجب أن ننتظر ...

واليوم نرى الدين في المعسكر الغربي وسيلة فعالة لبسط نفوذه ، فهناك حشد هائل من الأفلام الدينية ، وهناك حركة نشر للكتاب المقدس في صور فنية مغرية ، وهناك أقوال يلقي بها الساسة والقادة لتخدير الشعوب العاجزة .. نداءات تشبه نداءات محمد والمسيح ، فالله موجود وسوف يظل في الوجود ، وأما بعد هذه النداءات ، وأما بعد هذه الحركة الفنية الدينية ، فأمر تعرفه دولة كالسودان أو دولة كباكستان !

إن الأمة العربية الصاعدة .. في حياتها الجديدة النامية ، تستطيع أن تحمي نفسها ، وتستطيع أن تحرص على دينها ، وتستطيع أن يكون لها فنها في ظل فلسفتها العربية .. في ظل قوميتها ذات التاريخ العريض ، فهي ليست في حاجة إلى من يوجه لها النداء ، وهي لا تخاف إذا تحركت داخل مجالها لأنها تؤمن بأنها تريد أن تعيش حياتها كاملة .

أجل ، فنحن في شرقنا العربي نكافح من أجل حياة كاملة .. من أجل اشتراكية متمشية مع تحررنا القومي ، وعلينا في هذه الحال أن نرفض التفسير المادي الذي تقوم عليه الشيوعية ، ونرفض في الوقت نفسه الحل الوقتي الذي تقدمه الرأسمالية مشوباً بالغيبيات !

أما تلك الأصوات التي ترتفع من هنا وهناك بيننا والتي تريد أن تجعل لنا إلهاً لا ترضى عنه كتبنا المقدسة ، فلن تجد لها آذاناً مصغية ، لأن الحياة تسير ، ومجالنا السلوكي يتسع ، وحبنا للفن يتضاعف ، وإحساسنا بالجمال يرهف ، ولن يستطيع أحد بعد أن يقول : هكذا أمر الدين ، وعن ذلك يرضى الله أو يثور .

الخرطوم

احمد كمال زكي

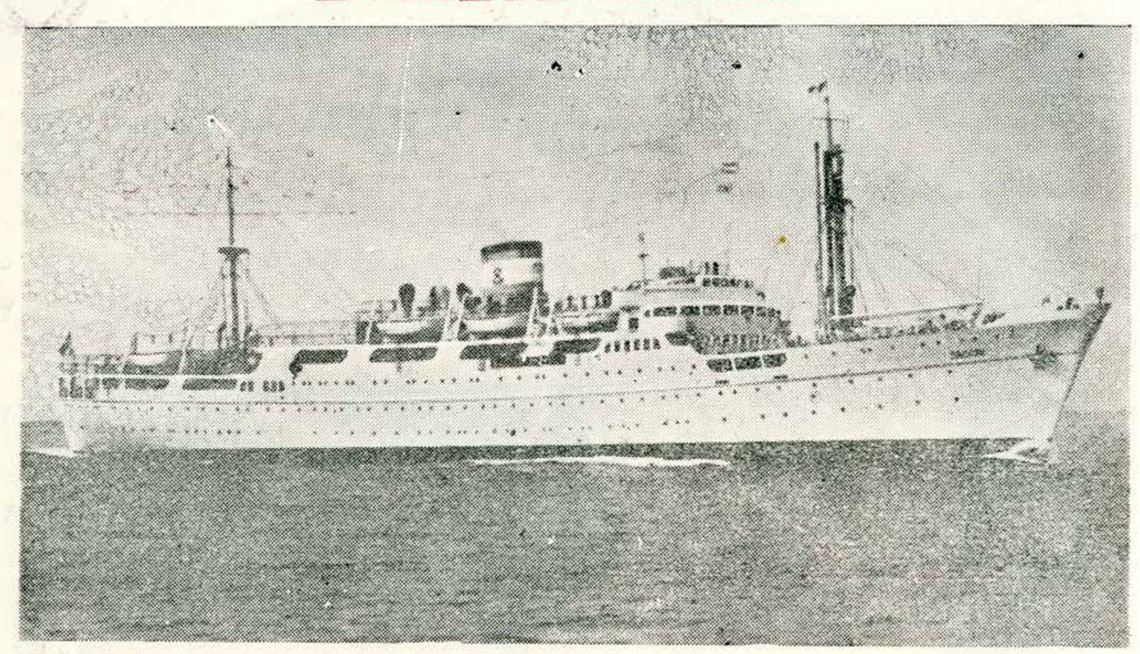
من الجمعية الأدبية المصرية

فهرست

العدد الرابع - نيسان (ابريل) ١٩٥٧ - السنة الخامسة

الخطوط البحرية التركية

DENIZYLOLLARI



تعلن عن استئناف سير خطوطها بين بيروت :

الاسكندرية – نابولي – مرسيليا – جنوى

على ظهر الباخرتين الفخمتين

اسكندرون وسمسون

الرحـــلات القادمة

اسكندرون في ٣ نيسان ١٩٥٧ الساعة الثانية عشرة ظهرا

اسكندرون في ١٧ نيسان ١٩٥٧ 〃 〃 〃 〃

اسكندرون في ١ ايار ١٩٥٧ 〃 〃 〃 〃

سمسون في ١٥ ايار ١٩٥٧ 〃 〃 〃 〃

سمسون في ٢٩ ايار ١٩٥٧ 〃 〃 〃 〃

تبدأ الرحلات الاسبوعية المنظمة كل يوم اربعاء بعد **٢٩** ايار القادم من بيروت الى المرافيء المذكورة

ان هذه البواخر تقبل ركاباً وبضائع بأفضل الشروط

لكافة الاستعلامات راجعوا الوكيل العام

فوزي جميل غندور

تلفون ٢٠٢٠٧ – ٢٠٢٠٨ – ٢٤١٤٢

ص.ب ١٠٨٠ – شارع اللنبي – بيروت وجميع وكلاء السفر

مطبعة دار الكتب - بيروت